

رئيس جنوري

الفكر العربي الحديث

أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي

منشورات . دار المصنف .

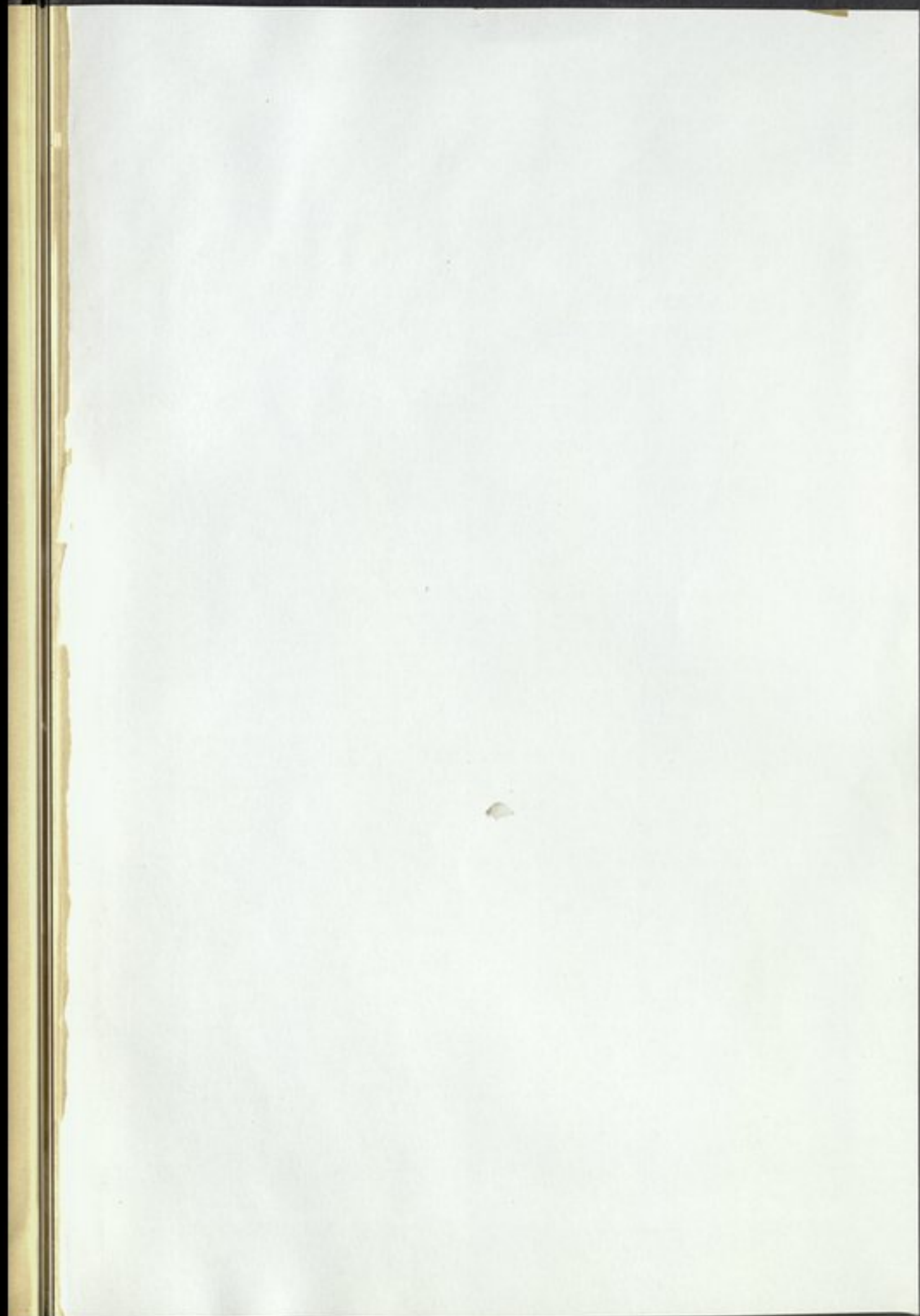
AUB. LIBRARY

American University of Beirut
University Libraries



Donated by
Yusuf Kozma Khoury

AUB. LIBRARY



كتب للمؤلف

حبة الرمان
وهل يخفى القمر
حقوق الانسان
امرؤ القيس
النقد والدراسة الادبية
مجوسي في الجنة
معالم الوعي القومي
مع العرب في التاريخ والاسطورة
ثورة بيدبا



في الاعداد :
نحن والثقافة العربية
المتنبي (سيرة نفس في ديوان)

Philippe Bami

رئيس محوري

892.709

Kh 91FA

C.1

الفكر العربي الحديث

آثار الثورة الفرنسية في توجيه السياسة والاجتماعي

منشورات « دار المبحر »

بيروت ، لبنان ، ١٩٤٣

طبع من هذا الكتاب ٤٠٠٠ نسخة على ورق ودفري ،
وعشرون نسخة على ورق ممتاز مرقمة من ١ الى ٢٠
وهي خاصة بالمؤلف

سيرة علي بن أبي طالب

تأليف العلامة الفاضلة آية الله العظمى

الطبعة الاولى ، ١٩٤٣

جميع الحقوق محفوظة

فهرس

١٤ - ٩	• • • • •	مقدمة بقلم عمر فاخوري
١٥	• • • • •	اعلان حقوق الانسان
١٧	• • • • •	فاتحة
١٩ - ١٨	• • • • •	توجيهات من : ج . غيو ، لامينيه ، غوته ، ابي بكر الصديق ، ادب اسحاق ، شوقي ، مصطفى كامل باشا ، ميشله
٢٥ - ٢٠	• • • • •	اهم مراجع الكتاب : الفرنسية ، الالمانية ، التركية ، العربية
القسم الاول		

٥٢ - ٢٩	• • • • •	الثورة الفرنسية الكبرى
٧٧ - ٥٣	• • • • •	الفكر وعامله في الثورة
٩٦ - ٧٨	• • • • •	مجري الثورة الى الشرق
الادباء والمفكرون العرب امام الثورة :		

١١٤	• • • • •	١ - عرض عام
١٣٦ - ١١٤	• • • • •	٢ - دروس في الفكر والاصلاح
١٥٣ - ١٣٦	• • • • •	٣ - نقد ورد
١٦٦ - ١٥٤	• • • • •	تياران يتفاعلان

القسم الثاني : نصوص مختارة

١٦٩ - ١٦٨	• • • • •	الامير حيدر الشهابي : الثورة الفرنسية
١٧١ - ١٦٩	• • • • •	اعداد الملك لويس وظهور نابليون
١٧٣ - ١٧١	• • • • •	اول منشور اذاعه نابليون في مصر
١٧٦ - ١٧٣	• • • • •	احمد فارس الشدياق : الوطني الزائف
١٧٧ - ١٧٦	• • • • •	رفاعة رافع الطهطاوي : حق الفرنسيات المنصوب لهم
١٨٠ - ١٧٧	• • • • •	حقوق الناس التي يضمنها الدبوان
١٨٤ - ١٨٠	• • • • •	ثورة سنة ١٨٣٠

١٨٦-١٨٥	.	نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي : من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر
١٨٨-١٨٧	.	فرنسيس فتح الله مرآش : بحث في الحرية
١٨٩-١٨٨	.	حالة الصالح العام
١٩٠-١٨٩	.	حالة الاستواء
١٩٤-١٩٠	.	تثقيف العقل
١٩٦-١٩٤	.	اطلقوا الاموال من عقابها
١٩٨-١٩٦	.	جمال الدين الافغاني : جمال الدين وتوفيق باشا خديو مصر
١٩٨	.	جمال الدين وقبصر روسيا
٢٠٠-١٩٩	.	جمال الدين وشاه ايران
٢٠٠	.	جمال الدين والسلطان عبد الحميد
٢٠١-٢٠٠	.	رأس بلا ناج أو ناج بلا رأس
		الايمان بقدرة الانسان
٢٠١	.	شكل الحكم مسألة اساسية
		الاستعمار ككل شيء له عمر ينتهي عنده
٢٠٢-٢٠١	.	الدكتور شاكور اخوري : الانقلابات بقدر استعداد الجمهور
٢٠٤-٢٠٢	.	عبد الله نديم : فضل الشورى
٢٠٦-٢٠٤	.	عبد الرحمن الكواكبي : تعريف الاستبداد
٢١٠-٢٠٦	.	الاستبداد والعلم
٢١٢-٢١٠	.	الاستبداد والاخلاق
٢١٢	.	شيلي الشميل : دفاع عن حرية القلم
٢١٣-٢١٢	.	المستقبل لسيادة الامم
٢١٣	.	نظام الحكم
٢١٣	.	الحكومة والامة
٢١٦-٢١٤	.	اديب اسحاق : ربط الانتفاضات الشرقية بثورة فرنسا
٢١٧-٢١٦	.	الامة
٢١٨-٢١٧	.	الوطن
٢٢٠-٢١٨	.	الوطنية
٢٢٣-٢٢٠	.	الثورة
٢٢٨-٢٢٣	.	حسين باشا : مسألة الرقيق والغائه

٢٢٣-٢٢٨	• • • •	روحي الخالدي : فيكتور هوغو
٢٣٥-٢٣٣		المطران يوسف الدبس : من حوادث سوريا أيام السلطان عبد الحميد الاول
٢٣٧-٢٣٥	• • •	الثورة على الامير بشير والجزائر
٢٣٨-٢٣٧	• • •	الثورة على اولاد الامير يوسف
٢٣٩-٢٣٨	• • • •	عامية انطلياس
٢٤٠-٢٣٩	• • • •	عامية لحفد
٢٤١-٢٤٠	• • • •	ولي الدين يكن : البلبل بطل الحرية
٢٤٥-٢٤٢	• •	فرح انطون : من مذكرات مفكر حر أيام عبد الحميد
٢٤٥ •	• • •	مصطفى كامل باشا : اشتراك الشعب في حكم نفسه
٢٤٦-٢٤٥	• • •	الشعب هو القوة الوحيدة
٢٤٦ •	•	المساواة امام الوطن ، المواطنون متكافلون متضامنون
٢٤٨-٢٤٦	• • • •	امين البستاني : الديمقراطية
٢٥٧-٢٤٨	• • • •	امين الريحاني : الثورة الافرنسية
٢٦٠-٢٥٨	• • •	الشيخ رشيد رضا : جمع بين القديم والجديد
٢٦١-٢٦٠	• • •	مصطفى لطفي المنفلوطي : أهنا أم عزاء
٢٦٤-٢٦٢	• • • •	جبران خليل جبران : طلائع البعث الجديد
٢٦٤ •	• • • •	وجوب الثورة
٢٦٦-٢٦٤	• • •	كتاب محاكمة مدحت باشا : الحرية مفتاح كل شيء
٢٦٧-٢٦٦	• • • •	محمد كرد علي : نعمة باريز
٢٦٩-٢٦٨	• • •	يوسف جرجس زخيم : كل شيء يتوقف على الشعب
٢٧٢-٢٦٩	• • •	الدكتور ايرب ثابت : الثورة ...
٢٧٤-٢٧٣	• •	عبد الرحمن عزام : النبي محمد يضع اسس دولة ديمقراطية
٢٧٦-٢٧٥	• • •	محمد جميل بيهم : الثورة الفرنسية والمرأة
٢٧٧ •	• •	الشيخ مصطفى الغلاييني : الحرية هي التي ينالها الشعب
٢٨٠-٢٧٧	• • •	القوانين وموافقة البيئة ، حق اللغة

ملحق شعري .

٢٨٢	.	.	.	.	.	الياس صالح : الحرية
٢٨٣-٢٨٢	.	.	.	.	.	شوقي : جبل الجبابر لا يدين
٢٨٣	.	.	.	.	.	النفوس لها ثورة
٢٨٤-٢٨٣	.	.	.	.	.	خليل مطران : من قصيدته نبرون
٢٨٤	.	.	.	.	.	جميل صدقي الزهاوي : ملك عن فعله ليس يسأل
٢٨٥	.	.	.	.	.	ارادة شخص واحد
٢٨٥	.	.	.	.	.	معروف الرصافي : يا ملوك الانام
٢٨٥	.	.	.	.	.	بشاره الخوري : بين لويس وعبد الحميد
٢٨٦	.	.	.	.	.	اللسانير والثورات
٢٨٦	.	.	.	.	.	دماء الشباب
٢٨٧-٢٨٦	.	.	.	.	.	يا فرنسا
٢٨٧	.	.	.	.	.	الياس ابو شبكية : الشاعر الحر والسلطان الظالم
٢٨٩-٢٨٨	.	.	.	.	.	خاتمة

تدارك خطأ

ورد في « ام مراجع الكتاب » اسم « مجموعة المحررات السياسية » بين المراجع التركية والصحيح انما من المراجع العربية .
 ووردت في الصفحة ١٠٨ اشارة الى ان مقالة الدكتور شبلي الشميل عن فرنسا بمناسبة حوادث دريفوس ، ستأتي مع مختارات الدكتور شبلي في « نصوص مختارة » والواقع انما وردت في الصفحة ١٣٨-١٣٩ .
 ووردت في قسم « نصوص مختارة » مقالة للدكتور شاكر الخوري بدون عنوان وعنوانها : الانقلابات بقدر استعداد الجمهور .

مقالة

« يا عدو التاريخ ! » بهذه الصيحة تلقيت ذات مساء ، صديقنا
رؤيف خوري . لست اذكر لاية مناسبة ، لكن اكبر الظن اني
رأيت يومذاك يشن احدى غاراته العنيفة ، الموفقة ، على جزء من
التاريخ ، او على بعض انواعه . فرد علي بابتسامته الطلقة الصريحة التي
لا يعوزها من القهقهة غير الصوت .. ان ابتسامة رؤيف خوري هي
« عنوان » الصحة التي يتمتع بها في جسمه وروحه على السواء ، تلك
العافية السابغة التي لا تفتأ تنعكس متضاعفة متزايدة ، من احدهما على
الآخر ، حتى ليس يُعلم ايها الاوفر رجاً ، او الاكثر غنيمة . على اني
لم اعرف فتى هو اعظم من رؤيف خوري ، انفاقاً مما رزقه الله ..
ومن قبيل العافية ايضاً ما راض عليه رؤيف خوري نفسه ، من
ان لا يقبل على « علاته » شيئاً . اعني انه « يصحح » كل ما يسمع
ويشهد ، من اقوال ووقائع . فهو يترجمها رأساً ، دون تقاعس ، او
التواء ، في لغة الحقيقة التي يجيدها قراءة وكتابة ، فكراً وعملاً .
وليس لهذه الحقيقة عنده الا خصمان لا ثالث لهما (لكن لله ، ما
اضخم جيشيهما !) : سوء النية وسوء الفهم .. الحقيقة الاخيرة ، لا
النهائية .. « الاخيرة » بمعنى المحصل الحسابي لوجوه المسألة المتعددة ،
ولظروفها الملازمة لها ، ولاطوارها المتعاقبة التي لا تتغير تماماً كما انها

لا تتشابه تماماً .. اما « النهائي » فليس له ، مع الحياة والضرورة ، وجود .

« يا عدو التاريخ ! » لقد صحت بها حقاً .. لكن لو اتاني الان من يزعم اني اذ قلتها ، اسمعتُ ايضاً كرجع الصدى : « يا عدو نفسه ! » لم اتهم اذنه ، ولا ذهنه . ان اكبر شطري التاريخ اسماء تود لو تنسى ، واحداث تريد ان تضيع ، بقدر ما يحتمل « الكون » ضياعاً ، او يصبر على خسارة . فلا جرم ان رثيف خوري يخال نفسه موكلأً بصديقه التاريخ ، يسعده على طرح بعض اعبائه ، لانقاذ السفينة من الغرق .. ان صداقة رثيف خوري والتاريخ لمن ذلك النوع الجيد الذي أرسلت في مدحه الامثال : « صديقك من صدقك ، لا من صدقك » .

لقد اطلع رثيف خوري زمناً ، بنظم السلسلة الذهبية التي تجمع بين طرفيها « تقليدنا الثوري التحرري » منذ المحاولات الاولى . فطفق يبحث جاداً ، في كتب التاريخ والادب العربية ، عن الحلقات الضائعة من ذلك « التراث الانساني النفيس » . وكان كل مرة يرجع مشقلاً كالنحلة ، مما اشتاره من كلام مأثور ، وصنيع مشكور . وفي النادر ما كان يقف من التاريخ على اطلاله ، حيث تطن النحلة كما يطن الذباب ، انما لا تجني ما يجنيه النحل .

ولعل اطول وقفة لرثيف خوري على اطلال التاريخ ، هذه الفصول عقدها حول « الفكر العربي الحديث » كيف تم لقاحه بمبادئ « الثورة الفرنسية » . سوى اننا نظلم المؤلف اذا نحن لم نسلم عن طيب

خاطر ، بان اكثر تمهله وتأمله هو في الامكنة الطيبة بين رسوم
 دوارس : زهرة هنا ما تزال متألفة تضيع ، وبقية ارج هناك من
 جنيته مفقودة . وكأي من اسماء منسية يذكرها وصحائف مطوية
 ينشرها .. تلك خطته في « الانتقاد التاريخي » لم يجد عنها ، لكنه اليوم
 يجري عليها عكساً لا طرداً ، اذ يعمل على ان يستنقذ « من » السفينة ،
 بعض حمولتها الثمينة ، ثم يترك المركب لمصيره .
 ونضرب لك مثلاً لتنظر كيف « يعامل » رثيف خوري طائفة
 من الاخبار التي يكفي ان تتواتر حتى تصير « تاريخاً » : يقص المؤلف
 فيما يقصه علينا ، نبأ المفاوضة بين العرب والفرس قبل القادسية
 الحاسمة . ففي رواية ان المفاوض العربي كان المغيرة بن شعبه : من
 معارف التاريخ . وفي رواية اخرى ان المفاوض كان انساناً يدعى
 زهرة : من نكراته . ليس بمستبعد ان يكون ثمة مفاوضان ، او
 مفاوض وترجمانه .. لكن هذا يهم التحقيق التاريخي (او الاصطلاحي)
 وحده . اما « الحقيقة الانسانية » فهي هي ، في كلتا الروايتين على
 السواء : في اولاهما يسمع رسم قائد الفرس كلاماً من زهرة : « ان
 الدين الجديد (اي الاسلام) يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة
 الله . » وهي عبارة تحمل على الظن بانها مترجمة عن الفارسية ..
 فيحتج رسم بان « اهل فارس ، منذ ولي اردشير ، لم يدعوا احداً
 يخرج من عمله ، من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم
 تعدوا طورهم ، وعادوا اشراقهم . » اما في الرواية الاخرى فيسمع
 اشراق الفرس كلاماً من المغيرة بن شعبه : « انا معشر العرب لا

يستعبد بعضنا بعضاً .. كان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض .. اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول . « فيتهامس الاشراف قائلين : « والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا يتزعون — اي يميلون — اليه . » ويقول رثيف خوري ان « معنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقسم السفلة (اي جماهير الشعب) الى طوائف ، يلتزم كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعه الاجتماعي ، لا حق له ان يتحزح عنه . فهو فلاح قن مثلاً ، يكون ابنه فلاحاً قنّاً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً .. ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، ولن يقر الاتوقراطية الفارسية ويلقي الحبل على الغارب للاشراف والدهاقين . » وهكذا نرى رثيف خوري الذي يسمي « الاخبار » عن المفاوضة بين العرب والفرس « محاضر » تؤكد لصحتها رغم كل الظواهر ، يرسل على الناحية « الثورية التقدمية » في الاسلام نوراً كاشفاً . ان المفاوض العربي ، كيفما تسمى ، كان في الحقيقة التي تهم التاريخ الانساني واحداً ، كما ان المفاوض الفارسي كان واحداً في تلك الحقيقة ايضاً ، لان الحوار الذي استؤنف عهد ذاك بينهما ، انما هو الحوار المستمر بين عالمين : قديم وجديد .. حوار واحد لم يتعدد . وذاك وامثاله ، في رأي رثيف خوري ، ما كان يقرأ اعلام نهضتنا الحديثة ، في اثناء التراث العربي القديم ، ويتدبرونه « فيخلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية . » فالحادث

التاريخي الذي اراد المؤلف اثباته و « تحقيقه » ليس « خبر » المفاوضة بين العرب، والفرس بل « خبر » الاستعداد النفسي عند مفكري العرب الاصلاحيين ، في القرن الماضي ، لتقبل المبادئ الجديدة ، الاجنبية في صيغها او اشكالها ، الاصلية في جوهرها او فحواها « تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المثل والقيم العليا .. على ان الاسلام وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور ، لا يخلو بعضها من مضمون بسض . » واذا كان غوته قد هتف مساء اليوم الذي نُسبت فيه معركة فالمي : « من هذا المكان ، منذ اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا » ، فان نقولا الترك لم يبعد عنه كثيراً ، اذ ذكر « الثورة الكبرى وقيام المشيخة الفرنسية » في جملة « الحوادث الكونية ، والحركات الكلية » . على ان في الكتاب نماذج شتى وطريفة من هذا « التقارب الانساني » الذي يعد المؤلف بين خيرة ممثليه في الجيل الحاضر .

ان رثيف خوري الاديب في سويدائه ، والشاعر الذي يحرص على صياغة قصائده وصقلها كما كانوا يحرصون على تجويد السيوف والالطاف ، يعرف ايضاً كيف يترسل في نثره الكتاني والخطابي ترسلاً لا اثر للصنعة فيه ، بل لا ضابط له غير المنطق الخفي حيناً ، الظاهر احياناً . وهو في مواقفه هذه ، الغنية السخية ، لا يخشى تهمة ابتذال يقذفه بها متأنق او متظرف ، من اولئك الذين يرتمون في احضان تفكيرهم « الذاتي » كمن يتمتع بحسد خيالي .. حرية ، مساواة ،

اخاء. اما ذنبنا ان تكن " الالفاظ " غزيرة الاصدار في السوق ،
 كالنقد المتضخم الذي لا يني ينحط قيمة وثماً ؟ وما ذنبنا ان تكن
 " المبادئ " ابعد شي . عن الابتذال ، لانها ما زالت ابعد شي . عن
 التحقيق العملي ؟ يقول رثيف خوري في معرض كلامه على روسو :
 " .. ان غيره ظل يفكر في نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من
 النخبة المختارة ، بينما استطاع روسو ان يحرك اعماق الشعب ويجعل من
 مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتاب القلائل الذين ترن كلماتهم برنة
 الصدق ويشعر القارى . لدى مطالعتهم انهم اذ يدعونه للتفكير ، يدعونه
 الى العمل ايضاً . " كأن الكلمة مقولة في رثيف خوري نفسه !
 وبألجلة ان رثيف خوري ، حتى في كتابته التاريخ ، لا يقف على
 اطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل . ولقد ولد كتابه
 هذا تحت طالع مزدوج من " العقل الذي يبدد سحب الجهالة " ومن
 العاطفة التي تمنح القلوب حرارتها . فبورك في ذلك القران السعيد !

عمر فافوري

١) اعلامه حقوق الانسان

- ١ الناس يولدون ويظلون احرارا ومتساوين في الحقوق .
- ٢ هذه الحقوق هي الحرية والتملك والامن ومقاومة الجور .
- ٣ مبدأ كل سلطة مستقر في الامة . لا يمكن لاي مجموع او لاي فرد كان ان يستخدم سلطة غير آتية عنها صراحة .
- ٤ قوام الحرية ان يستطاع عمل كل ما لا يضر بالغير .
- ٥ لا يحق للقانون ان يمنع غير الاعمال المضرة بالحياة العامة .
- ٦ الشريعة هي مظهر الارادة العامة ولكل الوطنيين ذاتياً او بواسطة نوابهم حق الاشتراك في سنها . ويجب ان تكون واحدة لكل سواء كان في صون الحقوق ام في العقوبات . ولما كان كل الوطنيين متساوين ازاءها فهم كذلك يقبلون في كل المراتب والمناصب والوظائف العامة بحسب اقتدارهم وفضائلهم ومواهبهم العقلية .
- ٧ لا يمكن الشكوى على اي انسان كان او القبض عليه او توقيفه الا في الاحوال المعينة في القانون وبحسب الكيفية المرسومة فيه .
- ٨ لا يسوغ للقانون ان يضع غير العقوبات الضرورية ضرورة اكيدة وصريحة ولا يمكن معاقبة اي كان الا بموجب قانون وضع ونشر واصبح نافذا قبل وقوع الجرم وعمل به على النظام .
- ٩ لما كان كل انسان يعتبر بريئاً الى ان يعلن مجرمًا فاذا ارتوئي وجوب توقيفه واستعمل بحقه
- عنف لم يكن ضرورياً للتأمين من شخصه فعل القانون ان يعاقب على ذلك بكل شدة .
- ١٠ لا يجوز تشكيك اي كان بسبب آرائه حتى الدينية منها ما دام ابداءها لا يخل بالنظام العام حسبما قرره القانون .
- ١١ حرية نشر الافكار والاراء حق من اثن حقوق الانسان فلكل وطني اذن ان يتكلم ويكتب ويطلع بملء الحرية الا انه مسؤول عن خرق هذه الحرية في الاحوال المعينة في القانون .
- ١٢ ضمان حقوق الانسان والوطنيين يستلزم قوة عامة .
- ١٣ يتحتم للقيام بهذه القوة العامة ونفقات الادارة وضع رسوم عامة يجب توزيعها على جميع الوطنيين بالسواء كل على قدر طاقته .
- ١٤ يحق لكل الوطنيين ان يتحققوا بالذات او بواسطة نوابهم لزوم الرسوم العامة وان يقبلوا بها عن رضى وان يحددوا مقدارها ومدىها وكيفية تقسيمها وتحصيلها وان يتتبعوا كيفية صرفها .
- ١٥ يحق للهيئة العامة ان تسأل كل موظف عام عن ادارته .
- ١٦ كل هيئة عامة لا يكون فيها ضمان الحقوق مكفولاً وتقرير السلطة محدوداً فليست هي على شيء من القانون الاساسي .
- ١٧ لما كان التملك حقاً مقدساً لا يمس فلا يمكن تزعجه عن اي انسان كان الا اذا استلزم ذلك المصلحة العامة استلزاماً بيناً ثابتاً شرعاً وبشرط دفع تعويض عادل مقدماً .

(١) تعريب الدكتور ابوب ناس ، نقلا عن مجموعة مقالاته « عبرة وذكرى » ، ساعده على تعريبه ، كما ذكر : « جملة من القانونيين والكتاب الافاضل اخص بالذكر منهم صديقي المحامي شارل دباس » . وهو خير تعريب حر في لهذا النص التاريخي .

فَاتِحَة

ان الثورة الفرنسية ، وفرنسا الثائرة ، وما أشبه
مما رأيته في عنوان الكتاب ، وراه مردداً في تضاعيف
سطوره ، كلام له ، ايها القارىء ، معنى يجب ان لا
يخلط بينه وبين غيره من المعاني .
هذه كلمتي الاولى اقولها لك ، واتركك وهذه
الفصول الطويلة ، والنصوص المختارة من كبار ادبائنا
ومفكرينا . وقد كنت احب ان اقول شيئاً في هذه
الفاتحة آثرت ان اتركه للخاتمة . وما دامت مقدمات
الكتب توضع آخر شيء ، بعد الفراغ من التأليف ،
فاني ارى ان تكون مقدمتي آخر صفحات الكتاب
لا اوله .
أما ارنست رينان ، وما عيرنا به من أننا عدمنا
ولو نائراً واحداً ، فارجو ان لا يعطيه هذا الكتاب
إلا نصف الحق على الاكثر .

بيروت ٨ ايلول ، ١٩٤٣ رُفِيفُ فُورِي

تنبية : في هذا الكتاب قسم مستقل اشرنا اليه بعنوان « نصوص
مختارة » . وقد جعلنا النصوص ، التي اخترناها لكل اديب ، في فصل
على حدة نوجناه باسمه .

الفكر العربي الحديث

للحياة وجهان : أحدهما الاغتذاء. والهضم ، والآخر الانتاج والحصب .
وبالقدر الذي تأخذ الحياة ينبغي لها ان تعطي . هذا قانونها . . . الحياة
كاللهب ، ليس يمكن حفظها الا اذا هي اعطت من مادتها . يصح هذا
على العقل كما يصح على البدن . ومن المستحيل على العقل (الذكاء) ان
ينحصر في ذاته . انه كاللهب الذي لا بد له من اعطاء النور بطبيعة
خلقه . وهذه القوة نفسها - قوة التمدد - قائمة في احاسيسنا . فعلى ان
نقاسم (غيرنا) افراحنا واحزاننا . . . ان من طبيعتنا ان نكون اجتماعيين .
نحن لا نكفي ذاتنا بذاتنا . فلدينا من الدموع اكثر مما نحتاج لاحتزاننا ،
ولدينا من احتياطي السرور اكثر مما تستطيع سعادتنا ان تبور . يجب ان
نمضي الى الآخرين ، ونكثر انفسنا بالاتصال عن طريق الفكر والشعور .
الحياة هي الحصب ، وبالعكس ، الحصب هو الحياة - (الحياة) الأشد
امتلاء . انه الوجود الصحيح . هناك سخا . وكرم لا ينسلخان عن الوجود ،
وبدونهما غوت ونجف من الصميم . فيجب ان تزهر . والاخلاق الطيبة
والزهادة تلك هي زهرة الحياة الانسانية . والمثل الاعلى ليس على نقيض
العالم ، ولكنه سابق له . ان المثل الاعلى - في اصله - شبيه بفكرنا
الذي ينشق عن الطبيعة ، ويشي قدامها مستطعاً ، مهياً الرقي المطرد .
الواقع والمثل الاعلى متغامان في الحياة ، لان الحياة على وجه العموم كائنة
وفي حالة الصيرورة ، في آن واحد . من يقل الحياة يقل التطور ! - ج .
م . غيو - « صفحات مختارة » .

ماذا اغنت عنا جميع تدابيرنا ؟ ان الايمان والفكر قد حطما قيود
الشعب . ان الايمان والفكر قد حررا الارض . اردنا ان نفرق الناس
بعضهم عن بعض ، ولكن جورنا آلف بينهم وألبهم علينا . هرقنا دماءهم
فوقمت على رؤوسنا . بذرنا الفساد فتشبت جذوره بقربتنا وتأكلت عظامنا .
ولقد حسبنا اننا خنقنا الحرية ، ولكن انفسها لفحت جذور سلاطنتنا
وأيسستها ! - « لامنيه » (Lammenais) « اقوال مؤمن » .

ما معنى ان يحب الانسان وطنه ؟ ما معنى ان يكون الانسان وطنياً ؟
اذا كان الشاعر منصرفاً مدى حياته الى محاربة التعصب ، وازالة النظرات
الضيقة ، واثارة ذهن قومه ، وتصفية ذوقهم وترقية آرائهم وافكارهم ،
فقولوا كيف يمكنه ان يكون وطنياً على وجه خير من هذا الوجه ؟ - غوته
في كتابه « احاديث مع اكرمن » .

أما بعد ، فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فاعينوني
واذا زغت فقوّوني . - الصديق ، ابو بكر .

... فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول ، من
مثل اذا تعودنا احتمال الظلم والحيف والعناء والخدمة ، والرق ، فلن يستقلّ لنا
رأي وان نهتدي سبيل الحرية ، كأننا هم لا يعلمون ان أهل الغرب اجمعين
تعودوا مثل ذلك الحيف اعصاراً ، أو كانوا في قديم الايام على ضروب من
الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم بأسره كان فريقين : احراراً بظلمون ، وعبداً
يطيعون ! - أديب اسحاق .

دم الشوار تعرفه فرنسا ، وتعلم انه نور وحق
جری في ارضها فيه حياة كمنهل السماء ، وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتجيا ، وزالوا دون قومهم ليقوا
وحُررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق ؟

احمد شوقي

اذا كانت آلامنا من السياسة الفرنسية شديدة ... فاننا لا نريد ان
ندخل اليأس على قلوبنا من حياة الامة الفرنسية ويقظتها ومستقبلها العظيم . -
مصطفى كامل باشا .

لا تقولوا لي : كم هي شاحبة فرنسا هذه ! فقد هرقت دمهـا من
اجلكم ... ولما فرغت يدها اعطت روحها التي منها تحيون . - « ميشله »
في كتابه : « الشعب » يخاطب الأمم .

أهم مراجع الكتاب

المراجع الفرنسية :

- Michelet. — Histoire de la Révolution Française (1847-1853).
 Encyclopédie Française. — vol. X, chap. IV (Les Libertés Individuelles).
 et autres chapitres ...
 E. Lavis (en collaboration avec P. Conard). — Histoire de France
 (Armand Colin, Paris, 1937).
 Rogie et Despiques. — Histoire de la France et de Ses Institutions
 (Rieder, Paris).
 L'Abbé Courval. — Histoire Moderne, tome II (1896).
 E. Herriot. — Précis de l'Histoire des Lettres Françaises (Rieder, Paris).
 J. R. Bloch. — Naissance d'une Culture (Rieder, Paris).
 R. Rolland. — Les Pages Immortelles de J. J. Rousseau (Editions Correa,
 Paris).
 Diderot. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche Orient).
 Montesquieu. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche
 Orient).

بيير فيلار : الثورة الفرنسية والمستعمرات (فصل نشرته مجلة « الطليعة » عدد
 خاص بالثورة الفرنسية ، دمشق تموز سنة ١٩٣٩) .

سنيوبوس : تاريخ التمدن الحديث ، تعريب « الكتاب المحجوب » ، نشر دار
 الهلال ، ١٩٥٩ .

دياس (الكبير) : روايته عن الثورة الفرنسية ، نهضة الاسد ، الخ ، ٥٠٠ ، في
 أربعة اجزاء ومجلدين ، تعريب فرح انطون ، مطبعة المعارف ، مصر .

غوستاف لويون : روح الثورات والثورة الفرنسية ، ترجمة محمد عادل زعيتير ، طبع
 عبيد اخوان ، دمشق .

المراجع الانكليزية والاميركية :

- Carlyle . — History of the French Revolution. (Modern Library Edition).
 H. W. Nevins . — The Growth of Freedom . (People's Books, London).
 Randall . — The Making of the Modern Mind . (Allen and Unwin).
 Encyclopedea of Social Sciences . — Art. Revolution .

المراجع الاطانية :

- جورج كونيو : « بعض الاسس التعليمية للثورة الفرنسية » (مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) وفي المقال نصوص عن الثورة منقولة من كتب المانية عصرية شهيرة كـ « خرافة القرن العشرين » لافرد روزنبرغ ، الخ ...
 هكذا تكلم زرادشت : تعريب فيليكس فارس ، مصر .

المراجع التركية :

- محكمة مدحت باشا : تعريب يوسف كمال حتاتة ، مصر .
 عاطف باشا : مذكرات (نقل منها نصوصا الدكتور كامل عياد في مقاله : الثورة الفرنسية والشرق ، مجلة « الطليعة » دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) .
 مجموعة المحررات السياسية ، المفاوضات الدولية ، عن سوريا ولبنان ، من سنة ١٨٤٠ الى ١٩١٠ - تعريب فيليب وفريد قعدان الخازن .

المراجع العربية :

- محمد صبري : الثورة الفرنسية ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ .
 محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، مطبعة المعارف ، مصر .
 كامل عياد : « الثورة الفرنسية والشرق » ، (مقال في مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .
 الامير حيدر احمد الشهابي : القرر الحسان في اخبار ابناء الزمان ، الجزء ٢ و ٣ ، القسم الثاني في الحملة الفرنسية على مصر واوائل حكم الامير بشير الثاني (نشر مديرية المعارف اللبنانية ، ١٩٣٣ ، بعنوان : لبنان في عهد الامراء الشهابيين) .

نقولا الترك : تاريخ نابليون (اخذنا شيئاً من مقدمته المثبتة في حاشية تاريخ الامير حيدر ، السابق الذكر) .
 انطون ظاهر العقيقي : مخطوطة له عن تاريخ لبنان من ١٨٩١ - ١٨٧٣ (نشرها ، وعلق حواشياً ، يوسف ابراهيم يزبك ، صدرت في منشورات مجلة الطليعة ، ١٩٣٦ ، بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان ») .

رفاعة رافع الطهطاوي : تلخيص الابرز الى تلخيص باريز ، بولاق ، الطبعة الحجرية .

المطران الدبس : الموجز في تاريخ سورية ، جزء ٢ ، بيروت ١٩٠٧ .
 روجي الخالدي : علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو ، دار الهلال ، ١٩١٢ .

احمد فارس الشدياق :

١ (السابق على السابق في ما هو الفارياق) ، (طبع يوسف توما البستاني ، مصر) .
 ٢ (جل ادبية) ، مدرجة في القسم الاول من مجالي الفرز لكتاب القرن التاسع عشر ، جمع يوسف صغير ، بيروت ، ١٨٩٨ .
 ٣ (كنز الرغائب في منتخبات الجواب ، الجزء السادس ، طبع الاستانة .
 نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي : زبدة الصحائف في سياحة المعارف ، بيروت ، ١٨٧٩ .

بطرس البستاني : دائرة المعارف (بيروت ، ١٨٨٢) مواد شتى في اجزاء مختلفة ، كهداة : روسو ، ثورة الخ ...

فرنسيس فتح الله المراس : غابة الحق ، بيروت ، ١٨٨١ .
 جمال الدين الافغاني : خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، تأليف محمد باشا المخزومي ، بيروت ١٩٣١ .

عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ، مصر ، ١٩٠٥ .
 عبد الله نديم : مجموعة مقالات ، المطبعة الجديدة ، مصر .
 شبلي الشميل : مجموعة مقالاته ، الجزء الثاني ، مطبعة المعارف ، مصر .

- اديب اسحاق : الددر ، المطبعة الادبية ، بيروت .
- فهمي علمي : مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً ، ٩ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٠٨ - ١٩١١ .
- ولي الدين يكن :
- (١) المعلوم والمجهول ، جزوان ، مطبعة المعارف ، مصر ، جز ١ سنة ١٩٠٩ ، جز ٢ سنة ١٩١٢ .
- (٢) دكران ورائف : رواية ، نشرتها مجلة « الف ليلة وليلة » ، بيروت ، عدد ٣٦٤ .
- فرح انطون : مقدمة الطبعة الثانية ، من تعريبه لرواية ديباس الكبير ، عن الثورة الفرنسية .
- شاكر الخوري : مجمع المسرات ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- نجيب الحداد : منتخبات ، مصر .
- قاسم امين : مجموعة مقالات ، مصر .
- جرجي زيدان :
- (١) تراجم مشاهير الشرق (جزوان)
- (٢) الانقلاب العثماني (رواية)
- (٣) الماسونية
- (٤) رحلة زيدان الى اوروبا
- جهان جهان :
- (١) العراف
- (٢) دمة وابسامة
- (٣) الاجنحة المتكسرة
- (٤) الارواح المتمردة
- (٥) عرائس المروج
- (٦) البدائع والطرائف
- طبع دار الهلال ، مصر .
- طبعة يوسف توما البستاني ، مصر .

- امين البستاني : مجموعة مقالات ، دار الهلال ، ١٩١٩ .
- امين الريحاني : الريحانيات ، ٤ اجزاء ، بيروت ، صادر .
- محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي : المراحعات الريحانية ، الجزء الاول ، وهي رسائل بينه وبين امين الريحاني ، المطبعة الاهلية ، بيروت .
- ثورة العرب : بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، نشر جريدة المقطم ، مصر ، ١٩١٦ .
- رشيد رضا : الخلافة او الامامة العظمى ، طبع مجلة المنار ، مصر .
- فيلكس فارس : رسالة المنبر ، مصر .
- الآنسة مي : المساواة ، المطبعة الرحمانية ، مصر .
- محمد كرد علي :
- (١) غرائب الغرب ، جزان ، الاهلية ، مصر .
 - (٢) مجلة المقتبس ، السنة السادسة .
- ايوب ثابت : عبرة وذكوى (مجموعة مقالات كتبت لمناسبة الانقلاب العثماني ، بيروت ١٩٠٩) .
- الشيخ مصطفى الغلاييني : اريج الزهر ، المكتبة الاهلية ، بيروت ، ١٩١١ .
- محمد جميل بيهم : المرأة في التمدن الحديث ، بيروت ، ١٩٢٧ .
- انيس اخوري المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الحلقة الاولى : في العوامل السياسية (بيروت الجامعة الاميركية) .
- الاب لويس شيخو : ادباء القرن التاسع عشر ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- عباس محمود العقاد : الثورة الفرنسية (مقال في مجلة « الطليعة » ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .
- محمد حسين هيكل : جان جاك روسو ، مصر .
- طله حسين : آراء حرة ، مجموعة محاضرات عن نخبة من اعلام حرية الفكر ، بينهم فولتير ، روسو ...
- سلامه موسى : حرية الفكر ، مصر .
- رثيف خوري : حقوق الانسان ، دمشق ، ١٩٣٧ .

- عبد الرحمن الرافعي : الجمعيات الوطنية ، مصر .
- سليمان غزاله : الحرية البشرية ، ٦ اجزاء ، بغداد ١٩٢٦ .
- محمد عبد الباري : الحرية والدولة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٢٦ .
- الياس ابو شبكه : روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ، بيروت ، دار
المكشوف ، ١٩٤٣ .

القسم الأول

الوثيقة الفرنسية المخطوطة

القسم الأول

شاه لا اله الا هو

الثورة الفرنسية الكبرى

أم الثورات العظمى المتأخرة هي الثورة الفرنسية المشهورة التي حدثت سنة ١٧٨٩ . وهي المراد في التواريخ عند الاطلاق ، فإذا قيل زمن الثورة الفرنسية كانت هي المقصودة . - (دائرة المعارف للبستاني ، مادة ثورة ، جزء ٦) .

... الانقلاب الكبير الذي حدث فيها (فرنسا) فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم ، وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشع من سمع حديثه الجلود . - روجي الخالدي (تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفكتور هوغو) .

وقد اتفق المؤرخون بان هذه الثائرة الفرنسية ، تكون خاية للنفس الثاني من القرن الاخير . - نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي (زبدة الصحائف في ساحة المعارف) .

ثورة الفرنسيين سنة ١٧٨٩ ... كانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . - امين البستاني (مقالاته : الديمقراطية (١)) .

لما كان مدار بحثنا على الثورة الفرنسية ومفكرها وأعلامها ، وحوادثها الجسيمة ومبادئها ، وتأثير ذلك كله في الاعلام من ادبائنا ومفكرينا ، فقد وجب ان نلم - ولو الملمأ يسيراً - بما هو ضروري لنا من تاريخها .

يجري الكتاب عن الثورة الفرنسية على تقسيم بحثهم فيها الى الاقسام التالية :
تهديد يدرسون فيه وضع فرنسا قبل الثورة ، وهو الوضع الذي اصبح يعرف باسم « النظام القديم » « L'Ancien Régime » . فيذكرون الملكية المطلقة وارتكازها

(١) راجع المقالة في باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب .

الى حق الملوك الالهي ^(١) ، وانقسام البلاد الى اربع طبقات وفق المنبت الاجتماعي : طبقة الاشراف ، اسياد الاكايروس ، الطبقة الثالثة ، (ثم الطبقة الرابعة في ادنى درجات السلم الاجتماعي) . ثم يذكر المؤرخون بذخ البلاط في فرساي ، ووقوع الحزينة في العجز بسبب الحروب وكثرة النفقات . ويذكرون ثقل الضرائب والحاجة المتكررة الى عقد القروض . ويفصلون امتيازات الاشراف والاكايروس في قضية الضرائب ، وفي تسخير المزارعين ، ويذكرون القيود على حرية الرأي وسجن الباستيل والتجارير المحتومة « *Lettres de cachets* » وكيف كان من الميسور استصدارها بالرشوة وجس الأبرياء . ويذكرون الحدود الاقطاعية التي كانت تفصل جزءاً من فرنسا عن جزء ، وتعرقل حرية التجارة بما يفرضه اسياد الاقطاعيون من مكوس . ثم يلتفتون الى ذكر الفئات النامية في حضن المجتمع الفرنسي ، او الى القوى الجديدة التي نبضت في حياة فرنسا الاقتصادية والعقلية ، فكانت قاعدة الثورة

(٢) الملكية المطلقة هي حصر السلطة جميعاً في يد الملك . وحق الملوك الالهي هو الحق الذي يبرر الملكية المطلقة ، نظرياً ، اذ يجعل حصر السلطة في يد الملك بمشيئة من الله . ولا ريب ان هذا المذهب من مذاهب الفكر السياسي قد انتهى دوره ، على انه في مبدأ الامر قام بخدمة نقدية اذ اعطى الملوك ايضاً حقاً الهياً ، فبرر انفصالهم عن اشراف الباباوات الذين كانوا يعلنون لانفسهم وحدهم حقاً الهياً يخولهم التداخل في حكم الدول ، وهكذا اعان هذا المذهب السياسي على نشأة الدولة المستقلة عن سلطة الكنيسة السياسية . واعان ايضاً على خلق الدول الموحدة بتركيز السلطة حول شخص الملك ، صاحب الحق الالهي دون غيره من اقوياء الاشراف والاسياد الاقطاعيين الذين كانوا يطمحون الى الاحتفاظ بسلطانهم المطلقة ، ليكون كل منهم في اقطاعه شبه بدولة في نطاق الدولة . فالملكية المطلقة وحق الملوك الالهي كانا ضروريين في دور من ادوار التقدم التاريخي لما طرحت مشكلة السلطة بين الباباوات من جهة والملوك والاباطرة من جهة اخرى ، ثم بين الملوك والاباطرة من جهة واشراف الاقطاعيات من جهة اخرى . على ان الملكية المطلقة وحق الملوك الالهي اصبحا عائقين في طريق التقدم لما اقبل الدور التاريخي الذي طرحت فيه مشكلة السلطة العليا بين الملك او الامبراطور من جهة ، والشعب والامة من جهة اخرى ، فكان الملك او الامبراطور يستند الى « مشيئة الله » في حصر السيادة بنفسه ، بينما يستند الشعب الى العقل وموجب الاحكام الطبيعية وانبثاق السلطة من الامة وضرورة التقيد بالدستور .

ومركز تكوينها مادياً ومعنوياً . وهنا يذكر المؤرخون اعلام الفكر الذين سبقوا الثورة بمن عرفوا بـ « الفلاسفة » و « الانسكلوبيديين » و « الاقتصاديين » او « الفيزيوقرات » و « البلوتوقراط » وسنفرّد لهم فصلاً خاصاً . ويذكرون ايضاً نهضة الطبقة الثالثة « Tiers Etat » وهي الطبقة الملاكة النشطة : طبقة الفلاحين اصحاب العقارات الصغيرة وسكان المدن ^(١) التجار والمصنعين ، مع من يلحق بهم من المثقفين ولا سيما المحامين .

والطبقة الثالثة هذه هي الطبقة الوسطى ، لانها كانت في مركز وسط بين طبقتي الاشراف والاكليروس ^(٢) والطبقة الرابعة المتشكلة من افقر فقراء الريف والمدينة الذين يعيشون من العمل في ارض لا تخصهم أو في محترف لا يملكونه . ولعل احداً لم ينطق بلسان الطبقة الثالثة فيمثل وضعها وطموحها ، كما فعل الاب « سييه » اذ قال في أحد كراريسه : « ما هي الطبقة الثالثة ، هي كل شيء . ! ماذا كانت حتى الآن ؟ لا شيء . ! ماذا تريد ان تكون ؟ شيئاً ! »

ولا يغفل مؤرخو الثورة ان يذكروا ايضاً ، في تمهيدهم ، اثر العوامل الخارجية التي مثلت دورها في التشجيع على هذا الانقلاب الكبير كالثورة الانكليزية ^(٣)

٣ (Les Bourgeois .

٤ (وهوذا في حكم الطبقة الواحدة قوة ونفوذاً .

٥ (يقصد بالثورة الانكليزية الحركة التي ظهرت «للاشياء» في « استدعاء الحقوق » الذي رفعه البرلمان الانكليزي سنة ١٦٢٨ الى الملك شارل الاول يطلب منه ان يكف عن فرض الضرائب واستيفائها بغير موافقة المجلس وينها عن اقامة المحاكم العرفية ابان السلم ، وعن اسكان جنوده في منازل الرعايا بالقوة القاهرة . وكان هذا الاستدعاء مبدئياً على الماغنا كارتا « Magna Carta » التي انتزعها الاشراف من الملك يوحنا سنة ١٢١٥ ، فرضخ شارل الاول مرعاً ، ولكنه حل البرلمان في السنة التالية واستبد بالسلطة . وطالت المشادة للكبونة بينه وبين البرلمان والشعب ، حتى انفجرت المقاومة علناً اذ رفض احد الانكليز « جون هامبدن » سنة ١٦٤٠ ، ان يدفع ضريبة السفن ، فاعتقل وحوكم . غير انه لم يحكم عليه الا باكثرية ضئيلة من القضاة . وصادف ذلك اشتداد الخلاف بين شارل الاول والاسكتلنديين ، فوجد ان لا بد من دعوة البرلمان الى الاعتقاد بعد ١١ سنة من حله ، وهكذا شام البرلمان الانكليزي المعروف بالطويل سنة ١٦٤٠ ، وكان اول ما صنعه ان

والثورة الاستقلالية الاميركية (٦)

ومن هذا التمهيد ينتقل المؤرخون الى الحوادث التي كانت مقدمة للثورة ، فيذكرون الانهيار المالي الذي بات يهدد الخزينة ويضغط على الملك حتى لم يبق له مناص من التمس الخرج العاجل . ويذكرون كيف استشاط الرأي العام غب انتشار تقرير الوزير « نكر » ، وهو التقرير الذي فصح فيه سنة ١٨٧١ توضع المالية

رفع الى الملك عريضة حادة اللهجة سميت عريضة التوبيخ الكبير Grand Remons-trance ، وفيها طلب جديد بان يكون الملك ووزراؤه مسؤولين امام البرلمان . فلم يلبث الامر ان ادى الى شيوب التضال المسلح سنة ١٦٦٣ ، فتمت الغلبة للثورة وزعيمها كرومويل ، وحكم على شارل الاول بالاعدام سنة ١٦٦٩ ، واعلنت الجمهورية الانكليزية باسم « Commonwealth » ، ويقول احد المؤرخين الضعيفي النظر ، وهو يقصد المزاح ، ان الانكليز يومئذ حرقوا الصلاة الربانية ، فبدلاً من « ليأت ملكوتك » اصبحوا يدعون « لئأت جمهوريتك » .

وقد حاول الملك جيمس الاول ، بعد رجوع العرش الى انكلترا ، ان يبعث السلطة الملكية المطلقة فاضطر الى الحرب سنة ١٦٨٨ . واصدر البرلمان الانكليزي عريضة جديدة اكد فيها حقوق الامة والقيود التي يتقيد بها الملك . ويظهر ان ذلك كان فصل الخطاب بين العرش ومجلس النواب في انكلترا .

(٦) وهي الثورة التي بدأت سنة ١٧٧٣ ، لما صعد جمهور من الشباب الهائج ، في مدينة بوسطن ، الى مركب من مراكب شركة الهند الشرقية الانكليزية يحمل شايًا ففقدوا بمسولته الى البحر ونشروا الشعار : لا ضرائب بلا غثيل ! فاختذت الحوادث تتطور بين المستعمرات الاميركية وانكلترا حتى اتسع نطاق الثورة بتولي « واشنطن » القيادة واعلان يان الاستقلال الاميركي ، هذا البيان الذي كان اشبه بمقدمة لبيان حقوق الانسان في الثورة الفرنسية الكبرى . وقد كان للفرنسيين يد معروفة في ثورة اميركا ، وكان القائد الفرنسي « لافاييت » من اعوان الاميركيين في ساحات القتال . ولما سقط الباستيل سنة ١٧٨٩ بحث « لافاييت » بنتائجه الى الجنرال واشنطن . اما التمهيد الفكري الذي سبق ثورة الولايات المتحدة ، فيحمل طابعاً واضحاً من اثر الفلاسفة الفرنسيين . وليس يحتاج الى ذكر ان الثورة الفرنسية صادفت قابلية فكرية في اميركا اكبر منها في بريطانيا ، بل كانت حافزا لمرسكة من الممارك الذهنية العنيفة الشهيرة في التاريخ ، بين ادمند برك الانكليزي ، مؤلف « خواطر في الثورة الفرنسية » ، ونوم باين الاميركي ، صاحب المؤلف الطائر السبت « حقوق الانسان » .

واسراف البلاط . ويذكرون الحية التي اصطدم بها الوزير « كالون » في حمله الايمان « Les Notables » على القبول بهنائج اصلاحه لتعديل الاسماء « Les Abus » في الاوضاع القائمة .

ثم يذكر المؤرخون كيف رضي الملك بالانعقاد لمجلس باريس - اهم المجالس الفرنسية - الموافقة على عقد قرض ، ولكن المجلس ابي ان يتحمل التبعة وحده وجعل انشاء القروض والضرائب من خصائص البلاد الممثلة في مجالسها . ويذكرون كيف فكرت المجالس بالانعقاد ، وطلب دورة عامة تلتئم فيها جميعاً فتبحث في طرق الاصلاح ووسائله . ويذكرون كيف اقدم مجلس اقليم « الدوفينه » على الانعقاد بنفسه في تموز سنة ١٧٨٨ ، فوجد الملك ان لا مناص له مما تطلب البلاد ، فوافق في شهر آب على دورة عامة تعقدها المجالس جميعها في فرساي في الخامس من شهر ايار سنة ١٧٨٩ .

وهنا يذكر المؤرخون كيف انصرفت طبقات الامة : الاشراف والاكابر والنبلاء والطبقة الثالثة ، كل الى اختيار نوابها الذين سيمثلونها في فرساي . ويذكرون كيف انيت المراقبة واطلقت الحريات لمناسبة الانتخابات ، وكيف اقبلت « الطبقة الثالثة » بنوم من الكراريس « Cahiers » تعين وجهة نظرها في الاصلاحات المنشودة . وكانت هذه الطبقة ، بالاستناد الى كثرة (٩٧ بالمئة من الامة) صريحة في طلب عدد من الممثلين لها يساوي مجموع ممثلي الطبقتين الاخريين : الاشراف والاكابر . وكانت كذلك صريحة في طلب اجتماع النواب كلهم هيئة واحدة ، وفي طلب التصويت بالافراد لا بالطبقة ، ثم في طلب دستور وطني يقيد « السلطة المطلقة التي هي منبع الشرور النازلة بالدولة » على تعبير احد الكراريس . ومن هنا يتقدم المؤرخون الى ذكر انعقاد المجالس في دورة عامة ، في الموعد المضروب ، اي في ٥ ايار سنة ١٧٨٩ . ولم تكن هذه المجالس قد انعقدت في دورة عامة منذ سنة ١٦١٤ ، ايام الملك القاصر لويس الثالث عشر وامه الوصية على العرش ماري المديتشي . وكان ممثلو الطبقة الثالثة لم ينسوا كيف زل احداهم

— يومذاك — فقال : « نحن ابنا اسرة واحدة ، الاشراف هم الاخوة الكبار ونحن الاخوة الصغار . » فغلي دم نبيل من النبلاء و « رقص » عليه عصاه جزاء وفاقاً لهذه الاهانة . وكانوا ايضاً لم ينسوا كلمات روبري ميرون اذ قال : « الملك هو السيد ، ولكن شرط ان يحكم الحكم الصالح ، فالشعب لا يلبث ان يدرك ان الجندي ليس الا فلاحاً يحمل السلاح ! » فلم يطل الوقت حتى وفد النواب مرة الى قاعة الاجتماع فوجدوها مقفلة ، وقال لهم قائل : لقد احتاج اليها البلاط الملكي لحفلة رقص تقام قريباً ! فعادوا ادراجهم وانطوت القضية .

اجل ، يذكر مؤرخو الثورة الفرنسية كيف ان نواب الطبقة الثالثة كانوا في سنة ١٧٨٩ عازمين على ان لا تنطوي القضية كما انطوت سنة ١٦١٤ .

وبدأت المشادة العنيفة الحادة . واصر ممثلو الطبقة الثالثة على ان تكون الجلسات مشتركة بين النواب جميعهم حتى لا يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة . واصرروا على طلب التصويت فرداً فرداً ، لا طبقة طبقة . وكان قد سبق لهم ان نجحوا في ارسال عدد من النواب يساوي نواب الطبقتين الاخرين^(٧) ، وهكذا بات في امكانهم احراز الاكثية في الجلسات ، لانهم كانوا يتوقعون ايضاً ان تنحاز اليهم فئة الاشراف الصغار والاكليروس الفقراء ، كما حصل فعلاً فيما بعد .

ولم تطل المشادة حتى اعلان ممثلو الطبقة الثالثة تشكيل « الجمعية الوطنية » في ١٧ حزيران سنة ١٧٨٩ . فكانت تلك خطوة جريئة اسفرت عن هيئة من النواب الوطنيين تمثل اكثرية الامة وتتكلم باسم الوطن وتستند الى ارادة الامة التي تعتبر من حقها اثبات وجودها . فالجمعية الوطنية هي اول برلمان فرنسي بالمعنى الحديث .

ونوى الملك ان يكرر ما وقع سنة ١٦١٤ الا ان الجمعية الوطنية ردت عليه بالقسم المشهور الذي اقسمته في بهو « جي دي بوم » Jeu de Paume وفيه تعهد النواب « بالاجتماع مهما تكن الاحوال والظروف الى ان يصكوا دستوراً للبلاد ! » وفي ٢٣ حزيران سنة ١٧٨٩ ، عقدت دورة عامة حضرها الملك وممثلو الطبقات ، فاسفرت عن غضب الملك وانسحابه من الجلسة تبعه غالبية الاشراف . على ان قسماً

(٧) وذلك بموافقة نكر الذي استوزره الملك من جديد سنة ١٧٨٨ .

كبيراً من الاكليروس ، وفئة من الاشراف انفسهم ، لبثوا مع ممثلي الطبقة الثالثة . وفي هذه الجلسة صرخ ميرابو كلمته التاريخية : « نحن هنا بإرادة الشعب ولا نخرج الا بقوة الحراب ! » وكانت كلمته تلك موجهة الى رسول الملك الذي اقبل بأمر النواب بالانفضاض .

فاتضح عندئذ ان كل لجوء من الملك الى استعمال القوة ضد النواب سيعني لجوء النواب والشعب الى المقاومة . وطارحت على بساط التاريخ الفرنسي مسألة طالما طرحت في حياة الشعوب : أهى السلطة المطلقة التي تحكم ام ارادة الجماعة ؟

كان اذ ذاك في متناول الملك عدد من الجنود الحراس . ولكن هؤلاء كانوا من ابناء الشعب الباريسي . فهل يطيعونه اذا امرهم بطرد النواب ؟ وكان في متناوله ايضاً عدد من الخيالة الاشراف . ولكن الاحرار (الليبرال) من الاشراف امثال « لافاييت » افهموا ابناء طبقتهم انهم اذا شرعوا سلاحهم على المجلس قابلوهم بالسلاح . فوقف الملك موقف الحذر من اتخاذ تدبير غير مأمون العواقب . وفي ٢٧ حزيران سنة ١٧٨٩ اقر جميع مطالب الاكثرية من النواب .

وأعلنت الجمعية الوطنية نفسها جمعية دستورية ايضاً في ٩ تموز . وهنا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك ومعظم البلاطيين لم يكونوا ليرضوا عن تطور الحوادث ، بل لم يكن في نيتهم الرضوخ لها الا انهم تراجعوا ريثما يبيثون القوة التي بها يردون الضربة بجيش يصح الاعتماد عليه . واتجهت الجمعية الوطنية الى حشد التأييد الشعبي . وصرف الملك وزيره « نكر » من الخدمة في ١١ تموز ، لانه حمله قسراً من المسؤولية عن تطور الحوادث المزعجة ، فبات الشعب الباريسي يتحدث عن عزل « الوزير الوطني » . وطفقت جماهير الشعب تظهر على مسرح الحوادث في شوارع باريس ، عنيفة غاضبة . وبعض المؤرخين ينعنونها بالعمى « Multitude Aveugle » ^(٨) ، فاذا صح هذا كان غريباً ان ترى هذه الجماهير « العمياء » طريقها الى الباستيل ، في ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ ، فتهدمه ويصبح هذا التاريخ حداً فاصلاً انتهى عنده « النظام القديم »

٨ (Courval في كتابه Histoire Moderne ، الجزء ٢ ص ٢٥٦ .

وعيداً وطنياً تعيده الامة الفرنسية . ومهما يكن من شيء ، فإن الجماهير « العمياء » ادركت فوراً معنى طوائف الجنود الاجنبية التي يحشدھا الملك بين فرساي وباريس ، وفهمت معنى جواب الملك للجمعية الوطنية لما طلب منه النواب صرف الجنود ، فأجابهم : انطلقوا الى « نوايون » او « سواسون » فاعقدوا اجتماعاتهم . فما كان من الجماهير الا ان انطلقت الى Hôtel de Ville فشككت فيه مجلساً بلدياً Commune^١ يحكمهم باريس ، والى Hôtel des Invalides فاستولت على الاسلحة ، وألفت الحرس الوطني بقيادة لافاييت ، واتخذت شارة الالوان الثلاثة وشعار الحرية والاخاء والمساواة ، وافتتحت الباستيل .

ومؤرخو الثورة الفرنسية مجمعون على ان سقوط هذه القلعة كان حادثاً (رمزياً) من اعظم حوادث الثورة . ولويس السادس عشر لم يدرك تمام الادراك انه امام ثورة الا لما بلغه احد الدوقات نبأ سقوط القلعة هاتفاً : انه لعصيان ! فاجابه لويس : بل انها لثورة ! وایقن ان الجمعية الوطنية قد اكتسحت الموقف فرأى ان يتحاشى وقتياً صدم ارادته بارادتها .

وكان تشكيل المجلس البلدي الباريسي في Hôtel de Ville والاستيلاء على الاسلحة وتأليف الحرس الوطني والهجوم على الباستيل صيفاً وقوالب للعمل سبقت اليها مدينة باريس فلم تلبث ان حذت حذوها فرنسا كلها . ولعل العالم لا يعرف بلاداً كفرنسا يكاد يكون تاريخها الحديث ، على الاخص ، تاريخ عاصمتها . « ان باريس تجر فرنسا وراءها . »

وهنا يذكر المؤرخون كيف لم يلبث الهيجان ان سرى الى الاقاليم ، فكانت فترة الملع الكبير « La Grande Peur » وطفق المزارعون وطوائف الفقراء المتشردين يهاجمون قصور الاشراف واملاك الكنيسة الواسعة ، ويحرقون صكوك الامتيازات الاقطاعية ، ويقومون باعمال العنف . فحاول الحرس الوطني وجنود الملك ان يقمعوهم ولكن بلا جدوى .

(٩) ترجمتها الحرفية : العامية ، وهذا الاسم سماها الفلاحون اللبنازيون في انتفاضهم على مشايخ الاقطاعية في القرن التاسع عشر .

وكان معنى هذا ان طبقة من المجتمع ظهرت في ميدان العمل الثوري ظهوراً جديداً ، نقصد بها الطبقة الرابعة « Quatrième Etat » . ورأت الجمعية الوطنية ان سقوط الباستيل وان يكن قد صفى حساب النظام القديم من الجهة السياسية فما زالت مشكلة اجتماعية تتعلق بالنظام القديم لا بد من تصفيتيها ايضاً . فالتأم النواب في الليلة التاريخية المشهورة بليلة ٤ آب سنة ١٧٨٩ ، فالفوا الامتيازات والحقوق الاقطاعية . وكثيرون من الاشراف والاكليروس اعلنوا تنازلهم عن حقوقهم وامتيازاتهم ، اما بخلاف الحامسة ودافع الاقتناع ، واما بعامل الخوف .

ومن ثم انصرف نواب الجمعية الوطنية ، في شهر آب ، الى اخراج بيان مبدئي يبررون به الانقلاب الذي احدثوه في الحياة الفرنسية . وهكذا اخرجوا للناس ثمرة « حقوق الانسان » الشهيرة ، (وقد اثبتناها في صدر من هذا الكتاب) . ومن يقرأها يشعر بما كان للشورة الانكليزية والاميركية ، ولمفكري القرن الثامن عشر من اثر قوي فيها . ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية : السيادة للامة ، تساوي الناس في الحقوق والواجبات العامة ، حق الناس في الحرية الفردية والطبعية والكلامية ، حق الناس في الامن على املاكهم ، حق الناس في اختيار العقيدة الدينية واتباعها . . .

وبدا كأن الحركة الانقلابية قد بلغت ذروتها . ولكن بقاء الملك في فرساي ، وغلاء الغذاء ، واجتماع اجناد جديدة الى قصر الملك ، كل ذلك جعل الشعب غير مطمئن على سلامة الاصلاحات والانتصارات التي احرزها .

فرحفت ، في ٥ تشرين الاول ، جمهرة غفيرة من النساء المسلحات يتبعها لافايت والحرس الوطني ، الى فرساي . فانتقل الملك بعائلته الى قصر التويلري في باريس حيث باقت الجمعية الوطنية تعقد اجتماعاتها ايضاً .

وعقب فترة من هدوء . وعيدت فرنسا عيد ١٤ تموز لأول مرة ، وهو اليوم الذي هدم فيه الباستيل . فحضر العيد ممثلون للحرس الوطني اقبلوا من جميع اقاليم فرنسا . واقام هيكل للوطن ، واقام لافايت قائد الحرس الوطني بين الولاء للدستور والقانون والملك ، ثم اقم الملك - الذي حضر العيد ايضاً - بين الولاء للدستور . وعرف هذا العيد بعيد الاتحاد Fête de la Fédération واصبح الفرنسي بعده

لا يتحدث الا عن « امة فرنسية » ، وكان من قبل يقال مثلاً : الامة البريتونية او البوفنسية تبعاً لاسم الاقليم .

وهنا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك لويس السادس عشر لم يستطع ان يوطن نفسه على مسايرة الوضع الجديد ، فاخذ ينسج نسجاً ويحبك حبكاً في الخفاء ، وأمل ان يوقع خلافاً في صفوف الجمعية الوطنية من ناحية ، ^(١) وان يستعين من ناحية اخرى بتدخل الملوك ، ولا سيما نسيه ملك النمسا . ومن المؤرخين من يحبون ان يزيلوا عنه هذه التهم ، ليحملوها امرأته ماري انطوانيت . وهما يكن من امر ، فالواقع ان الملك هرب متنكراً الى فارين ، في حزيران سنة ١٧٩١ ، وهو ينوي ان يقود جيش المركيز دي بويه « de Bouillé » الى باريس لقمع فورانها . على ان العيون كشفت ، فأعيد مخفراً الى العاصمة . واوقفته الجمعية الوطنية عن ممارسة سلطاته وقتياً . وتشدد الحزب الجمهوري . الا ان اكثرية النواب كانوا لا يزالون ملكيين ، فلما انتشبت مظاهرة في الشان دي مارس « Champs de Mars » تنادي بالجمهورية ، فرقها الجمعية الوطنية بالقوة .

عند هذا الحد يقف مؤرخو الثورة وثقة ، ليلخصوا اعمال الجمعية الوطنية الدستورية . لقد اعطت هذه الجمعية فرنسا دستوراً هو المعروف بدستور سنة ١٧٩١ (صيغ بالتدريج فلم يكتمل الا في هذا العام مع ان البدء به كان سنة ١٧٨٩) . ومؤدى هذا الدستور انه يجعل نظام الحكم في فرنسا ملكية مقيدة ، ويعين الملك

(١٠) يقال ان لويس السادس عشر كانت له علاقات مريبة بميرابو . وفي عهد المؤتمر الوطني « La Convention » ، تقدم عامل الى وزير الداخلية فأخبره ان الملك كان قد كلفه حمل خزانة مخفية داخل جدار في قصر التويلري . فهرع الوزير الى القصر وكشف مكان الخزانة وفتحها ، فاذا فيها اوراق تفصح عن علائق بين البلاط وميرابو ، وبين البلاط والوزير النمساوي متريخ ، والفائد ديوريبه الذي اغاز الى جانب النمساويين ، وبارناف وروساء الاشراف والاكبروس المهاجرين . ومن المؤرخين من يقول ان ذلك كان تزويرا يقصد به التمهيد لمحاكمة الملك السجين واعدامه . ومن المؤرخين من يقول ان هذا يفسر هرب الملك بعد موت ميرابو ، اي بعد ان ينس من معونة داخلية واصبحت كل آماله معقدة على المدد الخارجي .

سلطات واسعة كحق وقف التنفيذ لأجل ^(١١) « Veto Suspensif » واختيار وزرائه وقادته . الا ان على الملك الخضوع للقانون . وهو ليس ملك فرنسا بل ملك الفرنسيين ^(١٢) والفرنسيون ليسوا رعية « Sujets » ولكنهم مواطنون « citoyens » . فوضع الملك في الدولة شبه بوضع موظف اول وراي . والقوانين تسنها هيئة نيابية هي الجمعية التشريعية . والسلطات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية . اما التنفيذية فعظمها بيد الملك . واما التشريعية فالجمعية المماة بهذا الاسم (او للبرلمان المنتخب) ، ويجري الانتخاب على درجتين ، ولا يصوت الا من يدفعون ثلاثة فرنكات ضرائب ^(١٣) على الاقل (حوالي ٣٠ او ٤٠ فرنكاً اليوم) . وهؤلاء هم المواطنون العاملون « Citoyens Actifs » تميزاً لهم من المواطنين غير العاملين ، اي الذين لا يملكون ما يدفعون عليه ضرائب . وقد احتج روبسبير وماراه ، عضوا نادي اليعاقة ، على هذا التدبير الذي يخالف اعلان حقوق الانسان ، ويجرد نحواً من ثلاثة ملايين ناخب من حق الانتخاب ، مسيئاً بذلك الى السيادة الوطنية المنبثقة من الامة . واما السلطة القضائية فجعلت لحاكم نظمت تنظيمياً جديداً ، يرأسها قضاة كلهم منتخبون .

وقسمت الجمعية الوطنية فرنسا تقسيماً جديداً الى مناطق فـاً دونها ، فسهلت ادارتها ، وجعلت هيئات الادارة انتخابية .

وسنت للاكايروس دستوراً مدنياً خاصاً ، فمنهم من لم يرض به فسميت فئته الاكايروس المخالف « Réfractaire » ومنهم من قبل به فسميت فئته الاكايروس الدستوري . وكان جل هؤلاء من الفقراء والمهبطين في سلم الرتب الكهنوتية ، فاستولوا على الابريشيات والكنائس .

وانتهى دور الجمعية الوطنية ففسحت المجال للجمعية التشريعية ، عملاً بالدستور ، في ٣٠ ايلول سنة ١٧٩١ .

(١١) اذا وافقت ، على قرار ما ، ثلاثة برلمانات متعاقبة ، اصبح القرار نافذاً بغير تصديق من الملك .

(١٢) للطباطوي تعليق على هذا التفريق في التسمية ، انظره في النصوص المختارة للطباطوي في هذا الكتاب .

(١٣) جعلت الضرائب على اساس الاملاك وسميت « مساهمات » Contributions .

ولكن فرنسا كانت اذ ذاك في خطر من الحرب والمداخلة الاجنبية ، اذ ان ملوك اوروبا - وعلى رأسهم امبراطور النمسا - شاؤوا ان يفرضوا ارادتهم على البلاد « الخارجة » فاعلنوا « تصريح بلنتر » الشهير . وايدهم في ذلك نفر من كبار البلاد والاكليروس ممن لم تعجبهم الاصلاحات ، فغادروا فرنسا ليستعينوا بالاجانب على احداث ردة ، واحتشدت منهم فرق في « كوبلنز » ليكونوا طليعة جيوش التدخل الاجنبية .

ويقبل المؤرخون على عهد الجمعية التشريعية ، فيذكرون اعلان الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان سنة ١٧٩٢ . وكان اعلان الحرب حقاً من حقوق الملك ، بموجب الدستور . ويقول بعض المؤرخين انه لم يترث في اعلانها لاعتقاده ان المقاومة الفرنسية سربماً ما تنهار ، فيقضى على النظام الجديد . ثم يذكر المؤرخون كيف اصيبت الجيوش الفرنسية المنظمة حديثاً ، بهزائم كبيرة . ويذكرون كيف اكثر الملك من استعمال حقه في « Veto » ، وكيف تظاهر الباريسيون لدى قصر التويلري حيث يقيم الملك . ولكن لويس السادس عشر ، بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش الفرنسية ، قويت آماله بإمكان احداث الردة ، فنجح في قصره واستعان بالحرس السويسري للدفاع عن نفسه ضد الشعب الهائج ، بينما حث المتدخلين على اجتياح فرنسا والاسراع لنجدته . فاعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن في خطر . فمزع المتطوعون الى الصفوف ، واذاع « دوق برونشفيك » قائد الجيش البروسي الذي حالف النمساويين ، انه سيدمر باريس اذا هاجم الشعب قصر التويلري . فاستفز ذلك الباريسيين بدلاً من ترويعهم . فاقاموا « عامية للعصيان الثوري في « الاوتيل دي فيل » ، واندفعوا الى محاصرة قصر الملك بغية افتتاحه . وانجذبت كتائب من الجماهير زاحفة من مرسيليا وهي تنشد « المارسيلياز » الذي اصبح نشيد الثورة ونشيد فرنسا الوطني ^(١) وتغلب الثائرون على الحرس واستولوا على القصر في ١٠ آب سنة

(١) ناطقه روجيه ده ليل ، وهو ضابط فرنسي كان في جيش الران لما اعلنت الحرب على النمسا ، وقد ناطقه ذات ليلة في منزل شيخ ستراسبورغ ثم طبعه باسم اغنية حرب جيش الران . فلما اقبل ثوار مرسيليا على باريس وهم ينشدونه اطلق عليه اسم المارسيلياز .

١٧٩٢ . فلجأ الملك وعائلته الى الجمعية ، فأودع قصر التابل وهو سجين . وهكذا الغيت الملكية عملياً ، وان لم تلغ نظرياً . واقامت الجمعية حكومة مؤقتة من اعضائها دانتون ، وامرت باجراء انتخابات جديدة لتقوم جمعية جديدة على اساس الاقتراع العام ، ^(١٥) « Suffrage Universel » لتقوم جمعية جديدة تعدل الدستور اذا رأت ذلك مناسباً ^(١٦) .

وكان ايلول . والجيش البروسي المتدخل يزحف على باريس بعد ان استولى على فردان . فأحس الشعب بخطر معركة حاسمة . فاشتد استعداداه ، ومثل « ماراه » دوراً عظيماً في استنهاض الهمم . واكثر المؤرخين يستفظمون هذه المذابح ، مذابح ايلول . ويحتمل انها جرفت عدداً كبيراً من الابرياء . ولكن قصد الشعب منها كان تطهير مؤخرته من العناصر التي يمكن ان تكون عوناً للعدو المهاجم بطعنة تفلعها في الظهر . على ان العدو لم يستطع الوصول الى باريس لان الجيش الفرنسي الجديد بقيادة ديورييه وكارمان (ولاسيما هذا الاخير) هزمهم في فالمي في ٢٠ ايلول سنة ١٧٩٢ . ويقال ان فالمي لم تكن معركة هائلة بحوادثها العسكرية ، الا انها كانت عظيمة بمدى تأثيرها التاريخي . والصيحة التي ملأت افواه الفرنسيين : « لتحي الامة ! » ذهبت بعيداً في اوروبا والعالم . وهتف غوته ليلة المعركة : من هذا المكان ، ومن هذا اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا .

وانتهى اجل الجمعية التشريعية في النهار الذي وقعت فيه معركة فالمي . وحل محلها المؤتمر الوطني « La Convention » . وكان اول ما صنع ان اعلن الجمهورية الفرنسية الاولى في ٢٢ ايلول سنة ١٧٩٢ ، وجعل هذا الحادث تاريخاً يؤرخ منه وغير احواء الشهور واصطنع تقوياً جديداً .

وهنا يذكر المؤرخون التشكيل الحزبي الذي تألف منه المؤتمر الوطني . ففي اليمين

(١٥) يستثنى النساء . وكان للثورة الفرنسية موقف من الفضية النسائية لحصة احد كتابنا الاستاذ محمد جميل بيهم في فصل «وجز اثنتاه مع نصوص هذا الكتاب .

(١٦) يلاحظ ان اطلاق الحق العام في الاقتراع كان بذاته تعديلاً للدستور ، اتخذته الجمعية التشريعية لتريد في حماسة الشعب واشتراكه في الاعمال الدفاعية عن الوطن .

كان حزب الجيرونديين (نسبة الى الجيرونند^(١٧)) وزعيمهم بريسو ، ومنهم فونيو وكوندورسيه ومدام رولان التي جعلت من بيتها نادياً لهم . وكان الجيرونديون يتوجسون من اعمال الشعب ويخشون نفوذ عامية باريس . وكان من رأيهم ان تتخذ الجمهورية الفرنسية المنوي اعلانها صيغة اتحادية « *Fédérative* » كالولايات المتحدة الاميركية .

والى شمال المؤتمر كان حزب الجبل ، يجلس نوابه على مرتقى في القاعة ، وهم من اليعاقبة والكرادلة (نسبة الى النادي اليعقوبي ونادي الكرادلة *Cordeliers*) ومن اعلامهم روبسيير ودانتون وماراه وهييت وكاميل ديتولان . وكان اهم الاعضاء في احد الناديين أعضاء في الآخر . الا ان الكرادلة كانت تغلب عليهم خطة تطرف مقرر سلفاً ، وكانوا احياناً يتهجون نهج « المزد العاني » في طلب التدابير والاصلاحات وينادون با يسونه « الثورة الى النهاية » . ولكن نادي الكرادلة لم يشتهر كاشتهار نادي اليعاقبة الذي تألف اولا من نواب مقاطعة بريتانيا فسمي النادي البريتاني . ثم لما استقر النواب في باريس استأجر دير اليعاقبة مكاناً لاجتماعاته فنسب اليه ونشأت له فروع في جهات فرنسا بلغت الاربعمائة . وكان يعتمد على هذه الفروع في تقوية نفوذه . ويستند الى تأييد عامية باريس والتدخل الشعبي . اما الصيغة الاتحادية للجمهورية فكان يقاومها ويقول : « ان الجمهورية وحدة لا تتجزأ » .

وفي وسط المؤتمر كان حزب السهل وهو الذي يقوم بدور الترجيح في التصويت . وكان اكثر ما يصوت للجيرونديين قبل سقوطهم .

اعان المؤتمر الوطني الجمهورية ، ولم يلبث ان اخرج الملك السجين من محبسه فحاكمه وقضى عليه بالاعدام . فقدم الى المقصلة في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ . اما التهم الموجهة اليه فكانت المؤامرة على الحرية العامة ، والاتصال بالاجانب ، وتمريض الوطن للغزو الاجنبي ، وسفك دم الفرنسيين . وكان آخر ما وجه اليه رئيس المحكمة في استنطاقه ، هذا الكلام : لقد احدثت سفك دم فرنسي في ١٠

(١٧) مقاطعة في الجنوب الغربي من فرنسا ، قاعدتها مدينة بوردو .

آب^(١٨) فم تجيب ؟ وبين مؤرخي الثورة والكتاب عنها جدل طويل حول قضية اعدام الملك^(١٩) .

اما في ساحات القتال ، فقد احزت الجيوش الفرنسية ، في طليعة عهد المؤتمر ، انتصاراً كمال حلقة فالمي ، فقهرت النمساويين في جالماب (٥ تشرين الثاني سنة ١٧٩٢) وطردتهم من البلجيك ، وضمت كونتيه نيس ، ودخلت اقليم السافوا الذي قرر الالتحاق بالجمهورية الفرنسية بعد القضاء على النظام القديم فيه .

ولكن فرنسا لم تلبث ان وجدت نفسها مطوقة ، فقد هبت عليها اوربا من النمسا الى روسيا الى انكلترا الى اسبانيا . ومن هذه الدول من كانت تخشى اتساع النفوذ الفرنسي ، ومنها من كانت تخشى عدوى المبادئ لاسيا بعد اعدام الملك^(٢٠) وانضم الى هذا التحالف العام ضد فرنسا هولانده وامرا ، ايطاليا .

وشجع هذا التحالف الخارجي انتفاضاً داخلياً ملكياً في اقليم الفانديه (Vendée) ، فلم يستطع المؤتمر ان يقمع تلك الثورة الا بعد عراك شديد دام حتى تشرين الاول سنة ١٧٩٣ . واصابت الجيوش الفرنسية هزائم في البلجيك فاضطرت الى الجلاء عنها . وباتت ارض فرنسا وهي عرضة للغزو والاجتياح من جهات عدة .

وبذكر المؤرخون في هذه المرحلة كيف قامت عامية باريس باكبر دور مثله حتى الان في الثورة ، اذ حاصرت المؤتمر ، بقيادة هنريو ، وحملته على اعتقال اعضائه من « الجيرونديين » متهمة اياهم بالتساهل في مصلحة الوطن ، وبالمواطاة للقائد ديمورييه الذي خان وانضم الى النمساويين . ومنذ ٢ حزيران سنة ١٧٩٣ انحصرت السلطة في حزب الجبل واليعاقبة . فثار اتباع الجيروندي ، وبدا كأن الجمهورية الفرنسية الاولى لن يتيسر انقاذها بسبب التمزق الداخلي والضغط الخارجي . ولكن المؤتمر اقام لجنة الانتقاذ

١٨ (١٠ آب هو يوم حصار التويلري ، والمعاركة بين الحرس السويسري والشعب .
١٩ (وفي الادوار التي عاد فيها الملكيون الى توذم في فرنسا استحدثوا من هذا الاعدام حمة وجهوها الى قنلة الملوك « Les Régicides » ، فطاردوم ونفوا كتبرين ، واقاموا « الارهاب الابيض » « La Terreur Blanche » .

٢٠ (قال احد زعماء الثوار يصف اثر اعدام الملك : « في هذا اليوم لمس منوجو اوربا رؤوسهم يتثبتون من بغاها بين اكتافهم » .

العامية « Comité de Salut Publique » مؤلفة من اثني عشر عضواً ، وهي اللجنة التي وضع روبسبير يده على دفتها فسيرها في اعصاب الاوقات . وبعض مؤرخي الثورة يتفل على اليد الروبسية ، وبعضهم ينصرف الى المفاضلة بينه وبين دانتون . والواضح ان مصير الثورة بل مصير فرنسا كان اذ ذاك معلقاً بشعرة . وكان الوضع يقتضي - اولاً - كفاحاً لا هوادة فيه ضد « ميعنة » الجيروندي التي دفع بها اخراجها من السلطة الى احضان الرجعية النافذة والى استخدام الاغتتيال ، كما ظهر من قتل الفتاة الجيرونديّة ، شارلوت كورداي ، لما راه احد اعلام الثورة الشعبيين . وكان الوضع يقتضي - ثانياً - كفاحاً لا هوادة فيه ضد « ميسرة » لا تعرف حداً تقف عنده ، يسكرها النجاح وتصر على استفزازات تقصي التأييد عن الثورة ، كما تبين من تطرف شوميت الى « الغاء الدين » و « عبادة العقل » في شخص امرأة حسنة .
تَنْصَبُ آلهًا ! (٢١)

تجاه هذا الوضع كان لا بد من ارادة فولاذية بصيرة تقبض على دفعة السلطة فتعين هدف البلاد الرئيسي ، أي : انقاذ الوطن ، وانقاذ الثورة بجشد قوة الشعب وتهمي. الوسائل من اسلحة وغيرها لسحق الاعداء في الداخل ، وضربهم في الخارج . ولقد وجد الشعب الفرنسي يومذاك ، هذه الارادة الفولاذية ، في روبسبير ولقبه « المعصوم من الفساد » (L'incorruptible) .

بدأ روبسبير واعوانه تنظيم الجيوش الجديدة ، واشرفوا على تنشيط انتاج العتاد والذخيرة ، وهياؤوا الاموال بتصرف الاملاك المصادرة ، واقاموا المحكمة الثورية « Tribunal Révolutionnaire » فارسلوا الكثيرين الى المقصلة . والمؤرخون يعترفون بان هذا العهد انقذ فرنسا والثورة من سحق تام ، وكشف الستار عن حيوية في الشعب ادهشت العالم .

(٢١) وكانت احدى ممثلات الاوبرا هي المرأة التي وقع عليها الاختيار الاول لتمثل « العقل » وتصبح معبودة الناس ! وقد ادرك روبسبير ، فوراً ، خطر مثل هذه التطرفات المفرقة ، وكان رجلاً ينحو في معتقده الديني منحى روسو وفريق الريابيين Déistes ومؤمنون بالله ، على انه المتبع الاصلي ، ولكنهم يبنون الدين على العقل واعتبار الطبيعة .

ومن السهل جداً على مؤرخ ان يفرد حادثة اعدام واحدة مثلاً فيقول ويقول الى ان ينتهي بالحكم القاضي على روبسيير « الدموي » وعلى عهد « الارهاب الصغير والكبير » . ولكن التاريخ لا يحكم على جل كروبسيير وعهده بهذا الاسلوب ^(٢٢) . وفي هذه المرحلة برز قواد فرنسيون مبدعون كالفائز كارنو « منظم النصر » ومنظم غضب الشعب عسكرياً ^(٢٣) ، والفائز هوش ، ومارسو ، وجوردان الخ . فحرروا الارض الفرنسية من سطو الجيوش الاجنبية التي كانت تدق على ابواب الوطن ، وهي اوفر عدداً واحسن عدة . وقمعوا ، كذلك ، الحركات الداخلية واهمها ثورة الفاندية الملكية . ثم ما لبثوا ان دفعوا القوات الفرنسية الى خارج بلادهم ففتح جوردان النمساويين في معركة فلوريس سنة ١٧٩٤ ، واحتل البلجيكي ، واستولى الفرنسيون على هولندا واسطوها ، وتقدموا الى الشاطئ الايسر من نهر الزان . وفي الوقت الذي اصبحت فيه ارض فرنسا في مأمن من الغزو تبين لفريق كبير ان لجنة الانقاذ العامة وسيطرة روبسيير لم يبق لها ضرورة . فسقط روبسيير في ٩ ترميدور من السنة الثانية لتأسيس الجمهورية (٢٧ تموز سنة ١٧٩٤) وسبق الى المقصلة مع سان جوست وكوتون ، ولم تستطع عامية باريس ان تحشد من القوة ما ينقذ الرجل ، ذلك لان الحاجة اليه والى عهده انقضت في رأي فئات كثيرة من الناس . وتبين ايضاً بعد المعاهدات التي عقدها فرنسا المنتصرة مع دول اوربا سنة ١٧٩٥ ان المؤتمر الوطني نفسه لم تبق اليه حاجة ، فانفض في ٢٦ ت ١ سنة ١٧٩٥ . ولم يقتصر عمل المؤتمر على الكفاح العنيف في الداخل والخارج ، بل صك دستور سنة ١٧٩٥ (دستور السنة الثالثة حسب التقويم الجمهوري) وهو القانون الاساسي الذي استهدف تنظيم الجمهورية الفرنسية الاولى فأودع السلطة التنفيذية ايدي خمسة مديرين ، واقام لجاناً محل الوزارات ، وجعل المجلس النيابي قسمين : القدامى (او الشيوخ) ^(٢٢) (للريغاتي مقال في نقد كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، راجعه في نصوص هذا الكتاب ، فنيه ما يتعلق بهذه القضية .

^(٢٣) كان كارنو يقول : يجب ان تنظم غضب الشعب عسكرياً . وهذا يعني ان الشعوب في ثوراتها تعطي مادة لجيوش لا تعهر . ولكن لا بد مع ذلك من خلق جهاز عسكري نظامي .

« Les Anciens » ومجلس الجماعة ، وقضى على آخر بقية باقية من الحقوق
الاقطاعية ، وأمر بنص مجموعة قوانين « Code » واحدة للبلاد كلها ، وبدأ يحول جهده
نحو تسوية المشاكل المالية وإلها الدين العام الناشئ عن نفقات الحرب .
واهتم المؤتمر بالثقافة العالية والعامة اهتماماً جدياً مشمراً ، فقرر التعليم الابتدائي
العلماني اجبارياً ، وأنشأ المدارس المركزية للتهديب الثانوي ، إلا أنه لم يوفق إلى
استكمال الهدف المنشود ، وأسس مدرسة يوليتكنيك « Polytechnique » ودار
المعلمين ومدرسة « مارس » للضباط . وأقام الجمع الوطني للعلماء
« Institut National » ومتحف التاريخ الطبيعي ، وجدد كلية فرنسا و « دار
الوثائق الوطنية » للمستندات التاريخية « Archives Nationales » ، وأدخل القاعدة
المتريّة في المقاييس والمكاييل ، وهي أوفق مصطلح من نوعه .
وهناك ناحية من أعمال المؤتمر الوطني يحب السكوت عنها كثير من المؤرخين ،
وبسير منهم من يذكرها ، إلا وهي ناحية العلاقة بين الدولة المركزية والمستعمرات
فرنسا القليلة إذ ذاك .
كان معظم سكان هذه المستعمرات من العبيد الأرقاء ، فلما وصلتهم طلائع
انباء الثورة أملاوا خيراً ، وتنبأوا لاستقبال عهد جديد تقوم فيه العلاقة بينهم وبين
الدولة المركزية على أساس جديد . ولم يلبث اعلام الثورة أن وجدوا أنفسهم في
وضع حرج . فهم أمام تعاليم الفلاسفة الذين يستوحونهم ومبادئ حقوق الإنسان لا
يستطيعون أن ينكروا على العبيد وأهل المستعمرات حقوقهم ، إلا أنهم (الكثيرون
منهم) لما قصدوا بهذه المبادئ الإنسانية المطلقة أن تكون سلاحاً ضد ذوي
الامتيازات في الداخل . أما أن يستعمل العبيد وأهل المستعمرات تلك المبادئ سلاحاً
حقوقياً يتقوون به ، فهذه مسألة أخرى . وانشق اعلام الثورة إلى أقسام : قسم يرفض
مطالب المستعمرات والعبيد ، وقسم يتردد ، وقسم يرى من الضروري الاعتراف بهذه
المطالب وفقاً لشعارات الثورة . فلما كان عهد المؤتمر الوطني ، عمل روبسبير على إلغاء
الرق بغير تحفظ ^(٢٦) وهو لا يبالي بما أتهم به من تضییع الحقوق المسماة « حقوق فرنسا »
(٢٧) وقع هذا الصدد بين روبسبير ودانتون خلاف في وجهة النظر نشر إليه لأنه

أي : حقوق تجار الرقيق وكبار اهل الجاليات . وكانت النتيجة عجيبة . اذ ان عبيد المستعمرات وابناء الشعب من الجاليات الفرنسية انتظموا في صفوف واحدة ودافعوا بمؤازرة رسل « الكونفانسيون » عن ارض المستعمرات دفاعاً رائعاً طرد جيوش التدخل الاجنبية واعوانهم من تجار الرقيق وكبار اهل الجاليات ، وابقوا هذه الارض تابعة لفرنسا التي اصبحت لهم وطناً اماً حقيقياً بعد تطبيق قوانينها الثورية عليهم وعلى الفرنسيين سواء بسواء . وفي هذا العهد برز الزعيم الاسود الكبير توسان لوفرتير ، فانشأ في سان دومنغ كلها حكومة حرة في نطاق الكيان الفرنسي ، (بعد ان طرد الاسبان من قسمهم في الجزيرة) .

وابدى هو واعوانه العبيد من الكفاءة ما نقض الزعم القائل بان العبيد لا قدرة لهم على مماشاء التمدن وخلقه ، وبالتالي نقض كل زعم يقول بضرورة سيطرة عرق بشري على عرق . وكذلك ايدت تدابير المؤتمر الوطني الراي القائل بان اعتراف الشعوب بعضها بحقوق بعض ، يقرب بينها ولا يباعد .

ولا جدال في ان المؤتمر الوطني الفرنسي يحتل اجراً صفحة ، وأبكر صفحة ، في تاريخ الفاء الرق وتحرير العبيد . ومعظم الاهتمام بقضية الرق والعبيد كان من قبل مصروفاً الى ارشاد الاسياد وترقيق قلوبهم ، او الى مننع الاتجار بالسود

يكشف عن تفاوت بين الرجلين في عمق الادراك الثوري . فقد اقترح دانتون ان تسلم فرنسا بعض مستعمراتها الى الولايات المتحدة . واعتبر ذلك ضرباً من « المهادنة السياسية » يشغل بريطانيا بمشادة مع الولايات المتحدة . ولكن روبسيير رفض هذا الاقتراح لسببين : اولهما - ان الشعوب ليست بضائع تتداولها الحكومات ، وثانيهما - ان انصاف الشعوب التابعة « الوطن الأم » يفوي مركز « الوطن الأم » نفوية عظيمة . وجاءت الحوادث مؤيدة وجهة نظر روبسيير . وكثيرون ينعنون هذا الناصر الكبير بانسان « خلقتهم المبادئ » . ويرحمون انه قال : « لتلك المستعمرات ولا ينقض مبدأ واحد » . والصحيح انه قال : « ان نضحي من اجل (مصالح) الجاليات الاستعمارية بالامانة ولا بالمستعمرات ولا بالانسانية جمعاء ! » والفرق بين القولين واضح . ولما جاء دور نابوليون قضى على « توسان لوفرتير » وحركته في سان دومنغ ، وهو يظن انه جده المخطئة اغما يؤمن حقوق فرنسا والنصاق البلاد بها . غير ان الوقائع نسفت ظنه . فما لبثت المعاملة السيئة التي ذاقها سان دومنغ ان دفعتها الى الاتصال الكلي .

« المساكين » (٢٥) .

على انها صفة مجيدة ، المؤتمر الوطني ، لم يطل امدها . فان الرجعة النابليونية طوتها . ونابليون هو صاحب الكلمة « الرق شر ضروري » . ويمكن القول بان خطوة المؤتمر الوطني تلك لم تقع بعدها حتى اليوم خطوة تاريخية تعادلها جرأة في الدول التي تتعلق بها قضية عبيد ارقاء . (٢٦) .

وهناك ناحية اخرى يجب اكثر مؤرخي الثورة السكوت عنها اذ يتحدثون عن المؤتمر الوطني ، وهي : ناحية التمويل وتأمين الاعاشة ، في وقت من اوقات الحرب كان عصياً جداً على فرنسا . ولم يقف روبسبيير عند حد في كبح جماح الذين لا يرون في الظروف العسيرة الا فرصة للانتفاع الخاص . وكثير من الحملة على العهد الروبسييري

(٢٥) ومعلوم ان روح المبادئ المسيحية الصرف تستنكر الاستعباد والاسترقاق . كما ان مبادئ الاسلام الصرف تدعو الى معاملة الرقيق بالانسانية وتجعل « تحرير الرقة » من اعمال الزاني والتكفير المبرورة . على ان اعلام المسيحية الاول لم يحدوا انفسهم في دور تاريخي يثير مسألة الغاء الرقيق اشارة جذية . فبرروا الرق ، او سكتوا عنه ، او اخذوه مأخذ الشبه الطبيعي الضروري كما فعل قبلهم افلاطون وارسطو . يقول القديس اغسطينوس : « ان العبودية شيء واقع بقضاء من الله لاجل الخطيئة . وليست العبودية في نظر الله جريمة على الاطلاق » (من كتاب : مدينة الله ، لاغسطينوس ، السفر التاسع عشر) . وما ينطبق على اعلام المسيحية من هذا الغييل ينطبق في موداه على اعلام الاسلام . ولكن لما اثيرت مسألة الغاء الرقيق ، مع سير التاريخ وتقدم المدنية ، كانت المبادئ الدينية ، المسيحية والاسلامية ، من اثبت نقاط الارتكاز التي استند اليها دعاة تحرير العبيد . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب فصل لطيف لحسين باشا ناظر المعارف التونسية ، وجهه الى قنصل الولايات المتحدة في تونس بشأن الرقيق ، وكانت الحرب اذ ذاك مستعرة بين الولايات الاميركية الشمالية والجنوبية حول قضية العبيد .

راجع الفصل ، ونأمل الحادثة التي يذكر حسين باشا انها وقعت لرجل اسود مع رجل اميركي في الاويرا بياريس .

(٢٦) صحيح ان الولايات المتحدة حررت العبيد ، ولكنها لم تعظم وطنياً خاصاً ، فلبثوا اشبه بالغرباء في مجتمع تعوقهم فيه حواجز نفسية ولونية تعرضهم للمهانة واحياناً لاقي الضطهاد ، كعمال « اللشغ » ومستيريا « الكلوكلوكس كلان » في ولايات الجنوب على الاخص .

يرجع الى ذكريات مزعجة تركها هذا العهد لمجوعي الشعب ، فخافوا ان تصبح خطته سنة تتبع .

وبعد عهد المؤتمر الوطني يقبل المؤرخون على عهد الادارة « Le Directoire » ، وهي حكومة جمهورية الصيغة قامت على قواعد دستور سنة ١٧٩٥ . ولا يغفل المؤرخون ان يذكروا ان هذه الحكومة سبقها عهد الردة الترميدورية ، على اثر اعدام روبسيير . فعادت الى ميدان العمل عناصر ملكية (وجيرونديية ايضاً) همها الانتقام للامس واحداث المصاعب والمتاعب املا بالرجعة . ومن المؤرخين من يذهب الى ان ترميدور ، وازالة روبسيير ، جاءا قبل الاوان ، فتركا من الاثر والنفوذ للعناصر المعادية للثورة او المترددة فيها . ما جعل حياة فرنسا السياسية عرضة لدفع وجذب داخلين قويين . والذي لا شك فيه ان حكومة الادارة ظهرت قاصرة عن ان تعالج المشاكل التي جابهتها ، فقد وجدت امامها الديون المائلة الناشئة عن نفقات الحرب ، ورأت تأزم التفاوت الاقتصادي بين طبقات الشعب . وكان في اعضائها فاسدون مرتشون ^(٢٧) بعيدون عن النظافة اخلاقية التي تجسدت في اليقوي الكبير روبسيير . وكثرت خروق الحكومة للدستور ^(٢٨) واشتد حنق الشعب واستنكاره لحالة بؤسه ، بينما تنصرف الهيئات الميسورة من المجتمع الى حياة متعة وامراف اوغلت فيها بعد عهد التقنين الروبسييري والصوفية الثورية . وتكتل فقراء الشعب في باريس حول غراكوس بابوف ، وطالبوا بالمساواة الاقتصادية مع المساواة الحقوقية فقمعتهم الحكومة ، كما انها اصطدمت بالملكيين ، واتضح انها في الداخل بين ضغطين شديدين من اليسار واليمين . وهكذا طرحت على بساط الضرورة مسألة حكم عسكري يؤمن للطبقة التي قادت الثورة في الاصل (اي : الطبقة الوسطى Tiers Etat) هدواً داخلياً ، ويدفع

(٢٧) امثال باراس الذي اراد الانكليز شراؤه بعشرة ملايين ، فطلب المزيد .

(٢٨) تقصد بها Coups d'Etats . ولعل تعريب هذه الكلمة الخرفي هو الفتنة (بالمعنى السياسي) . وقد قال عمر بن الخطاب ان مبايعة ابي بكر كانت « فتنة » ، وبني بذلك انها ارتجلت بضغط من الظروف ، ولم تكن وفق الاصل سنة وقرآناً . والسنة والقرآن هما (سياسياً) شبه بالدستور في الخلافة الاسلامية .

بفرنسا في طريق التوسع الاستعماري . فكان نابليون قنصلاً رئيسياً ، أول الامر ، بعد رجوعه من الحملة على مصر ، وتلك هي « الفلثة » المعروفة بـ ١٨ بريرير (سنة ١٧٩٩) ، ثم أصبح نابليون امبراطوراً متوجاً موروثاً سنة ١٨٠٤ ، فانهى عهد الجمهورية الاولى رسمياً .

والمؤرخون يرون عادة في العهد النابليوني رجعة كلية عن مبادئ الثورة . ولا شك ان نابليون كان النتيجة المنتظرة للرجعة التي بدأت بتاسع ترميدور واعداد روبسبير . ولكنها رجعة نسبية ، فنابليون ظل يحمل مبادئ تقدمية حتى آخر عهده ، وان اختلفت ادوار حياته من هذا القبيل .

ان بوناپرت وهو ابن الثورة الذي خرج من رحمها ، وترعرع في حضنها ، قد حمل شيئاً عميقاً من طابعها . ولا شك ان سيرته ، لا سيما بعد اعلان نفسه امبراطوراً ، عملت على تعطيل كثير من ثمرات الثورة . وهذا ناتج من صعوبة التوفيق بين الامانة لروح الثورة واتباع سياسة توسعية باتت تريد لها الهيبة التي يمثل نابليون مصالحها بعد ان ضمنت لنفسها سيطرة في الداخل . ولكن الرجل ، في القانون المدني الشهير ، بنى على التشكيل الجديد الذي تشكل به المجتمع الفرنسي نتيجة الثورة . وحمل في فتوحاته كثيراً من بذور المبادئ الثورية بقصد منه او بحتمية تاريخية . فلقد دفع باوروبا في طريق اليقظة الوطنية والاصلاح ، سواء اراد ذلك ام لم يرد . وصحيح ان الامبراطور نابليون لم يأمر بالاصلاحات التي ادخلها فون شتاين ، مثلاً ، على نظام بروسيا فاستقلت هذه الدولة ونهضت ودرجت في مدارج الشوكة والقوة . ولكن فون شتاين وجماعته لم يكن ليفوتهم ان نهضة فرنسا التي استند اليها نابليون نشأت من الثورة واصلاحاتها . ولذلك اتجهوا نحو الثورة الفرنسية لاستيحاءها ورفع مستوى شعوبهم^(٢٨) .

(٢٨) فون شتاين هو الوزير الذي قال لملك بروسيا لما اراده على تنظيم جيش لمحاربة نابليون : « كيف يمكنني دعوة أبناء الشعب الى الدفاع عن وطن لا يكون شبراً من ارضه ، وحقوقهم فيه معطلة ؟ » (كانت بروسيا لا يزال غالباً عليها النظام الاقطاعي) . وطلب « فون شتاين » من ملكه تحرير الاقنان ، وتحسين احوال الفلاحين ، واطلاق كثير من الحقوق الاجتماعية والسياسية للامة . فاجابه الملك الى مطلبه . فكان ان هبت بروسيا في وجه نابليون

والدليل على ان الرجعة النابليونية لم تكن هي الرجعة الكبيرة ، ان مؤتمر فيينا الذي اشرف على تنظيم اوروبا كان من اعظم همه نحو المبادئ الجديدة ، أي : المبادئ الثورية التي ساعد نابليون على نشرها . فالرجعة الحقيقية هي رجعة مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤ بعد سقوط نابليون النهائي . وكان مترنيخ الوزير النمساوي الموهل في كره الثورة ومبادئها يصفها بـ « الوحش الفاجر فكيه لابتلاع النظام الاجتماعي » . واذا ذكرت ايطاليا التي سار بها نابليون شوطاً بعيداً نحو تشكيل « وطن » وتأليف « امة » يقول « ايطاليا اصطلاح جغرافي ! » وهو يقصد بذلك الغاء حقها في تشكيل وطن وتأليف امة .

ولكن من قوانين التاريخ ان الرجعة العامة يستحيل ان يثبت امرها . ولقد اصبحت امور بعد الثورة الفرنسية مستحيلة في العالم . ومن هنا لم يلبث مترنيخ ان وجد نفسه مضطراً الى الهرب من احدى نوافذ قصره في فيينا خوفاً من الجماهير الصاخبة في الشارع . ان مبادئ الثورة لاحقته في عاصمة بلاده وطردته منها . ومن هنا لم يستطع مؤتمر فيينا ان يحل المشكلة التي اثارها الثورة الفرنسية ، فكان تاريخ اوروبا في القرن التاسع عشر (ويمكن ان نقول تاريخ العالم كله تقريباً) نزاعاً بين الروح السارية المنبثقة من ثورة فرنسا وروح مؤتمر فيينا . ولا يزال التاريخ اليوم الى حد كبير مظهرًا من مظاهر هذا النزاع .

فبالطبع ان مؤرخ الثورة الفرنسية الكبرى لا يستطيع ، ولو اقتصر على التاريخ الفرنسي وحده ، ان يقف عند انتهاء العهد النابليوني . فان هذه الثورة التي اوجدت الوطن الفرنسي والوطنية الفرنسية بالذمى العصري ، واعطت فرنسا تقاليد في العمل السياسي ونظام الحكم ، ظلت موضوع تأمر من قبل الرجعية . وقد عقيتها في التاريخ الفرنسي ثورات كانت لها اشبه بلاحق قصيرة كثورة الثلاثة الايام المحيدة « Les Trois Glorieuses » سنة ١٨٣٠ ضد شارل العاشر ووزيره بولنيك ، وثورة ١٨٤٨ ضد الملك لويس فيليب وهي الثورة التي افتتحت عهد « الجمهورية الثانية » .

واحرزت استقلالها بعد ان خسرنه في معاهدة نلرت سنة ١٨٠٧ . وكان « جنابرتاو » ، وهو احد السكسونيين الذين لجأوا الى بروسيا ، يقول : ان السبب في بلوغ فرنسا هذه

ولما استقرت الجمهورية الفرنسية الاخيرة - وهي الثالثة - كانت مرتكزة الى قواعد من ثورة ١٧٨٩ وتواليها ^(٢٠) . وهنا يخرج بنا الحديث الى ذكر المجاري التي تسربت خلالها مبادئ الثورة وافكار اعلامها ووصف وقائعها الى الشرق والبلاد العربية والأدب العربي .

الدرجة من المنعة والسلطان هو ان الثورة نهت فيها جميع القوى الاجتماعية ، وما اكثر القوى السكينة في حياة الامم . وكم في نفوس آلاف الرجال من عبقرية ومواهب تحمدها الظروف الخارجية وقتها من الظهور . وقد حركت الثورة الفرنسية عند الشعب الفرنسي القوة القومية بمذاخيرها ... فيجب ان نسير على مثالها وان نوجه القوة الوطنية في تمامها ضد القوى الاجنبية الفاصلة (نطق جنائزناو هذا الكلام سنة ١٨٠٧ ، بعد عقد معاهدة نزلت على اثر انتصارات نابليون للتوالية) .

(٣٠) في فرنسا ثورة أخرى هي ثورة عامية باريس سنة ١٨٧١ ، على اثر هزيمة نابليون الثالث في الحرب الفرنسية الالمانية . وهي ثورة تمت بصلات قوية الى ثورة سنة ١٧٨٩ ، ولكن غلب عليها الهدف العالمي الاشتراكي شأن محاولة ٥ بابوف في عهد حكومة الادارة ، مع الاحتفاظ طبعاً بفارق الطور التاريخي .

الفكر وعامله في الثورة

الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالسواقي ، وجعلت الحرية تعبد كالألهة ، كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين نلافيف دماغ رجل فرد عائش بين الوف الرجال (١) - جبران خليل جبران في « الاجتاحة للتكسرة » .
ان الذرد اما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم اما هو عظيم بسعته لا بنفسه . هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف وازجال . - أمين الريحاني في مقاله ينتقد تاريخ « كارليل » عن الثورة الفرنسية .

اما ان الفكر كانت له يد في ايقاد الثورة الفرنسية ، فذلك ما لا يضعه مؤرخ

(١) جماعة الفكر مبالون في الاغلب الى تحميل انفسهم كل مسؤولية الانتفاضات والاصلاحات . والذي نراه ان الفكر الاصلاحي فيما يتعلق ببعض الاحداث الاجتماعية يختلف شأنه ، فانه ما تنفق له تجريدات وايالات في المثل تنقطع به - في بعض النواحي - بعيداً عن عصره ، وقد ترجع به احياناً عنه ، فلا يخرج عن نطاق الاحلام والروى ، ويتنصر تأثيره في احسن الحالات على ايقاد الشوق الفامض الى ما « يجب ان يكون » اطلاقاً ، فيظل تطبيق محتواه واخراجه الى حيز الفعل متعسراً بل متعذراً . ومن الفكر ما ينظر الى الواقع فيلمس فيه عناصره التي تشيخ وتنحط ، وعناصره التي تنمو وتنهض ، فيركز مذهب الاصلاحي على العوامل النامية في الواقع حوله ، ويطمح لا الى « ما يجب ان يكون » اطلاقاً بل الى « ما يمكن ان يكون » بالنسبة الى وسائل التحقيق التي هيأها وحيثها له الوضع والتطور التاريخي . والفكر الاصلاحي يقوم بأعظم أدواره اذ يمي العناصر الشائخة التي تسير في طريق الاضمحلال ، ويمي العناصر الجديدة النامية ، فيجالف الجديد على البالي ، وبذلك يصبح سبباً من الاسباب المحركة - لا الاسباب كلها ! - مهما يكن مهماً . والاحداث الاجتماعية لا تقع بمجرد ان مفكراً او جماعة من المفكرين ذهبوا اليها ، بل تقع لان القديم « الأب » الذي ترعرع في حضنه الجديد شاخ بحيث بات تنجيه للجديد « الابن » ضرورة تلح وتضط بثل الجماهير التي تحركها في المجتمع .
على ان الفكر - اذ يفكر - قل ان يتخلل تفكيره عامل الوعي والادراك لمعنى عمله

موضع الشك والجدال . وقد كان للفكر ولا يزال ، أثره الكبير في أحداث
الانقلابات من عنيفة سريعة او سلمية بطيئة .

اجتماعياً وتاريخياً . ولذلك كثيراً ما نجد في المفكر - ادبياً كان او شاعراً او فيلسوفاً -
مزيجاً من التفكير « الطوبى » الخيالي حول « ما يجب ان يكون » اطلاقاً والتفكير حول
« ما يمكن ان يكون » نسبة الى الوضع التاريخي . بل كثيراً ما نجد في المفكر الواحد
مزيجاً مما يخدم القديم وما يخدم الجديد ، لان المفكر قل ان يسائل نفسه من يخدم
اجتماعياً وتاريخياً بعمله ، بل هو قد يظن نفسه ينهض بشيء ، فتكون النتيجة غير ما ظن
وما نوى . كان لوثر ، مثلاً ، يمتدح العقل باقبح النعوت : « مومس الشيطان » ، « عروس
الشيطان » ، « اعدى اعداء الله » الخ ... ومع ذلك فان الاصلاح الذي كان لوثر رأس
دعائه في الكنيسة خدع العقل وحق العقل في المحاكمة والبحث الحر . وعلى هذا يكون
لتاريخ منطق غير منطق الأفراد ، وإرادة الأفراد .

ومن التأثيرات في تكوين المفكر ما تحفى عليه وتعمل فيه عملها صامتة وهو غير شاعر
بها . ومن هنا كان رأي المفكر في نفسه ، كراي كل انسان ، لا يصح الاعتماد عليه في
حالات كثيرة .

وقد يتفق ان يكون تفكير المفكر غير صحيح كل الصحة ، من حيث الحقيقة
التاريخية او العلمية ، ثم لا يتمتع ذلك من ان يؤثر أثره اذا استطاع ان يتناول الجماهير
ويحركها . فالهم في قيمة الفكر - بصفته مؤثراً تاريخياً - هو ان تقبل الجماهير وتعمل به .
ولا شك ان الفكر ، كلما ازداد نصيبه من الصحة ، قبلته الجماهير مدى اطول وعملت به
عملاً أنشط وأثبت . وذلك فرضية روسو مثلاً عن « الحالة الطبيعية » « *Etat de Nature* »
ينقلب انما غير صحيحة من حيث الحقيقة التاريخية . على ان هذه الفرضية وما بنى عليها
المفكر الفرنسي من قواعد في الحكم والسياسة وافقت مطالب الجماهير الفرنسية ووجدت سبيلها
الى قلوبهم وعقولهم ، فتأثروا بها في ثورهم الكبرى . ولا كان منزى هذه الفرضية ومرماها
صحيحاً في ضوء الاتجاه التاريخي وخدمة اغراضه كان البناء عليها اثبت وارسخ من البناء على
افكار ونظريات كالتى تدعيها النازية مثلاً . فتمتد سنوات كان موسوليني وغوبلز يصيحان :
ان عام ١٧٨٩ سبقت من التاريخ . وعام ١٧٨٩ هو عام « حقوق الانسان » المرتكزة الى
نظريات روسو وغيره من مماثليه . فبعد ان ثبتت هذه الحقوق دوراً تاريخياً طويلاً ،
الى ان قام موسوليني وغوبلز يملتان « انتهاءها » ، اقبلت هذه الحرب ، وقد بدأ التاريخ
يقول فيها كلمته ، وهي : ان موسوليني وغوبلز تقسما سبيليان ، وسيظل عام ١٧٨٩ حجراً
ضخماً اساسياً في بناء العالم الجديد .

هذه ملاحظات سريعة أحيانا ان يجعلها القارىء نصب ذهنه وهو يطالع هذا الفصل .

وغني عن البيان ان موضوع هذا الكتاب يستدعي فصلاً عن اعلام المفكرين الفرنسيين الذين سبقوا الثورة ، فكانت آراؤهم ومذاهبهم عاملاً من عوامل التمهيد لها ، ثم كانت اشبه بمصاييح درج على ضوئها كبار الثورة وقادتها ، على ان المؤرخ حين يعرض لتأريخ الافكار يجد نفسه فوراً امام عقدة محيرة : من اين يبدأ ؟ فحقل الافكار الذي يجده زاهراً في دور من الادوار يجد منه بذوراً في عصور سبقت حتى يجدى طويل احياناً ^(٢) .

وقد كان لنا معلم يستخف بنا كلما عاجلنا موضوعاً فبدأننا ببده العالم ، وقلنا في فاتحة الانشاء : خلق الله الدنيا ... على ان عملنا ، والحق يقال ، لم يكن خلواً من الحقيقة لان كل موضوع يكاد يبدأ تقريباً ببده العالم .

غير ان مؤرخي الثورة الفرنسية يركزون اهتمامهم حول دور الانقلاب العقلي الذي سبق الثورة في القرن الثامن عشر . كان هذا القرن دور نضج للافكار التي برزت وتطورت وغلبت على اذهان اعلام الثقافة ، نتيجة لحركة الكشف الجغرافية العلمية

(٢) والواقع ان هذا شأن التاريخ على محومه . فكل حدث من احداثه يبدو كأن جميع ما سبقه مما له به ارتباط قريب مباشر ، او بعيد غير مباشر ، قد مهد له وجعله ممكن الحدوث بتأثير الفعل واثبات رد الفعل . والى هذا رمى الكاتب عباس محمود العقاد في قوله عن الثورة الفرنسية :

« ما الثورة الفرنسية لولا فتح الاندلس ، ولولا الحروب الصليبية ، ولولا سقوط السطونية ، ولولا كشف الفارة الامبركية ، ولولا الثورة في البلاد الانكليزية (ولا تعلم لماذا فاته ذكر الثورة الامبركية ؟) بل ما الثورة الفرنسية لولا الاديان التي قررت لكل انسان من الناس «روحاً» ينط بها الخير والشر وتتناط بها المسكافة والمعقاب ، فقررت بذلك اساس «المسؤولية» الفردية واساس الحقوق والواجبات . وما الثورة الفرنسية لولا الاديان التي رفعت الفوارق بين الاقوياء والضعفاء ، بين الاغنياء والفقراء ، وبين السادة والعبدة ، فقامت بذلك اقدم الاسس وادومها في بناء الحرية الديمقراطية ، وجعلت العمل الصالح والقوة على الخير مقياس التفرقة بين الاقدار والدرجات ؟ فاليوم الرابع عشر من شهر يوليو (تموز) هو يوم من ايام الانسان في تواريخ الازمان . (من مقال للعقاد نشر في مجلة « الطليعة » في تموز سنة ١٩٣٩) .

التي بدأت في القرن الخامس عشر ^(٢) ، ونتيجة النهضة الاحياء « La Renaissance » التي ظهرت في القرن السادس عشر ^(٣) .

فحركة الكشوف الجغرافية ، وان اقتربت بمطامع في الكسب التجاري والنهب

٣ () في هذا القرن عثر « فاسكو داغاما » البرتغالي على طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ وعرف كولومبوس أوروبا بغارة اميركا الشمالية سنة ١٤٩٢ . ودار « ماجلان » حول الكرة الارضية من سنة ١٥١٩ الى ١٥٢٢ . وفي هذا القرن أيضاً شاع استعمال البارود في أوروبا واستخدام السلاح الناري . وكان البارود قد استعمل اولاً في اواسط القرن الرابع عشر سنة ١٣٤٦ في معركة كريسبي . وفي هذا القرن أيضاً انتقلت البوصلة فساعدت على اتقان الملاحة ويسرت أسفار المكتشفين وفوحاتهم . وكذلك تقدمت الآلة الطابعة تقدماً عظيماً على يد « غوتنبورغ » حتى نسب اليه اختراعها . واجيدت صناعة الورق . وغني عن البيان ان هذه الكشوف الجغرافية والمستنبطات العلمية كان لها اعظم اثر في نخضة أوروبا ومدنيتها . فالبارود والسلاح الناري ، مثلاً ، كانا من اعظم وسائل هدم النظام الاقطاعي المحض اذ قضيا على نفوق النبلاء العسكري وجعلوا قلاعهم الحصينة اهدافاً ميسورة المسال وبذلك (الى جانب العوامل الاخرى) امكن نشوء الدولة المركزة حول عرش الملك وتثبيت نوع من وحدة للبلاد . وكانت البلاد من قبل اشبه بمجموعة من دول صغيرة ، يستقل بها الامير الاقطاعي متحصناً بقلعته او قلاعه ، لا يؤدي الا خضوعاً اختيارياً للملك والدولة المركزية ، وكثيراً ما يشق عصا الطاعة .

ويلاحظ ان معظم المستنبطات التي كانت ضرورة حيوية لنخضة أوروبا انتقلت الى الاوروبيين عن طريق العرب من الاندلس وشمال أفريقيا او صقلية او سوريا في عهد الصليبيين . فالبارود مادة قبس العرب صنعها من الصينيين ، وحسنوها بخدمة المقاصد الحربية ، اذ جعلوها اقوى واشد اتجاذاً . وكذلك البوصلة عرفها العرب من الصينيين وانتقلت الى أوروبا عن طريقهم . والتأثير الذي تركته الاسفار العربية البحرية والزوار العرب على المكتشفين الاوروبيين كان كبيراً . ورحلة كولومبوس التي انتهت بكشف القارة الاميركية قد سبقها محاولة عربية اندلسية لشق بحر الطلمات « الانالتيك » وارتداد ما وراءه (راجعها في التاريخ الذي كتبه الدكتور فيليب حتي عن العرب بالانكليزية ، فصل ما حققته الحضارة العربية الاندلسية) . اما الورق فقد عرفه العرب من الصينيين ايام عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي الكبير . وبلغت في الاندلس صناعة القراطيس من القطن والخرق مبلغاً عظيماً .

٤ () ان ربط حركة الاحياء في أوروبا بالقرن السادس عشر - كما يفعل اكثر المؤرخين - فيه مجال للنظر . فاللفهوم بحركة الاحياء اخذ الالتفات الى الكلاسيكيات ولا سيما الاغريقية . والاندلس العربية بنوع خاص قد عنت عناية رامة بمعظم نواحي التراث

وكانت مقدمة للاستعمار الحديث ، فقد صرفت نظر الانسان الاوروي الى الارض ، ودفعته نحو التفكير والبحث العلمي والاختراع . وحركة الاحياء بما بعثت من كنوز القديم اليوناني والروماني ، وبما احييت من المثل الكلاسيكية ، وبما استقت من مناهل الحضارة العربية في الاندلس خاصة ، ايقظت الانسان الاوروي على تذوق الجمال الدنيوي وتلّس المعرفة العلمية وحب الاستقلال في البحث . فكان في اوربا موسم عظيم من اللوحات الفنية والرسامين ، ونتاج خصب من التأليف الفلسفي والادبي في اصول الفكر واخلاق والتعامل الانساني ، يضاف الى ذلك فتوحات في الدراسات الفلكية والطبية والطبيعية على وجه عام . ولعل في الافق الاوروي اسما كليوناردو دافنشي وغاليله ورابليه ومونتيني وسيرفانتس ودارسم وكوبرنيك وفيزال الطبيب وجيوردانو برونو : اسما تلتفت الى القديم البعيد او القريب ، وتفتقر بارسطو وابوقراط وابن رشد وابن سينا ، وتفتتح تلك القافلة المحيية ، قافلة باكون وكبلر وديكرت وسبينوزا وليبنيز ونيوتون وبسكال ورهط كبير من الادباء ، وتستمر متسلسلة في قافلة القرن الثامن عشر ، قافلة مونتسكيو وروسو وكوندياك وهيوم ولوك ولاميتري وآدم سميث وكسناي وفولتير وهلفيثيوس وديدرو وكوندورسه ودولباخ وغيرهم وغيرهم . . .

وحسبنا وفاء للغرض من هذا الكتاب ان نعيد القول ان حركة الاحياء ، مع ما ساوقها او تبعا من النهضة الصناعية في اوربا ، ومن حركة الانفصال الهوتستنتي ، الثنائي اليوناني ، وذلك قبل القرن السادس عشر بكثير . واذا فرد حركة الاحياء في اوربا الى هذا القرن خطأ ، الا اذا اعتبرت اوربا منتهية عند جبال البرانس (البيرنه) . وهذه المناسبة ، يجب القول ان نخضة الاحياء العظيمة في اوربا مدينة للعرب في الاندلس وشمالي افريقيا وصقلية حتى سوريا زمن التماس الصليبي بين الشرق والغرب . ولكن الدور الذي قامت به الاندلس العربية في هذا الشأن هو اعظم الادوار .

ويبغى لنا ايضا ان لا ننسى اثر القسطنطينية قاعدة الامبراطورية البيزنطية في بحث حركة الاحياء الاوروية . فلما احتل الاتراك العثمانيون هذه العاصمة سنة ١٤٥٣ تشردت منها طائفة كبيرة من علماء الاغريق والافريقيات ، فلجأوا في الغالب الى ايطاليا ، وساعدت المزوب بين الامارات والدويلات الايطالية على تشريدهم في اوربا ، فبثوا معارفهم فيها واذاخوا ذكرى كثير من كنوز القديم اليوناني ، فكانت حركة بحث بلغ من قواها ومداهما ان مهاجا المورخون « حركة الاحياء الصغيرة » توطئة للحركة الكبيرة .

قد شجعت روح البحث المستقل ووطدت الثقة بالعقل ووافقت نهضة علمية كبيرة ، وأسفرت عن تغيير عميق في نظر الانسان الى نفسه . ومن المستغرب أن يكون علم منزل ، كعلم الفلك ، في طليعة المعارف التي ساقى الى مثل هذا التغيير بل الثورة . لقد بين علم الفلك ان كرة الارض ليست بمركز الكون الثابت ، ولا هي اعظم واهم ما في النظام الكوني ، بل هي جرم يتحرك من جملة اجرام تدور حول الشمس الثابتة . فكانت النتيجة ان طرأ على الانسان شك في انه هو الغاية من الوجود ، والوليد المدال الذي صنع كل شيء . لاجله بتدبير في اصل الخلق . وفكر الانسان انه - اذا كان حقاً غاية - فهو الذي جعل نفسه غاية . وانه في الواقع قد لا يزيد عن كائن بل حيوان صغير ، على كرة صغيرة ، في كون هائل عظيم ، له قوانينه الخاصة المستقلة عن مراعاة الخواطر البشرية . وربما استشعر الانسان في هذا ما يحمله على اليأس والقنوط وفقدان الثقة بالنفس ، كما وقع لـ « غوته » لما ادلع على كتاب « نظام الطبيعة » للبارون « دولباخ »^١ . الا ان الانسان سرعان ما عرف ان لديه من العلم وسائل تشد عضده وتقويه على الطبيعة المحيطة به . وهكذا استعاد اهميته في نظر نفسه ولكن لا عن طريق انفراده بتدبير عناية سخّرت له مبدئياً كل شيء . بل عن طريق شعوره الذاتي بتدبير وتأثير الوسائل التي يستطيع استنباطها واستخدامها . ومن هنا حول وجهه شطر العلم . ومن هنا ايضاً طفق يزداد اهتمام الانسان بالانسان في مطلع العصور الحديثة في التاريخ الاوربي . واهتمام الانسان بالانسان ادى حتماً الى الاهتمام بمسألة الاجتماع . ومن ذلك العهد بتنا نرى المفكرين في اوربا منصرفين الى درس المجتمع ، تحتهم فكرة اساسية هي : ان الانسان يقوي الانسان ، أو ان الانسان - بعبارة اخرى - وسيلة للانسان . ودرس المجتمع قادهم الى درس الدولة والسياسة . ولكن مسألة ما لبثت ان عرضت ،

(٥) وهذه كلمات « غوته » لما قرأ الكتاب : شد ما احسنا بالفراغ والحواء ، في منتصف هذا « الليل » الموحش الذي انطمت فيه الارض وصورها والسماء ونجومها . فليس الا مادة نتحرك منذ الازل ، وتنشئ بحركتها هذه ، الى يمين ويسار وكل جهة ، مظاهر من الوجود لا عدد لها ، ولا شيء بعدها !

وهي : ان الانسان يجب ان لا ينسى ان الانسان غاية ايضاً ، لا وسيلة وحسب ! والمجتمع الصالح (والدولة الصالحة والسياسة الصالحة) انما هو الذي يكون فيه الناس جميعاً وسائل وغايات بعضهم لبعض ، باعتبار كل انسان له حقوق محترمة .

افاق المفكرون والادباء الفرنسيون (وهم موضوع الحديث في هذا الفصل) على المجتمع الفرنسي قبل الثورة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فوجدوا ان معظم الفرنسيين ، من حيث وضعهم في المجتمع والدولة ومساك السياسة ، انما هم وسائل لبعض الفرنسيين وليسوا غاية ايضاً كما يحق لهم ان يكونوا .

وعمد المفكرون والادباء الفرنسيون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة ، وتلصق اسباب الفساد ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد .

وكان من اليقظة العظمى التي ثارت ثورتها مع حركة الاحياء ، والنهضة الصناعية ، وحركة الاصلاح البروتستنتي ، وفورة البحث والاستنباط العلمي ، مرجع يستمدون منه ودليل يسترشدون به .

وقد ذكرنا كيف ان هذه الحركات نشطت العلم وصرفت اليه الجهود ، والعلم صرح يتركز على دعائم العقل ، فلا علم بلا عقل يختبر بالاستناد الى الحواس والادوات الفنية المساعدة لها ، ولا علم بلا عقل يرجع الى قوانين المحاكيات العقلية ، لا الى موجبات النقل والتقليد .

ثم لا علم بلا مباشرة الطبيعة . فالطبيعة بما فيها المخلوق الانساني هي ميدان العلم ومجاله الذي فيه يخوض . فلولا الطبيعة لبقى العلم بلا موضوع او لما كان علم .

وهكذا اتجه المفكرون والادباء الفرنسيون الى العقل بصقلونه ويتسلحون به ، والى الطبيعة يدرسونها ويتعلمون منها ، واستخدموا ذلك كله في بحث الاجتماع والدولة والسياسة ، وفتحوا الانظار على النقص الهائل ، واشتقوا طرقاً الى الاصلاح .

ولاريب انهم وجدوا لهم مبعثاً في المفكرين البريطانيين وغيرهم ، وفي الثورات التي سبقت عهدهم كثورة « البلدان المنخفضة » على فيليب الثاني لاسباني ، وثورة الانكليز ، ثم الثورة الاميركية القارية العهد ^(٦) .

(٦) سبق لنا تعليق على الثورين الانكليزية والاميركية . أما ثورة « البلدان المنخفضة »

وبالطبع ان قسط كل من هؤلاء المفكرين والادباء في التهيؤ النفسي لاثورة يختلف باختلاف نزعاتهم ودرجاتهم ، وكثيراً ما كانت ادوار بعضهم ، في هذا الصدد ، لا تتعدى هتفة عاطفية يهتفون بها او لغزاً كاللغم يخفي مظهره المموه قوته النافذة . وقد يقرأ قارى خرافات « لافونتين » في القرن السابع عشر فلا يتنبه الى ما فيها من المغازي الاجتماعية والسياسية . ثم يقرأ كتاب « هيولييت تين » عن « لافونتين » فينشق له حجاب عالم الحيوان ، الذي يسبح فيه الشاعر ، عن عالم الانسان ، بل عن المجتمع الفرنسي في زمانه . ويشي القارى في بهو مليء بالصور سماه « تين » معرض او متحف « لافونتين » « Galerie de La Fontaine » فيرى لوحات من المجتمع الفرنسي وسياسته . معروضة في اشكال من عالم الحيوان ، ووقائع رمزية بين طيور وبهايم . وحكاية المؤتمر العجيب الذي اجتمعت فيه الحيوانات في وقت من اوقات الوباء . لتبحث سبب النكبة ، ليست الا نقداً ثورياً لاذعاً سدده الشاعر الى الحالة الراهنة في فرنسا . وقد اسفر « المؤتمر » عن ان جميع الذنوب والآثام التي اقترفتها المخلوقات الصاعدة في سلم العجائوات كالاسد وجماعته (اي الملك وحاشيته والهيئات البلاطية) لم تكن السبب الذي جر النكبة ، ولكن قضم الحمار لبعض الحشيش من ساحة احدى الكنائس هو الذي جاب الويل والثبور وعظائم الامور ! وواضح ان ما عناه الشاعر بالحمار الكادح الساذج هو هيئات الشعب التي عليها الغرم ولغيرها الغم^٦ .

Pays - Bas فهي التي وقعت سنة ١٥٨١ ، لما عقد الشعب الهولاندي اجتماعاً لبرلمان المؤلف من ممثلي الطبقة الوسطى في المدن ، وروساء الدين والاشراف . فلما لبث ان استقل ممثلو الطبقة الوسطى بالرأي وخلعوا ملكهم فيليب الثاني الاسباني ، واعلنوا استقلالهم في شكل « جمهورية البلدان السبعة المنخفضة » وكانت لهم حجة جديدة مبدئية ، مقابل حجة « الحق الالهي » ، نقول : « ان الملك نقض ميثاقه ، فالملك يطرده من وظيفته كخادم غير أمين . »

(٧) نذكر امثال « لافونتين » بكليلة ودمنة التي نقلها ابن المقفع ايام الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور ، وقد نقلت الى اللغة الفرنسية في القرون الوسطى ، من الاندلس العربية ، فاطلع عليها « لافونتين » بشهادته واعترافه . ولا شك انه تأثر باللويا وطريقها الرمزية في النقد السياسي والاجتماعي . والواقع ان محتوى كليلة ودمنة الثوري لم يبحث بمد بحثاً يستحق الذكر . الا انه ظاهر ملموس في امثال « كسئل الذيل والفجرة » و « الارنب والاسد » و « الملك والطائر فترة » .

ولكننا اذا رحننا نتأمل التيار الثوري الفكري ، في القرن السابع عشر في فرنسا ، لم نجد لافونتين منعماً فيه انغمساً صريحاً ، وكان حتماً علينا ان ندير النظر شطر طائفة من الادباء والمفكرين يمثلها لابرويير وفنيولون .

كان لابرويير في ملاحظاته واحكامه الخلقية يرى في الناس فريقين : الشعب ، والعظماء . (بمعنى النفوذ والوجاهة في المجتمع) . « اما الشعب فلم باطن طيب (جوهر صالح) وليس لهم مظهر البتة . واما العظماء فليس لهم الا الخارج ، الا المظهر وقشرة بسيطة . أيجب الاختيار ؟ انني لا اوازن . انني اريد ان اكون شعباً ، » (اي من الشعب) .

وكان الاديب الراهب فنيولون مثلاً رائعاً من امثال الجرأة الفكرية . وفي المؤلفات التي انشأها تهذيباً للدوق دو بورغون ، ولا سيما في محاورات الاموات « Dialogues des Morts » تبدر على سن قلمه بدرات عجيبة لم تلبث ان ابدتها الوقائع في حياة فرنسا السياسية والاجتماعية . ففي فصل الحوار بين سولون وبيزسترات (وكلاهما رجل دولة اغريقي) يقرر فنيولون ان الاستبداد غالباً ما يكون على الملوك اشد وبلاً منه على الشعوب . وفي كتابه : « الواح شولن » « Tables de Chaulnes » يطالب - في احدى مواد البند الثاني - مطالبة صريحة بتأسيس المجالس العامة « Etats Généraux » هذه المجالس التي كان اجتماعها في باريس سنة ١٧٨٩ فاتحة المرحلة الثورية العظيمة . وله رسالة وجهها الى لويس الرابع عشر بلغت غاية في الجرأة والصراحة ، وشجبت سلوك هذا العاهل الذي صاح : « انا الدولة ! » وانفق ما انفق في المغامرات الحربية وشيد بلاط فرساي الرائع ، ولكن كأنه جعله واجهة براق لدولة تتأزم مشاكلها ، ولشعب يتملل ويتجم . قال فنيولون في رسالته : « ان الشعب نفسه (ينبغي ان اضرح لك بكل شي .) ، هذا الشعب الذي احبك كثيراً ، ووثق بك كثيراً ، اخذ الان يفقد حبه وثقته واحترامه ، حتى احترامه لك . . . انه ممتلئ مرارة وبأساً ، والشقاق يشب شيئاً فشيئاً من كل ناحية . ان الشعب يعتقد انك لا تحب غير ساطنتك ومجدك ، فهم يقولون : لو كان للملك قلب الارب على شعبه ، اما كان يؤثر ان يستخدم مجده في اعطائهم خبزاً وتنفيس

كربتهم بعد هذا الاذى الكثير ؟ ... فما جواب ذلك ايها السيد ؟ » ثم يذكر فنيانون اعمال العصيان التي طفق الشعب يقوم بها ، الى أن يقول له : « فانت الان قد انخططت الى هذه النهاية المميتة المحزنة ، فاما ان تدع العصيان وشأنه لا تعاقب عليه ، واما ان تريدته وتقويه بتغاضيك عنه ، واما ان تجزء بقسوة شعباً طرحتهم مطرح اليأس اذ تزعت منهم ، عن طريق الضرائب لهذه الحرب ، خيراً يسعون الى احرازه بعرق جباههم ! »

وفي فنيانون نجد مبدأ اعتبار العقل والرجوع اليه في الاحكام دسرياً واضحاً . يقول الراهب المفكر : « انا في هذا العالم لا ادري من اين جئت ولا كيف وقعت هنا . ولا ادري اين امضي . وبعضهم يحدثني عن امور كثيرة ويعرضها عليّ باعتبارها غير قابلة للنقاش . ولكنني مصمم على الشك فيها بل على رفضها ما لم اجد انها تستحق ايماني بها . ومنفعة العقل الصحيحة - العقل الذي وهب لي - هي ان لا اؤمن بشيء ما لم اعرف سبب ايماني به . »

ولكن بيير بايل « Pierre Bayle » يخطط بنا خطوة اخرى الى امام في طريق الانعتاق الفكري ، ووسيلته الى ذلك كثرة الشك والتساؤل وتقليب القضايا على محتملات وجوها ^(١) . واذا لزمنا ان نجعل المذهب العقلي ونهضته في اوروبا

٨ (في كتاب الحيوان للمخاطب : قيل لمصلحة احد العرب : ما اكثر شكك ! فقال : همادة عن اليقين . والشك في اسلوب التفكير العلمي ضرورة لا بد منها . وللغزالي كلمة في الشك تذكر ببائل وبديكرت . قال الامام : « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر بقي في الخيرة والعمى ! » على ان الغزالي ادى هذا الاعتراف والمديح للشك ، ثم ألف « مخافت الفلاسفة » الذي رد عليه ابن رشد بـ « مخافت الثقات » . والذي يراه بعض ان الغزالي انما آثر التسليم والتصديق خوفاً من عواقب الشك على العامة وسدا لموضوع لا ينتمي فيه الاخذ والرد العقليان . الا ان الغزالي ترك لديه فسحة لما سماه « المضنون به » على غير امله . والحقيقة ان كثيرين من المفكرين من الغزالي الى فولتير ، مثلاً ، كانوا يخافون على العامة الدخول في قضايا فكرية خطيرة كاللعب بالسلاح الناري . وفولتير هو الغائل للمفكرين : « تفلسفوا فيما ينسكم ما طاب لكم ... ولكن احذروا من ان تقوموا بالعزف امام الجماعة البهيمية السوقيين ... فقد يكسرون آلائكم على رؤوسكم » . وهذا الخوف الذي تلقاه عند بعض الادباء ، من اشتراك العامة في الافكار الخاصة ، انما هو نتيجة لغة

الحديثة ، مديناً لبضعة مفكرين كديكارت وامثاله ، فبيير بابل احدهم . وفيه يقول برونثير الناقد الفرنسي الشهير : في فرنسا وانكلترا والمانيا ، وفي اوروبا كلها ٠٠٠ حيثما بدأ الناس يشكون ، تخرج من مدرسة بابل جيلان او ثلاثة من الكتاب . وكان كلا . من . وونتسكيو وفولتير وديدرو وروسو وهلفشيوس - عدا آخرين اقل شأناً من هؤلاء . - تلقنوا في كتاباته ان يقرأوا ويحاكموا ويفكروا .

واهم ما انتجته هذا الاستاذ الواسع العميق ، من اساتذة الفكر ، قاموس تاريخي انتقادي . ويمكن القول ان جميع نشاطه الفكري ينتهي الى تقرير حق العقل ، وحق الضمير ، في البحث الحر والرأي المستقل . وقد حُص هذا المبدأ في قوله : لنا حق لا يقصى عنا هو : حق اعلان المذاهب التي نعتقدنا موافقة للحقيقة المجردة ، وفي قوله ايضاً : اعظم المحاكم التي هي المرجع الاخير - لا استئناف منها الى غيرها ! - محكمة العقل الذي يقول مهتدياً بالبدييات الصادرة عن نور الطبيعة .

ويلاحظ القارى ان بابل بدأ يتحدث عن « حقنا الذي لا يقصى عنا » « Droit Inaliénable » وعن « البدبييات الصادرة عن نور الطبيعة » ، وهي تعابير وافكار نلتقي بها لدى مفكري الثورة ، بل في نصوص الثورة نفسها .

الثقة ، واثر للخوف من معاني تلك الافكار ومراميها اذا دفعت الى غاياتها في عالم الواقع . ولهذا هتف فولتير : الله دركي ! Dieu est un gendarme . اما المواضيع التي لا يتنهي فيها الاخذ والرد العقليان فقد عمد فيها بيير بابل الى « تسوية » كأنه قسم بموجبها عالم المعارف الى جزئين : فجزء يستطيع ان يتناول العلم بالمعرفة البغيضة - وهو المجال الذي يجوز فيه بل يجب استعمال العقل - ، وجزء يستعصي على الباحث الوصول فيه الى بث علمي ، فالاجدر بالعقل ان يتنهي عنه الى المواضيع التي يشر فيها نشاطه . وعلى هذا يقول بابل : يمكننا تشبيه الفلسفة بالمساحيق الاكالة التي تكشف اللحم المصاب ، ثم تمتد الى اللحم الحلي ، ثم تضرب العظم وتحرقه حتى يذوب . . . الفلسفة اذا تركناها تسترسل مع هواها وتحيلها اوغلت في البعد حتى لم ندر اين هي ، ولم نجد مقعداً تقعد عليه . وهذا يذكر بقول الخوارزمي . « اذا تقبعت الامور كلها فسدت عليك . » ويتابع بيير بابل منهجه فيقول لفريق العقليين : « لا تحاولوا ان تنهسوا النواض الدببية . » ثم يقول للفريق الاخر : « اذا دخلتم في اسباب مفصلة ، تفقدوها بشأن المفائد ، فانكم في ضاية الامر ، بعد ألف خصومة وشحان ، تضطرون ان تتعلموا بسببكم الاصلي » (يقصد السلطة المسلم لها) .

ويكفيها هذا القدر من القرن السابع عشر وادبائه ومفكريه ، فلننتقل الى القرن الثامن عشر وهو الموسوم بـ «عصر الانوار» و «الاستنارة»^(١) والعصر الذي وقعت الثورة في اوائل ربيع الاخير وملأت منه هذا الربع كله تقريباً وجعلته في نظر الفكر العالمي ، وفي تقدير التاريخ ، عصرأ فرنسياً على الاعم الاغاب . وتطالعنا في خلال هذا القرن ستة وجوه رئيسية : مونتسكيو وديدرو وفولتير وروسو وهلفثيوس ودولباخ .

اما مونتسكيو صاحب «روح القوانين» و «الرسائل الفارسية» فهو الذي حاول ان يكتشف في التاريخ عوامل اساسية تجعل من حوادثه ظاهرات مفهومة ، لا صدفاً واتفاقات . فهو من هذا القليل شبيه بابن خلدون في مقدمته . ويتصف مونتسكيو بكثرة الرجوع الى اثر العامل الجغرافي في التاريخ . على ان توسيع البحث في هذا المضمار يخرج بنا عن القصد . وحسبنا ان هذا المفكر الفرنسي نظر الى التاريخ نظرة عقلية ورده الى عوامل من البشر ومحيطهم لا الى اسباب خارجة ، والى العقل الانساني رد الشرائع والقوانين باعتبارها مظهرأ من مظاهر التاريخ ، قال :

« القانون ، بوجه عام ، هو العقل البشري ، ما دام العقل هو الذي يحكم شعوب الارض جميعاً . والقوانين السياسية والمدنية - فيما يتعلق بكل امة - يجب ان لا تكون الا الحالات الخاصة التي يقع فيها تطبيق العقل البشري . »

ثم يقسم مونتسكيو القوانين الى نوعين :

- ١ - تلك التي ترتب نظام الدولة كعلاقة المواطنين بالسلطات وعلاقة السلطات المختلفة بعضها ببعض (وهو ما نسميه الدستور او القانون الاساسي) .
- ٢ - القوانين المدنية التي تكسرف على علاقة المواطنين بعضهم ببعض (وهي ما نسميه الحقوق المدنية والجنائية) .

اما السلطات المختلفة في الدولة فهي ثلاث :

اولاً - السلطة التشريعية .

(١) سمي بالفرنسية : « Siècle des Lumières » ، وبالانكليزية : « Century of Light » وباللألمانية : « Aufklärung » .

ثانياً - السلطة التنفيذية ، التي تجري الامور المتعلقة بحق الناس .
 ثالثاً - السلطة التنفيذية ، التي تجري الامور المتعلقة بالحق المدني .
 وواضح ما كان لهذا التقسيم من اثر في التصميم الذي اختطه رجال الثورة الكبرى في الدولة الفرنسية ، بل واضح ما في هذا التقسيم من اثر بارز الى اليوم في بناء الدول . ولكن السلطة التنفيذية (رقم ٣) اصبحت في تعبيرنا تسمى السلطة القضائية . ويقول مونتسكيو ان هذه السلطات الثلاث يجب ان تستقل احداها عن الاخرى ، اذا كان المراد توطيد الحرية (١٠) .

ويشيد مونتسكيو بالمساواة ، ولكنه لا يقصد بها انتفاء الحكم . « فالمساواة الصحيحة لا تستهدف ان يخلو الانسان من امر بل تستهدف ان يكون امره مساوياً له . » و « الناس في الحكومة الجمهورية متساوون ، وكذلك هم في الحكومة المنيعة . في الاولى هم متساوون لانهم كل شيء ، وفي الثانية هم متساوون لانهم ليسوا شيئاً . » ومع هذا فلم يكن مونتسكيو جمهورياً بل كان اميل الى حكم الملكية المقيدة (اي : الدستورية) .

ويلقي مونتسكيو على عاتق الدولة واجب النظر في تأمين راحة رعاياها الاقتصادية فيقول :

« ان بعض الصدقات التي نتكرم بها على رجل عار في الشارع لا تفني عن واجبات الدولة التي يلزمها ان تجعل لكل المواطنين حياة مضمونة : غذاً وكساءً صالحاً ،

١٠ (للكواكي ، في طبائع الاستبداد ، رأي نوره في هذا السدد . يجعل الكواكي الاستبداد يشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ ، لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسؤولين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تنقاضي الحساب ، وهذه افضل الحكومات لو وجدت . وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نعم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النباشين وبناما ودريفوس .

ونوعاً من معيشة لا ينفي الصحة . » غير ان مونتسكيو كان في هذا سابقاً لعصره ولهدف الثورة الفرنسية .

وله في تعريف الحكومة الاستبدادية كلمة رائعة حيث يقول :
« عندما يريد متوحشو لوزيانا قطف الثمار يقطعون الشجرة من اصلها ويتناولون منها ما يريدون ، تلك هي الحكومة الاستبدادية ^(١١) . » ومقصده هو ان الحكومة الاستبدادية لا تنتج ، ولا تعين على الانتاج ، بل تأخذ ما تريد لساعتها ، ولو كان ذلك بطريقة فيها اتلاف المنتج وقطع مصدر الانتاج . وفي هذا راحة تنديد بالسياسة الفجة التي كان ينتهجها البلاط الفرنسي لسد نفقاته وحفظ الموازنة - سياسة شعارها :
كلما احتجتم افرضوا على الشعب الضرائب ، واذا اضطررتم فسموها قرضاً شعبياً .
وقد يكون من المفكرين من ينكر على مونتسكيو ثورته وتأثيره الثوري .

وصحيح ان الرجل كان كما اسلفنا اميل الى الملكية المقيدة ، فهو من هذا القبيل معتدل . ثم هو لا ينظر في السياسة الى ناحية المبادئ . وحسب ، بل ينظر ايضاً الى الذين ستطبق عليهم المبادئ . ويحسب الحسابات لمجلة اعتبارات اخرى منها الاقليم والمناخ . ثم هو يعرف الحرية بانها الخضوع للقانون الكامل . وليس في هذا كله ما يلقي ثورته وتأثيره الثوري . فالاعتقاد بالملكية الدستورية كان مذهباً انقلابياً خطراً في فرنسا يوم ذاك . وأوجه اعلام الثورة الفرنسية ، في مفتتح شأنها ، كيرابو وبارثاف وسياس كانوا ملكيين دستوريين ، بل ان الثورة نفسها في اول عهدها لم تكن تستهدف اعلان الجمهورية والغاء الملكية . وتقسيم النظر بين المبادئ ، والذين ستطبق عليهم ، يزيد في قيمة مونتسكيو العلمية ولا يعارض ثورته . اما رأيه في الحرية انها الخضوع للقانون الكامل فعزاه يتوقف على المقصود بالقانون الكامل . ومهما

(١١) نذكر هذه الكلمة بقول منسوب في الكتب العربية الى كسري انو شروان :
مثل الملك الذي يال من شعبه لنفسه مثل من يخرب الاساس في سبل سفك البيت . وقد ذاعت لمونتسكيو شهرة كبيرة في البلاد العربية . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب قلعة لوفل نعمة الله نوفل الضرابسي نقلها عن كتابه « زبدة الصحائف في سياحة المعارف » وهي تدور حول نخبة من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر ومنهم مونتسكيو .
فراجعها . . .

يكن من شيء. فان مونتسكيو لم يعن به القانون الاستبدادي . اما القانون ، أصلاً ، والرضوخ له فهذا ما لا يشك عاقل في انه شرط من شروط الحرية ووقايتها . ومع ذلك فيجوز لنا القول ان مونتسكيو لما عرّف الحرية بأنها الخضوع للقانون الكامل ، نبي عنصراً لا بد منه للحرية هو : ضرورة اشتراك الذين يطيعون القوانين في وضعها ^(١٢) .

ومن مونتسكيو ينتقل بنا الحديث الى فولتير ، ملك القرن الثامن عشر غير المتوج ، كما لقب ، والعاقل الذي ليس له صولجان ، ولكن له يراع ، كما قال هو عن نفسه لفردريك الكبير البروسي .

قد يكون فولتير غير عميق ، وقد يكون قليل الثقة بجهايز الشعب . على ان سعة الآفاق التي تناوها وسخره اللادع وشككه واحتكامه الى العقل وحماسه للعلم وعناده في المقارعة وتوجيهاته الجديدة في بعض المواضيع ^(١٣) ودفاعه عن حرية الرأي كل ذلك مضافاً الى قلم من أصفى الاقلام واخصبها ، واسلوب من اقرب الاساليب الى الشعب ، جعله في طبيعة الاعلام الذين ايقظوا النفوس والاذهان وبعثوا فيها الحرارة لاستقبال عاصفة الثورة ولفتحها الحار .

اضحك فولتير فرنسا واوروباً على الدعوى والسفافة والتعصب والتذرع بحجة المناصب والمقامات ، واغضب فولتير فرنسا واوروباً على جميع هذه العاهات والآفات . كان اذا باع وكيل الخرج في بلاط لويس الرابع عشر نصف الخيول من اسطبلات الملك يصيح : كم كان اقرب الى المعقول لو صرف نصف الخيول الذين يعرج بهم البلاط الملكي ! فكان الفرنسيون يقهقون بالطبع ، ثم لا يلبثون ان يتأملوا بذخ البلاط ^(١٤) . سيري القارى . كيف تعد ادب اسحاق توميسكيو للحرية .

(١٣) ولا سيما فن التاريخ . واشهر آثار فولتير في هذا الباب تاريخ شارل الثاني عشر (الاسوجي) . وفي المقدمة المعنونة « Le Discours » يقول فولتير : « اذا وجد امراء او وزراء في هذا الكتاب ، حقائق مزعجة ، فليعلموا انهم لما كانوا رجالاً يعنون بشؤون العامة ، فللعامة الحق في محاسبتهم على اعمالهم . فبهذا التشن بشعرون العظيمة . والتاريخ مودى شهادة وليس مباحاً . والطريقة الوحيدة لحمل الناس على ان يقولوا فينا خيراً هي ان نسل الخير : »

ويستنكروه ويسخطوا عليه .

ولا ريب ان هذا الساخر (الفج احياناً) كان شديد الخبث والنعومة ايضاً ، فكان يستغلق على سامعه تمييز عبثه من جدّه وقدره من مدحه . وقد نفث خبثه على كثيرين ، منهم (المسكين) « Fréron » الذي حكى عنه فولتير ان الحية لدغته فماتت ، فلم يعرف أماتت الحية لقداسة الملدوغ ام لأن سمّه اسرى وافتك من سمها ^(١٤) .

ولعل اول سؤال ينبغي لقارى فولتير ان يسأله : هل الرجل جادّ في كلامه ام عابث ؟ وسيرى انه كثيراً ما يكون صاحب جد عظيم فينظر الى الشعب « يسبح الله ويرقص حول الجزار » ويستمع « الى الانسان يصرخ بجاره : فكّر كما افكّر يا قليل التقوى والآ قتلتك » ، فيحاول الفيلسوف تعليل ذلك ويقول : السبب اننا خنقنا صوت الطبيعة .

السبب اننا اضعنا الى شريعتها المقدسة شرائع .

السبب ان الانسان - وهو محب لعبوديته البلهاء ، - قد جعل الله على صورته ومثاله من شدة تعصبه !

وفولتير هو صاحب ذلك الابتهاال البليغ الذي زفه الى الله في مطلع رسالته في التسامح .

ومنه : « انك لم تعطنا قلباً لتبأغض ولم تمنحنا الايدي ليخنق بعضنا بعضاً . »
اما الوطن ، « ففي ظل ملك صالح يكون الانسان وطن ، ولكنه في ظل ملك شرير لا وطن له » - هكذا يقول فولتير .

والدين يجب ان يستند الى العقل ، وهذه هي العقيدة الربانية « Déisme » ، عقيدة الكائن الاعظم « L'Etre Suprême » التي نجدها فيما بعد لدى اشهر اعلام

(١٥) لفولتير رسالة الى احد المراجع الدينية العالية يتحدث فيها عن النبي محمد وقد نرى من اجلها مفكران عريان : محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، النجفي والاستاذ توفيق الحكيم ، على فولتير صدق مذهبه في التسامح . على اننا اذا نظرنا الى الرسالة في ضوء آراء فولتير واسلوبه وميله فيها الى المبالغة في التذلل والتفخيم والتعظيم ، اتسع لنا مجال لحمل الرسالة بحمل العبث والتطرف .

الثورة مكسيميليان روبسبير .
وفولتير في الانظمة كونتسكيو أميل الى الملكية الدستورية .
ويؤدي بنا الحديث الى دنيس ديدرو ، فاذا نحن امام الروح المحرك لذلك العمل
العظيم الذي وسع عيضم متلائي . جبين القرن الثامن عشر ، نقصد الانسيكلوبيديا التي
ساهم فيها عدد من اعلام العصر ، ولكن لم يبلغ فيها نشاط احد منهم ما بلغه نشاط
ديدرو وعناده . وكان في فرنسا قانون مطبوعات ، اعلن سنة ١٧٥٧ يهدد بالاعدام كل
كاتب او طابع ينشر كتابا تقضي السلطات ان من شأنه « الاخلال » و « التحريض » .
على ان هذا اخطر ، وجميع الصعوبات الاخرى ، لم توهم غزيرة الرجل . ومن يقرأ له
صرخته الممزقة احتجاجا على تشويه المراقبة لعمله في الانسيكلوبيديا لا يملك ان يرتعش
اعجابا بتلك النفس الكبيرة المعذبة .

بنى ديدرو على العقل ، ولكنه رأى ان التأملات العقلية المنقطعة عن الاختبارات
العملية لا تغني . ولذلك قال : لدينا ثلاث وسائل رئيسية : ملاحظة الطبيعة والتأمل
والتجربة (التطبيق) . اما الملاحظة فتعش (١٥) الحقائق والمظاهر . والتأمل يوفق بينها .
والتجربة تصدر حكما على النتيجة . فالتجربة (التطبيق) الكلمة الفصل في العلم .
وكان ديدرو عميق الشعور بطبيعة عصره الانقلابية ولاسيا فيما يتعلق بالعلوم .
« نحن على عتبة ثورة عظيمة في العلوم . » وامل احدا في فرنسا لم يمثل كما مثل
ديدرو روح الثورة الصناعية الممتدة من الجزر البريطانية الى فرنسا ، عبر القنال .
وكم كان اهتمامه عظيما بالآلات . كان كفرنسيس باكون الانكليزي يحس بما سيكون
لهذه المستنبطات من اثر يغير طابع الحياة . فكان كثيرا ما يشاهد في حوانيت
النجارين ، وفي شتى اماكن العمل ، يرسم الآلات بقلبه ويسجل اوصافها وخصائصها
ليدخلها في الانسيكلوبيديا .
حقا ان ديدرو كان في ميدان الفكر طليعة صريحة للطبقة الصناعية النامية في
المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وهي الطبقة التي سنرى انها بدأت فرنسا تبديلا بثورة
سنة ١٧٨٩ .

(١٥) التفهيش هو الالتقاط كيفما اتفق .

وكانت ثورته حادة في جميع الآفاق التي تناولها بتفكيره . وبينما نجد أحياناً في قراءة فولتير مجرد دعوة الى الضحك على آفات الاوضاع القائمة ، فاننا لنحس ابداً في ديدرو دعوة الى العمل .

وقد لا يختلف مضمون آرائه السياسية والدينية واتجاهاته الاجتماعية عن فولتير ، مثلاً ، فهو في النتيجة يشجب الملكية المطلقة ويطالب بتقييدها ويفضل العقيدة الربانية « Déisme » - ان كان يفضل - ولا يسمى مواطناً الا الذي يملك ملكاً في الوطن ^(١٦) . غير ان ديدرو احدى سكيناً من فولتير واشد توغلاً في التشريح والتشهير وربما وضع فولتير سكينه على الضحية ، فشعرت بمس الحديد البارد واقشعرت قليلاً ولكن الامر انتهى بنجدش بسيط . على ان ديدرو لا يضع سكينه الا ليدهمي .

وبعد ديدرو هلفشيوس صاحب كتاب « في الروح » « De l'Esprit » . وان القارىء ليصادف عنده افكاراً وتعايير يصادفها هي بذاتها في الثورة الكبرى . يثق هلفشيوس ثقة قوية بفضيلة الشعب والانسان . ويعتقد ان شرور الشعب ترجع جذورها الى القوانين ، فهناك ينبغي للعالم ان يحفر كي يكشف عن شرور الشعب . . . والشارع الصالح هو الذي ينشئ . المواطن الصالح . وبالقوانين الفاضلة ، وحسب ، يمكن انشاء رجال افاضل .

وهكذا يعلق هلفشيوس اهمية كبرى على صلاحية القوانين ، ولكن نظريته الشاملة مبنية اصلاً على قاعدة من التربية الصالحة . يقول : « اذا استطعت ان ادل ان الانسان ليس في الواقع الا نتيجة التربية فاكون بلا شك قد اعلنت حقيقة عظيمة للامم . » ويتساءل : « من يستطيع ان يشك شكاً جازماً بان فروق التربية ليست هي التي تنتج الفروق التي نجدها في العقول ؟ من يستطيع ان يتأكد من ان الناس ليسوا كالاشجار التي هي من فصيلة واحدة ، بذرتها البذرة نفسها ، ولكنها لما كانت لا تزرع في التربة نفسها ، ولا تعرض للرياح نفسها ، ولا لشمس نفسها ، ولا للمطر نفسه ، فقد لزمها في النشأة

(١٦) وقد وافق هذا الذين وضعوا اول دستور لفرنسا فحصروا حق الانتخاب والتصويت ، باصحاب الاملاك ودافعي الضرائب .

والنمو ان تتشكل بعدد لا نهاية له من الاشكال .
ولا ريب ان هذا رأي فيه كثير من المفالة . ولو فرضنا من الممكن ان يصبح
الناس بالتربية نسخا بعضها طبق بعض كما قد يشير كلام هلفثيوس لكان ذلك شيئا
مستكرها . على ان هلفثيوس اعلن عقيدة ثورية بعيدة المرمى اذ قل : « ان استنتاجي
العام هو ان العبقريّة عامة » ، فنسف بذلك رأياً يقول بان العبقريّة وقف على عرق من
الناس او فئات خاصة من المجتمع ، وقوى الثقة بكفاءات الشعب والانسان ، وجاءت
حوادث الثورة مؤيدة له ومحيرة افهام الكثيرين ممن كانوا يزعمون ان الجيش الفرنسي
الثوري لا يجدي فتيلاً ما دام افضل ضباطه وقواده هاجروا او طردوا او اعدموا ،
فلم يلبث هذا الجيش ان اتى باعمال عسكرية ادهشت اوروبا ، بقيادة قواد برزوا من
اعماق الشعب كهوش ونابليون نفسه !

ويقودنا هلفثيوس الى « هولباخ » « Baron d'Holbach » البارون المجري الذي
اكتسب الجنسية الفرنسية واصبحت له ندوة منزلية^(١٧) تفقت فيها الجدالات والعقول
عن مبادئ كان لها اثرها في تمهيد السبيل الى الثورة . واشهر مخلفات « هولباخ »
كتابه : « نظام الطبيعة » « Systeme de la Nature » الذي قطع فيه بضرورة انصراف
الانسان^(١٨) وراء الكون الى الكون نفسه . « ان الانسان موجود في الطبيعة وهو
مطوّع لقوانينها لا يستطيع ان يعتق منها ذاته . وعشاً بصر عقله على الوثوب
الى ما وراء العالم المشهود . ان ضرورة قاهرة ابدأ تشده الى الرجوع . »

وفي ميدان السياسة والاجتماع يطالب « هولباخ » بالحرية ، ويحدد « بانها قدرة
الانسان على اتخاذ التدابير التي تؤمن له وجوداً حسناً » . ولا ضمانة للحرية ، في
رأيه ، الا بالقوانين التي « تحمي الجميع حماية متساوية : الاغنياء والفقراء ، العظماء
والصغار ، الملوكة والرعايا » . وهكذا يضع « هولباخ » سلطة القوانين فوق سلطة
الجميع حتى الملوكة . واذا ذكرنا ان لويس السادس عشر ، مثلاً ، كان يقول مبرأً
عن رأي الملوكة الاوتوقراطيين : لي وحدي سلطة التشريع دون اعتماد على غيري او

(١٧) كان للندوات « Salons » من اديبة وفكرية ، اثر كبير في البهظة العقلية
الفرنسية ، في القرن الثامن عشر .

معاونة - ومعنى هذا انه فوق القوانين لانه يغيرها ساعة يشاء . ما دامت سلطة التشريع منحصرة فيه - اجل ، اذا ذكرنا هذا عرفنا ان مبدأ « هولباخ » في جعل القوانين فوق الجميع ، حتى الملوك ، كان مبدأ ثوريا . وكذلك قوله : الحرية ان لا يطيع الانسان الا القوانين ، كان رأياً ثورياً لانه يعرض فيه باصحاب العروش الذين يرون الطاعة واجبة لمطابق اشخاصهم^(١٨) .

اما صيغة هذه القوانين فتشتق من طبيعة السياسة العامة . والسياسة العامة ، في نظره ، يجب ان تكون فن تنظيم ميول الانسان وتوجيهها الى انعاش المجتمع ، والى تيار عام من السعادة . انها يجب ان تنظم عواطف الانسان لتجعلها تنسلك انسلاكا لطيفا من اجل نفع الجميع منفعة عامة .

فينتج من هذا ان القوانين ينبغي لها ان تكون في مصلحة المجموع ، لا في مصلحة ذوي المقامات وحدهم .

وهنا يذهب بنا الكلام الى جان جاك روسو وهو اشد المفكرين صلة بالانقلاب الفرنسي الكبير ، وقد يلقب كتابه العقد الاجتماعي بانجيل الثورة . وكان روبسبير من تلاميذه المتسكين به . وكان « ماراه » الزعيم الشعبي يقرأ منه صفحات للجماهير في شوارع باريس .

وربما لم يكن روسو مبتكراً في كل ما جاء به ، فان هوبز المفكر الانكليزي في القرن السابع عشر وصاحب كتاب الليفيثان « Leviathan » يعتبر سابقاً له في البناء على نظريتي العقد الاجتماعي والحالة الطبيعية . ولكن هوبز - عدا فروق ثانوية اخرى - سخر النظريتين خدمة الملكية المطلقة ، بينما سخرهما روسو خدمة الحكم الدستوري بحق الثورة . ولذلك يعتبر المفكر الانكليزي الآخر ، جون لوك ، بين

(١٨) ونرى ان بوادر التنبه الثوري ، في الامبراطورية العثمانية ، اتخذت أيضاً شكل الدعوة الى مراعاة القوانين بذاتها مجردة عن اشخاص الملوك ورغائب الموظفين . فكلمة استقلال منحت باشا من نظارة العدلية أيام السلطان عبد العزيز كتب في استقالته ما يلي : « ان الدولة لا تدار بقانون ، فكل ناظر يريد ادارة الامور كما شاء وشامت اغراضه ، ولذا فان الامور السياسية والادارية قد اختلت وخرجت المنظمات العسكرية عن السراط السوي . »

سابقى روسو فى القرن الثامن عشر . والاتفاق الفكرى السياسى بين روسو ولوك عظيم ، الا ان لوك استهدف الملكية الدستورية ، بينما استهدف روسو الجمهورية . ولعل ابرز ما امتاز به جان جاك روسو قدرته على حمل آرائه ومبادئه الى صفوف الجماهير . وكان غيره ظل يفكر فى نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من النخبة المختارة بينما استطاع روسو ان يترك اعماق الشعب ويجعل من مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتاب القلائل الذين ترن كلماتهم برنة الصدق ، ويشعر القارىء لدى مطالعتهم انهم ، اذ يدعونه الى التفكير ، يدعونه الى العمل ايضاً .

يرجع روسو فى فلسفته السياسية الى العهد الذى يسميه الحالة الطبيعية ، وهو يرى ان الانسان فى هذا العهد - الانسان الفطرى - كان حالاً ، وكان خلواً من شوائب العاهات التى حلت به فيما بعد . فروسو يعتقد ان الفطرة الانسانية فطرة خير ، وان الناس فى الحالة الطبيعية كانوا على مستوى يقارب المثل الاعلى ، وكان لكل منهم حقوق مضمونة مقدسة تعرف بالحقوق الطبيعية « Droits Naturels » ^(١) . فكيف تقهر الانسان الى الحالة التى شاهده عليها روسو فى المجتمع ؟ وكيف يمكننا ان نتلافى الشر ونصعد بالخلق الادمى الى حيث هيأته كفاءاته الاصلية ؟ يقول روسو ان الانسان لما حاد عن طريق « الحالة الطبيعية » اصاب بالانحطاط . وهذا طبعاً لا يعنى ان الفيلسوف الفرنسى قصد فعلاً ان يعود الانسان الى وضعه فى

(١٩) واضح ان هذه النروض التى يفرضها روسو عن الانسان الاول لا تطابق الحقيقة التاريخية . والغالب على الاذهان ان رأي هوبز فى « الحالة الطبيعية » هو الاصح ، تاريخياً ، اذ كانت تطفئ على علائق البشر قاعدة : « الانسان ذئب على الانسان » « homo Homine lupus » وتاموس « حرب الجميع على الجميع » « Bellum omnium contra omnes » . ولكن كما ان فروض روسو بعيدة عن الصحة التاريخية ، فأراء هوبز تغفل ايضاً عن جانب التعاون بين الناس حتى فى تلك الازمنة السحيقة . فالتنازع لم يكن فى وقت هو وحده الغالب على الهيئة البشرية ، بل ان التعاون ليفزوا التنازع نفسه ، فلا بد لكل تنازع من تعاون ولو على صعيد محصور فى نطاق احدى الهيئات المتنازعة . وغنى عن البيان بعد هذا ان روسو لما فرض فروضه لم يكن يتوخى كتابة التاريخ بل انشاء مذهب سياسى فلا يجوز مناقشته على اساس الصحة التاريخية وحدها .

فجر التاريخ . وفولتير لما كتب الى روسو رسالته الشهيرة ينبئه فيها انه شوقه الى « الديب على الاربع » شأن الحيراثات ، انما انساق بدافع نكتة موفقة . وخلاصة ما ذهب اليه روسو هو ان الانسان بذرة صالحة في الطبيعة ، فاذا وافقها عناية صالحة وجو صالح ، غمت غواً اقرب الى شروط الكمال والفضيلة . ولذلك اهتم روسو اهتمامه العظيم بالتربية من جهة ، وبنظام الحكم من جهة اخرى ، فالف كتابيه الخالدين « اميل » و « العقد الاجتماعي » .

وفي العقد الاجتماعي ، وهو الكتاب الذي يس صميم موضوعنا ، يقول روسو : ان الناس اذ يخرجون ، او يضطرون الى الخروج ، من الحالة الطبيعية بفعل تقدم التاريخ ، يتعافدون على ان يتنازل كل منهم عن امتيازات الحياة التي يتمتع بها في تلك الحالة . ولكنهم لا يتنازلون هذا التنازل الا لان هذا التعاقد يضمن لهم في حالة الحياة الجديدة حقوقاً لا غنى لهم عنها ولا قيمة للاجتماع الا بها . وفي طليعة هذه الحقوق الحرية . والحرية في نظر روسو ليست الانسياق لتزوات العاطفة فتلك هي العبودية . بل ليست الحرية الطاعة للقانون ، كما يعتقد مونتسكيو ، ولكنها الطاعة للقانون الذي نسنه لانفسنا ، اي نسنه الاكثرية .

فنظرية العقد الاجتماعي تتلخص بأنها التقيد بارادة الاكثرية التي يسفر عنها التصويت الديمقراطي الطليق . ويفرق روسو تفريقاً هاماً بين ارادتين : ارادة الجميع « Volonté de tous » ، وهي عبارة ثانية ارادة الاكثرية التي يكشف عنها الاقتراع الديمقراطي ، ثم الارادة العامة « Volonté générale » وهي التي تعبر عن مصلحة المجتمع وتعمل في سبيل هذه المصلحة . ولا ينبغي روسو ان ارادة الجميع - اي : ارادة الاكثرية - قد لا تطابق الارادة العامة ، اي : مصلحة المجتمع . على انه وطيد الثقة بان الاكثرية اذا سلحت تربيتهم عرفوا مصلحة المجتمع فافترعوا له . ومن هنا كان روسو ، وجميع الديمقراطيين الكبار ، يعلقون اهمية عظيمة على ضرورة تربية المواطنين . فيقول « ماراه » وهو احد المنطبعين بطابع روسو الى حد بعيد : لا بد للشعب كي يتمتع بحقوقه من ان يعرفها ، وهكذا نشأت ضرورة تثقيفه ، ولا بد له كي لا يقع في الشرك التي تنصب له من ان يراها ، وهكذا

نشأت ضرورة تنويره^(٢٠).

أما موئل السيادة في نظر روسو فهو الإرادة العامة، وبمقدار ما تمثل الحكومة التي تنبثق من إرادة الجميع (أي: إرادة الأكثرية) مشيئة الإرادة العامة تكون الحكومة شرعية موفقة. وللإرادة العامة الحق في استرداد الثقة من كل حكومة لا تمثلها كما يجب. وهذا الاسترداد للثقة يجوز عند الضرورة أن يتخذ صيغة الثورة.

« إن المواطنين بالقوة التنفيذية ليسوا أسياد الشعب ولكنهم خدامه. ويستطيع الشعب الذي ينصبهم أن يسقطهم كلما شاء. » « لا ملك بعد اليوم، الشعب وحده هو السيد! » وفي هذا القدر ما يكفيننا من روسو^(٢١).

ولا بد لنا قبل اختتام الفصل من أن نلتفت إلى مدرسة فكرية كان لها أثرها العميق في هذا القرن، وهي المدرسة الاقتصادية « L'École des Économistes »، وقد انصرف اعلامها إلى البحث في ثروة الأمة. وهكذا نهضت بذور العلم الذي نسميه اليوم بالاقتصاد السياسي. واحتدم الجدل حول مصدر الثروة. فقال كسناي (١٦٩٤ - ١٧٧٣) : إن ثروة الأمة بزراعتها، والانتاج الزراعي هو وحده الانتاج الحقيقي. وطالب بناية الدولة بالزراعة فوق كل شيء. ويعرف كسناي بزعم فرقة الطبيعيين « Physiocrates » من الاقتصاديين. وخالفه غورفاني

٢٠ (من جريدته التي أنشأها خلال الثورة، جريدة « صديق الشعب » L'Ami du « Peuple ». ومفهوم أن الحرية والثقافة هنا، وفي نظر روسو، لا تعنيان محض القراءة والكتابة. وينبغي القول بأن اعلام المفكرين الديمقراطيين يدركون حق الإدراك أن نتيجة التصويت الديمقراطي (ولو كان حراً تريضاً) قد لا تخدم دائماً، المصلحة العامة. ومع ذلك فهم يتمسكون بالديمقراطية، لأن الحكم الذاتي (والديمقراطية هي حكم ذاتي) أفضل من الحكم الصالح، كما يقول السياسي الإنكليزي كامبل بانرمان. وما هذا إلا لأن الحكم الذاتي، إذا أخطأ، كانت أخطاؤه ثماً لتعلم الشعب وتدرجه نحو الحكم الصالح، بينما الحكم الذي يسدر عن سلطة فردية، أو خارجية، سرعان ما ينقلب إلى الفساد ولو اتفق له أن يكون صالحاً في فترة قصيرة موفقة.

٢١ (ليدكر الفارسي. أيضاً إن روسو كان من أتباع « العقيدة الربانية » « Dèisme ». ورأيه في المرأة أنها خلقت لمرة الرجل هو المذهب النظري الذي تعلق به معظم اعلام الثورة، وفي باب النصوص من هذا الكتاب فصل للاستاذ محمد جميل بيهم عن هذا الموضوع.

فذهب الى ان الزراعة على اهميتها ليست مصدر ثروة الامة الاساسي ، بل الصناعة هي المصدر الاهم . وطالب كنف يد الدولة عن التدخل في الشؤون الاقتصادية . وكان شعاره المفضل : « ألقوا الحبل على الغارب ، افسحوا السبيل » *Laissez passer* « *Laissez faire* »^(٢٢) .

ومعنى هذا : انه كان يطالب بالغاء الحواجز والمكوس بين مقاطعة ومقاطعة ، في فرنسا ، كي يتسع المجال للتجارة . ومعناه ، ايضاً ، انه كان يطالب بفض الكوربورايسون^(٢٣) ليصبح العمال احراراً في القاس العمل الذي يريدونه . ومعناه ، كذلك ، انه كان يطالب باطلاق المدى الانتاج وقذف البضائع في الاسواق ، لان « قانون العرض والطلب » كفيل بضبط الامور وتسييرها كما يجب . وواضح ان غورناي كان لسان حال الصناعيين الذين ظهوروا على اثر الثورة الصناعية في اوربا « *Révolution Industrielle* » ، وكانت مبادئه اسبق النظريات الاقتصادية في التعبير عن ارادة الفئات المتقدمة اذذاك . ويعرف غورناي برعيم فرقة البلوتوقراطيين « *Ploutocrates* »^(٢٤) من الاقتصاديين . وقد نفذت الثورة الفرنسية ما اقترحه من اصلاحات ، فالتفت الحواجز والمكوس بين مقاطعات فرنسا ، وفضت الكوربورايسون ، وهيأت الاساس لازدهار نظام الاقتصاد الرأسمالي الحديث .

ويلحق بغورناي وكسناي ، الوزير الشهير ترغو ، الذي حاول التوفيق بين هذين المفكرين الاقتصاديين ، واخرج للملك برنامج اصلاح قبل الثورة لم يوفق الى تنفيذه . ومن المفكرين الفرنسيين الذين لا بد لنا من ذكرهم ، في هذا القرن ، موريآي : مؤلف كتاب « قانون الطبيعة » . وكان بليوف الشاعر الفرنسي ، الذي اشتق نغمة

(٢٢) كان كسناي وغورناي ، من هذا القليل ، متفقين .

(٢٣) الكوربورايسون تقايات عمالية ، على اساس الحرفة ، تختلف عن انتقابات الحديثة بأخا كانت تسيطر سيطرة اجبارية على العمال المنتسبين اليها ، كل عامل يبدأ فيها « متدرجاً » « *Apprenti* » ، فاذا طمخ الى ان يكون معلماً « *Maitre* » وجب عليه أن يبرز شهادة من الكوربورايسون . ولما كان « المعلمون » حريصين على بقاء عددهم قليلاً ، كان انتقال العامل من « متدرج » الى « معلم » صعباً جداً .

(٢٤) البلوتوقراطيون : المليون .

اشتراكية جديدة في الثورة ، أيام حكومة « الادارة » ، يكثر الرجوع اليه ويستقي من آرائه .

ولعلنا ، وقد بلغنا هذا المبلغ من بحث الفكر الفرنسي ، بننا نلمس صحة ما قلناه من ان المفكرين والادباء الفرنسيين افاقوا على المجتمع ، قبل الثورة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فوجدوا ان معظم الفرنسيين من حيث وضعهم في الهيئة والدولة ومسالك السياسة انما هم وسائل لبعض الفرنسيين ، وليسوا غاية كما يحق لهم ان يكونوا . فعمد هؤلاء الادباء والمفكرون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة وتلمس اسباب الفساد ، ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد . وكان لهم من « العقل » مصباح ، ومن « الطبيعة » دعامة يرتكزون عليها . وكان لنشاطهم وتوجيههم اثر بليغ في الثورة ونهضتها . ولقد ادى الثوار سنة ١٧٨٩ واجههم في الاعتراف بفضلهم ، اذ نقشوا بيان حقوق الانسان الخالد وجعلوا في أعلاه عينا معلقة مضيئة هي « عين العقل الرفيعة التي طلعت تبديد سحب الجهالة ! »

مَجَارِي الثَّوَرَةِ إِلَى الشَّرْقِ

كيف اتصلت الثورة الفرنسية بالشرق العربي ؟ واية هي المجاري التي سلكتها ؟
يعرض لنا هذا السؤال ، وفيه ما فيه من اسباب الصعوبة ، لانه لا يزال
موضوعاً غير مطروق ، ولان تعيين الانتقالات الفكرية في التاريخ امر بطبيعته يتعذر
البت فيه . وقد تيسر الانتقالات الفكرية مسالك خفية لا يدركها المؤرخون على
رغم اهميتها ، او هم يدركونها ولكن ادراكاً عاماً غامضاً ، يعوزه التدقيق
وينقصه التفصيل .

ومع ذلك فليس البحث في مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي خلوّاً من
كل اساس ، ولا شك ان ما سنكتبه في هذا الفصل محاولة جدد بدائية تقبل
التحسين والتوسيع فيما بعد .

ان اول مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي - ولعله اعظمها - كان الفتح
النابليوني لمصر سنة ١٧٩٨ ايام حكومة الادارة . وكانت الرجعة النابليونية ، اذ
ذاك ، في اوائلها على انها كانت بارزة الاثر . وقد اذاع نابليون منشوره
الاول على المصريين فتكلم باسم التجار الفرنسيين ، غير انه صدر ايضاً في كلامه عن
بعض مبادئ الثورة فتحدث الى المصريين عن تسلط المماليك واستشارهم باجود الاراضي .
وهذا بعض نص المنشور :

باسم الله الرحمن الرحيم - لا اله الا الله ولا ولد له ولا شريك بملكه .
من طرف الجمهور الفرنسي المبني على اساس الحرية ، والساري عسكر الكبير
يونابرت امير الجيوش الفرنسيات ، يعرف اهالي مصر جميعهم : ان من زمن مديد ،
السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة
الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بانواع الباط والتعدي ، فحذرت الآن ساسة عقوبتهم

وحسرة من مسدت عصور طويلة هذه الزمرة المماليك الجالوبين من جبال الابازا والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء . قد حتم في انقضاء دولتهم . يا ايها المصريين ! قد يقولوا لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه . وقولوا للمفتريين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخالص حقكم من يد الظالمين ، وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساويين عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك ما العقل والفضل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يملكون وحدهم كلها يملكو به - ياء الدنيا ؟ حيثما يوجد ارض مخصصة فهي مخصصة للمماليك . والجواري الجبال والحلال الحبان والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فانكنا الارض المصرية التزام المماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين هو راوفاً وعادلاً على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها . سابقاً في الديار المصرية كانت المدن العظيمة ، والحلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر ، وما زال ذلك الا لطمع وظلم المماليك ...^(١)

وواضح ما في هذا الكلام من صلة متينة ببيادى الثورة وبيان حقوق الانسان^(٢) . ويقول الامير حيدر الشهباني ان اعيان مصر استغربوا هذا « الخطاب المهول والامر المحبول » فقد كان جديداً على الاسماع والافهام .

ولم تستقر قدم نابليون في وادي النيل حتى هيا ديواناً استشارياً من كبار العلماء

(١) نقلنا النص من تاريخ الامير حيدر وحافظنا على لفظه .

(٢) جعلنا تحت الكلام ، الذي يصل ببيادى الثورة ، خطاً .

والتجار، فكان في عمله بذرة، وان تكن طنيفة، من تمرين الامة على الادارة الذاتية .
 هز الفتح النابليوني جو الجلود الذي كان مخيا على مصر، فنهضت فيها بعد ايام
 محمد علي الكبير نهضة سياسية عسكرية، صناعية وثقافية، واخذت من عهد نابليون
 تتجه الميول الثقافية المصرية الى الارتشاف من ينابيع فرنسية، حتى كان زمن محمد علي،
 فقوي الترابط الثقافي بين البلدين وعززته التفاهم السياسي . وانفذ محمد علي باشا البعث
 العلمية، فكانت تلك البعث من اسباب الاطلاع على فرنسا الثائرة والمبادئ
 التحريرية التي حركت شعبها الى انتفاضات جبارة، ثم كانت في مصر تلك القافلة من
 الادباء والمفكرين من رفاة رافع الطهطاوي الى طه حسين اليوم .

ومن حسن الحظ ان احد اعضاء هذه البعث، وهو الطهطاوي، قد ترك لنا كتاباً
 نفيساً عن رحلته الى باريس وما تلقاه فيها من ثقافة، وما شاهده وتأثر به في فرنسا،
 لاسيما عاصمتها العظيمة . واسم الكتاب : تحليل الابرز في تلخيص باريز، او
 الديوان النفيس بايوان باريس . ولا ننالي اذا قلنا ان الطهطاوي مؤلف الكتاب عقل
 من اعق العقول الشرقية العربية، التي ماست الغرب، كما يتجلى في فرنسا، وفهمته
 فهماً واعياً لفضائله وحسناته من وجوه عدة . وصادف عهد الطهطاوي في باريس عهد
 الملك شارل العاشر ووزيره بولنيك . وكانت ملكية شارل العاشر، نظرياً، ملكية
 دستورية مقيدة بالصلك « الشارت » « La Charte » التي تولى العرش على اساسها لويس
 الثامن عشر . ولكن شارل العاشر كان نزاعاً الى الملكية المطلقة، ومن اقواله : انه
 يؤثر ان ينشر الخشب على ان يكون ملكاً من الطراز الانكليزي (اي دستورياً) .
 وكان وزيره بولنيك يستهدف الغا. كل اثر من آثار الثورة الفرنسية الكبرى ويقول :
 غرضنا ان نعيد تنظيم المجتمع، ان نرجع الى الاكليروس نفوذه في الدولة، ونخلق
 ارسقراطية قوية نسيجها بالامتيازات . ولم يتورع شارل العاشر من فض المجلس النيابي
 فأعاد الشعب انتخاب اكثر اعضاءه، ولا سيما الاعضاء الذين عرفوا بمقاومة الملك .
 فأصدر شارل قوانينه المشهورة « Les Ordonnances » بالغا. حرية الصحافة، وفض
 المجلس مرة ثانية، فاندلعت الثورة في باريس سنة ١٨٣٠ وطالت ثلاثة ايام من شهر
 تموز (٢٦ الى ٢٩ منه) وهي الايام المعروفة « بالثلاثة المحيدة » . فسقط شارل

العاشر واقم مكانه الملك لويس فيليب على اساس صك جديد . وقد شهد الطهطاوي ثورة الايام الثلاثة المجيدة ، وهي تعتبر صفحة قالية للشورة الكبرى ، ووصفها وصفاً طريفاً دقيقاً اثبتناه مع النصوص في هذا الكتاب . وعني عناية خاصة بالدستور الفرنسي وسماه تسميته الفرنسية فدعاه الشرطة « La Charte » ، ونقله الى العربية قبل التعديل زمن شارل العاشر ، وبعد التعديل زمن لويس فيليب ^(٦) ، وتحدث عن مجلس النواب الفرنسي ، او المجلسين على الأصح : ديوان « رسل العمالات » الذين « هم وكلاء الوعية المنتخبون » « Les Députés » ، وديوان البير اي اهل المشورة الاولى .

ولم ينس ان يلم بشؤون اخرى تتصل بنظام فرنسا السياسي . وفيما يلي نص الخلاصة التي وضعها الطهطاوي للشرطة ، مع تعليقه عليها ، في اول ملك لويس فيليب : « الفرنساوية مستوون في الاحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والفنا ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا في الاجتماع الانساني والتحضر فقط ، لا في الشريعة ^(٧) . فلذلك كان جميعهم يقبل في المناصب العسكرية والبلدية ، كما انه يعين الدولة من ماله على قدر حاله . وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع

(٣) اشترك الطهطاوي ايضاً في نقل القانون المدني الفرنسي بكامله . ونشطت حركة مصرية قوية لتعريب القوانين الفرنسية عامة . وقد جاء في مقالة الدكتور محمد حسين هيكل ما يلي : « واذا كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد نسرت الى مصر بطريق الحملة النابليونية في سنة ١٧٩٨ ، ومن طريق الشبان المصريين الذين اوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقد انجبت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التي وضعت ايام نابليون ، وعهدت الحكومة الى جماعة من افاضل المترجمين المصريين هذه المهمة . فعرب القانون المدني الفرنسي رفاعة بك رافع ، وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة ، واحمد افندي حلمي ، وعبد السلام افندي احمد . واما قانون المرافعات فعربه ابو السعود افندي ، وحسن افندي فهمي احد مترجمي وزارة الخارجية . وعرب قدري باشا قانون العقوبات . وعرب صالح مجدي بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها ، وطبعت بالمطبعة الاميرية سنة ١٢٨٣ هـ . » (السياسة الاسبوعية ، السبت ١٩ مارس سنة ١٩٢٧ ، المقالة عن محمد قدري باشا) .

(٤) الشريعة ، اصلا في اللغة العربية ، اسم للناوس الديني .

الفكر العربي الحديث ٦

بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا في الصور المذكورة في كتب الاحكام ، ومن قبض على انسان في صورة غير منصوصة في الاحكام يعاقب عقوبة شديدة . ومن الاشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية ان كل انسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ، ويعاقب من تعرض لعابد في عبادته ، ولا يجوز وقف شيء على الكنائس واهدا شيء لها الا باذن صريح من الدولة . وكل فرنساوي له ان يبدي رأيه في مادة السياسات او في مادة الاديان بشرط ان لا يخل بالانتظام المذكور في كتب الاحكام . كل الاملاك على الاطلاق حرم لا تهبك ، فلا يكره انسان ابداً على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط اخذه قبل التخليه ، قيمته ، والمحكمة هي التي تحكم بذلك . كل انسان عليه ان يُعين في حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى انه كل سنة يُجمع اولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لاخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة خدمة العسكرية ثمان سنوات ، وكل فرنساوي عمره ثمانية عشر سنة - وله حقوقه البلدية - يمكنه ان يتطوع ويدخل العسكرية ، ويعافى من العسكرية عدة ائام ؛ الاول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين سنتمتر يعني اربعة اقدام وعشرة برامق ؛ الثاني : اصحاب العلل ؛ الثالث : الابن اكبر الاخوان الايتام من ابيهم وامهم ؛ الرابع : الابن البكري ، او المنفرد ، وابن الابن الاكبر او المنفرد عند فقده ، اذا كانت الام او الجدة لا زوج لها ، او كان ابوه اعمى ، او سنه سبعون سنة ؛ الخامس : البكري احد الاخوين الذين وقعا في قرعة لمئة واحدة ؛ السادس : الاخ الذي اخوه فاضل تحت البندق ، او مات في الخدمة ، او جرح في الحرب . ولو اراد انسان ان ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الحرب ، الا اذا كان الهارب قبض عليه في السنة او مات تحت بندق الفرنساوية . وفي واحد وعشرين في شهر ديسمبر من كل سنة ، كل العساكر التي تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعودة الى محالهم . ولما كان لا يمكن لكل انسان ان يدخل بنفسه في عمل الدولة وكلت الرعية بمقامها عنها في ذلك اربعة وثلاثين وكيلا تبعها الى باريس في المشورة ، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بان يمانعوا عن حقها ويصنعوا ما فيه مصلحة لها . وذلك ان كل

فرنساوي مستكمل للشروط التي منها ان يكون عمره خمسة وعشرين سنة ، له ان يكون ممن له مدخل في انتخاب رسل عمالاته . وكل فرنساوي له ان يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، ويكون موصوفاً بالشروط المذكورة في كتاب الاحكام . وفي كل مأمورية مجمع اختيار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للاقاليم الصغيرة ، ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا . ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر ارباب الانتخاب تطبع وتكتب في الطرق شهراً قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان ان يكتب اعلاماً به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سراً في ورقة يعطيها للرئيس مطوية ، والرئيس يضعها في انا. القرعة ، وديوان رسل العمالات يتجدد اهلها بالكلية ، كل خمس سنوات ، ولا يمكن اخذ الفرد^(١) الا بخلاصة من مشورة الديوانين مقررّة من طرف الملك . يمكن لاهل البلدان ان يرسلوا اهل الديوانين بطرق العرضحال ليشكوا من شيء . او يعرضوا شيئاً نافعاً . القضاة لا ينزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيطانه . والدعاوى تقام جهراً ، وذنوب الجنائيات لا يحكم فيها الا بجحزة جماعة يسمون الجوريين « Les Jurés » . والعقوبة بالقبض على الاموال بطلت . للملك ان يعفو عن المعاقب بالموت وان يخفف العقاب الشديد . على الملك وورثته ان يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بان يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة . ثم انه يطول علينا ذكر الاحكام الشرعية والقانونية المنصوبة عند فرنساوية ، فلنقل ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، انما هي مأخوذة من قوانين آخر غالبا سياسية ، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع . ويقال لها الحقوق فرنساوية ، اي حقوق فرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة . ثم ان بباريس عدة محاكم وفي كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضاة ، وحوله رؤساء وارباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحامون للخصوم ، ونواب عن المحامين وموقع الوقائع .»

وطبيعي ان يتنبه الطهطاوي الى كل هذا ، وهو الشرقي العربي ، الذي يتمس

لوطنه اسلوباً في الحكم يسير عليه ويساير الامم الناهضة في نظام يشترك فيه المواطنون جميعهم ، في حقوق وواجبات مفصلة مضمونة متساوية ، مبدئياً على الاقل .
وقد اشرنا الى ان الطهطاوي عرّب « الشرطة » الاصلية التي ملك لويس الثامن عشر وفاقاً لها ، غب سقوط نابليون النهائي ، وانعقاد مؤتمر فيينا . وكتب الطهطاوي في مقدمة تعريبه لتلك الشرطة :

« فيها امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل . ومعنى الشرطة في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسوّمح فيها فاطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة . فلنذكره لك وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انتقدت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم بناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيها من يشكو ظلماً ابداً ، والعدل اساس العمران . ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكام او في ضده . من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والايامى مفتاح الفقر . والحلم حجاب الآفات . وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما اودعه اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على اجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : ابلغ الاشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من اخلال . وقيل : اذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطاع . ان المولى اذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذره في مخالفته . »

وفي هذا ما يجب ان يستوقفنا لاننا نرى الطهطاوي ، وهو من اعلام مفكرينا الاول ، ينظر الى مبادئ الشرطة ، اي : المبادئ التي استوحيت من الثورة الفرنسية الكبرى ، نظرة اعجاب وتقدير . ولكنه يرى ان اكثرها مما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ^(٦) .

(٦) يقصد من حيث النص الصريح .

ومع ذلك فهو يضرب في تأييدها الحكم العربية وما قصده الا ان يبين ان هذه المبادئ ليست غريبة عنا . فيكرن الطباطاوي قد حاول شيئاً من التوفيق بين تقاليدنا ، والمبادئ التي انبثقت من الثورة الكبرى . وسنجد ان المفكرين قد خطوا خطوات ابعد في التوفيق ، فبينوا ان روح هذه المبادئ تساوي روح كتاب الله وسنة رسوله .

وبعد ان يفرغ الطباطاوي من تعريب الشريعة ، يكتب معلقاً عليها :
« فاذا تأملت رأيت اغلب ما في هذه الشريعة نفيماً ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنسيين ، ولندكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله ، في المادة الاولى : سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يمتسافون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون ، حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الاولى فان لها تسلطاً عظيماً على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير ، بانه العظيم نظراً الى اجراء الاحكام . ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضارية . وما يسمونه الحرية ، ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين ، بحيث لا يجوز احكامهم على انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي ، لا عدل كافي حقيقي ، فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فانه كالايمان الكامل والحلال الصرف .

واما المادة الثانية ^(٧) فانها محض سياسية ، ويمكن ان يقال ان الفرد ونحوها لو

(٧) نص للمادة كما عرجمها الطباطاوي : يعملون من اموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً ليت المال كل انسان على حسب ثروته .

كانت مرتبة في بلاد الاسلام ، كما هي في تلك البلاد ، لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات والفى . والغنيمة لا تقى لبحاجة بيت المال ، او كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها اصل في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم ^(٨) . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عود المالك ، ومدة اقامتي بباريس لم اسمع احداً يشكو من المكوس والفرد والجبايات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة الثالثة ^(٩) فلا ضرر فيها ابداً ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة . مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائماً حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبط كانت تعين لكل انسان صنعة ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لان الابن يحسن عادة ما رأى اياه يفعله عدة مرات يحضرته ، ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضياً صنعة لا يتمنى اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها (انتهى) . ويرد عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة ، والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله . واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ^(١٠) فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . واما المادة الثامنة ^(١١) فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله

(٨) يقصد ابا حنيفة .

(٩) نصها حسب تعريب الطهطاوي : كل واحد منهم متأهل لاخذ اي منصب كان واي رتبة كانت .

(١٠) مواد تتعلق بحرية الشخص الانساني ، وحرية الاعتقاد الديني للجميع (الغرباء ايضاً) .

(١١) تتعلق باطلاق حرية الرأي .

كما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ، الاولى : جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة « Gazette » ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية ، اي : داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، الا انها قد تتضمن اخباراً تشوق نفس الانسان الى العلم بها . على انها ربما تضمنت مسائل عملية جديدة التحقيق ، او تنبيهات مفيدة ، او نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها

ومن فوائدنا ان الانسان اذا فعل فعلاً عظيماً او رديئاً ، وكان من الامور المهمة ، كتبه اهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لتغيب صاحب العمل الطيب ، ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوماً من انسان كتب مظلومه في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر ، واما المادة التاسعة (١٢) فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الانوياء على الضعفاء ، وتعقيبها بما في العابرة (١٣) من باب اللياقة الظاهرة . . . الخ .

وليس في كل هذا الا ما يدل على ان الطهطاوي تأثر بعمق التأثير بما رآه في نظام فرنسا من نتائج ثورتها الكبرى . وله في كتابه « تخلص الابرز » ملاحظات موزعة تدل على تقديره للتفكير الفرنسي المبني على احكام العقل ، وهو التفكير الذي ازهر زهره واثمر ثمره في القرن الثامن عشر في اعلام المفكرين قبل الثورة . والى القارى شيئاً من ملاحظاته : « ان الباريزيين يخصصون من بين كثير من النصارى بذلك العقل

(١٢) تتعلق بجرمة الملكية الخاصة .

(١٣) تتعلق بحق الدولة في التصرف باي ملك من املاك الرعايا ، لغاى تعويض ، اذا

اقتضت ذلك المصلحة العامة .

ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات . وليسوا اسراء التقليد اصلاً ، بل يحبون دائماً معرفة اصل الشيء ، والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم يعرفون ايضاً القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الامور العميقة كل انسان على قدر حاله . فليست العوام في هذه البلاد من قبيل الانعام ، كعوام اكثر البلاد المتجربة . والفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين . واقول هنا : انهم يذكرون خوارق العادات ويعتقدون انه لا يمكن تخلف الامور الطبيعية اصلاً . ان الاديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده ، وان عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسد الاديان ، وان الممالك العامرة تصنع فيها الامور السياسية كالامور الشرعية (١٤) .

غير ان الطهطاوي ، اذ يبلغ به الحديث الى مسألة القضاء والقدر ، يخالف التفكير الفرنسي المبني على احكام العقل . فهو يترك للقضاء والقدر مجاله « وان كان لا ينبغي للانسان ان يحيل الاشياء على المقادير اذ يحتاج بها قبل الوقوع . » وللطهطاوي فصل خاص في الكتب التي طالما في باريس ، واكثرها يرجع الى القرن الثامن عشر ، وتأخذ باسباب التفكير المبني على احكام العقل . وفيما يلي نص كلام الطهطاوي عن مطالعته :

« قرأت كثيراً من كتب الادب . فمنها ٠٠٠ عدة مواضع من ديوان ولتير ٠٠٠ وديوان رسو خصوصاً مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهي اشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية (١٥) ٠٠٠ وقرأت في الحقوق الطبيعية ، مع معلمها ، كتاب برماكي وترجمته وفهمته فهماً جيداً . وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الافرنج اساساً لاحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية . وقرأت ايضاً مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى « روح الشرائع » ، مؤلفه شهير بين الفرنسيين ، يقال له مونتسكيو ، وهو اشبه بميزان بين

(١٤) قال : الشرعية لان كلمة شرعية نطلق على النواويس الدينية في اللغة العربية .

(١٥) ظاهر ان المؤلف وقع هنا في لغوة ، فالمراسلات الفارسية لمونتسكيو ، عدا ان روسو ليس له ديوان .

المذاهب الشرعية والسياسية ومبني على التحسين والتقيح العقليين . ويلقب عندهم مونتسكيو بـ « ابن خلدون الافرنجي » . كما ان ابن خلدون يقال له عندهم ايضاً مونتسكو الشرق ، اي : مونتسكو الاسلام . وقرأت ايضاً في هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التانس والاجتماع الانساني ، مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم في معناه . . . وقرأت عدة محال نفيسة في معجم الفلسفة للخواجه ولتير وعدة محال في كتب فلسفة « قندلياق » « Condillac » .

ومن الامور التي يبدي الطهطاوي اعجابه بها ثقافة المرأة الفرنسية ، فيقول : ان للنساء تأليف عظيمة . ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى اخرى ، مع حسن العبارات وجودتها . ومنهن من يتمثل بانسانها ومراسلاتها المستغربة . ومن هنا يظهر لك ان قول بعض ارباب الامثال : جمال المرأة عقله وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد .

وهكذا نستطيع ان نقول ان رفاة رافع الطهطاوي ، مع رجال البعث الذين انفذهم محمد علي باشا الكبير الى فرنسا ، كانوا من اعظم الحارثي التي تسربت خلالها الى الشرق العربي آثار من مبادئ الثورة الفرنسية وكبار مفكرها . ولكن هناك مجرى آخر ، اذا شئنا ان نرجع الى أصله في التاريخ وجب علينا ، ايضاً ، ان نرجع الى الحملة النابليونية . فان هذه الدفعة العسكرية القوية تجاوزت مصر وبلغت اسوار عكا حيث حاصرت احمد باشا الجزائر في قاعدته ، وطارت اخبارها الى لبنان زمن الامير بشير الشهابي .

بين ايدينا هذا الكتاب الغني الذي تركه المطران يوسف الدبس عن تاريخ سوريا . فلنكتف منه بالنسخة الموجزة ، ولتراجع وقائع التاريخ اللبناني خلال الايام التي كانت تهب فيها رياح الثورة الفرنسية على الدنيا^(١٦) . سئى ان هذا الوطن البديع النشيط ، القائم على ساحل الابيض المتوسط ، كان هو ايضاً في غليان دائم . والقصة واحدة : امير حاكم على لبنان ، يحتاج الى المال او

(١٦) راجع المختارات ، من كتاب المطران الدبس ، في قسم النصوص .

يطلب منه اسياده الذين ولوه الامارة مبلغاً من المبالغ ، او هو يتبرع بتقديم المبلغ مزاحمة لامير آخر رشح نفسه لحكم لبنان ، ويأتي موعد الدفع ، فيضرب الضريبة على السكان وعلى مواسمهم ، وييث جباته ، فيمتنع الناس ، وتندلع نيران الثورة ، الى ان يسقط الامير او يغلب الاهالي على امرهم ، فيؤدوا المال ، الا ان روحهم تبقى على حدتها وتوفرها ، غير مثلومة ولا منكسرة .

واذن ، فقد كان في اللبنانيين استعداد عقلي وقابلية روحية ، لما لفتهم اولى انباء الثورة في البلاد المقابلة لبلادهم عبر البحر الذي يطلون على امواجه . اما كيف وصلتهم هذه الانباء ، فقد سبق ان الحملة النابليونية على مصر هي التي حملت اليهم تبشيرها . كانت تنمو في لبنان ، اذ ذاك ، بواكير الزهرات الادبية ، التي بشرت بمطلع النهضة الحديثة وموسمها المقبل . ونخص بالذكر من تلك البواكير الكاتب الشاعر نقولا الترك .

ونستطيع ان نتصور الناس في لبنان وقد بلغتهم انباء الحملة الفرنسية على مصر ، وامتدادها الى اسوار عكا . فان اميرهم ، الامير بشير ، كان والياً للجزار . فما يكون موقفه الآن والجزار محصور في قاعدته ؟ وهذا القائد الفرنسي بونابارته يشدد عليه الحناق . ومحتمل كل الاحتمال ان يفتح عكا ويتقدم بجيوشه الى لبنان . ولكن من بونابارته هذا ؟

ولا شك ان حديث الناس عن الفاتح الجديد الذي حط رحاله في وادي النيل ومشى يريد اكمال الفتح ، صرف الناس الى الحديث عن فرنسا وما طرأ عليها قبل ان يرز بونابرت .

وهكذا وقعت الانظار على الثورة الفرنسية الكبرى والانقلاب العميق الذي احدثته في فرنسا . والسنا نعرف بالضبط كيف اطلع اللبنانيون على حوادث الثورة ، فربما حملها اليهم التجار الذين كانت لهم صلات قديمة بين هذا الشاطئ . من المتوسط والشاطئ . المقابل . وربما جاءتهم اخبارها على السنة مسافرين كانوا في مصر وعرفوا جنود نابليون وخطبهم .

على اننا نعلم علم اليقين ، استنتاجاً من تاريخ الامير حيدر الشهابي ، ان اللبنانيين سمعوا ببعض حوادث الثورة في عهد باكر ، كهجوم الشعب ، سنة ١٧٩٢^(١٧) ، على القصر الملكي في باريس (التويلري) ، وعرفوا ان الشعب طالب مجلساً نيابياً « ديواناً عظيماً ومحفلًا جسيماً يكون فيه للملك الصوت الاول » ، وعرفوا كذلك ان الملك حاول ان يهرب ، فقبض عليه وسجن في حبس « الطامبل » (Temple) ، ثم اعدم ، وانفردت « المشيخة » بالتدبير . ولكن اللبنانيين اذا استندنا الى تاريخ الامير حيدر لم نحل معلوماتهم عن الثورة من اضطراب ظاهر ، وقد يكون هذا طبيعياً ومنتظراً في مثل تلك الظروف والايام .

أما رأيهم في الثورة وحوادثها ، فكلام الامير حيدر يدل حيناً على عطف ، وحيناً على تشجيب . ونقدر ان موقف كثير من الاوساط الدينية تجاه الثورة والحكم على الملك بالاعدام ، ساعد الدعايات المعارضة للثورة وغشى حقيقتها بغشاء كثيف . ولا تزال الدعايات تستغل هذه الامور وامثالها للتشنيع على الثورة الى اليوم . وطريف حقاً ان نقرأ الوصية التي ائتمتها الامير حيدر على لسان لويس السادس عشر ، قبل اعدامه ، فان في اسلوبها ما يذكر ببعض الادباء المعاصرين الذين يكتبون عن الثورة ، فيكتفون بالحديث عن « الفوضى » و « الحزن الملكي » وما اشبه . ومنهوم ان للثورات بوادر من بطش وعنف . ويمكن القول ان كثيرين من اللبنانيين ، لما التفتوا الى الثورة الفرنسية - على بعد المسافة - غلبت على ابصارهم مشاهد العنف والبطش . وجاءت الدعايات المعارضة تضخم تلك المشاهد في ابصارهم ، وتجرد الثورة من فضائلها ، فهي « الفتنة » او « الفتنة العمياء » وكفى . وستكون لنا الملمة ثانية بهذا الموضوع فيما بعد .

ولكن اللبنانيين منذ الساعات الاولى ساورهم شعور ادى بهم الى المقايسة بين شيئين : فظاعة الثورة والتخريب الذي احدثته من جهة ، ونهضة فرنسا من جهة اخرى وظهور رجل كتابليون على مسرح الحوادث العالمية . وبين الثورة ونابليون صلة واصل متينة ، فكيف تكون الثورة فظاعة وخراباً وتنتهي بهذه القوة الباهرة ؟

(١٧) أرخ الثورة عدد من كتاب العرب بهذا التاريخ ، أي : سنة ١٧٩٣ .

ومن يقرأ مقدمة الكتاب الذي ألفه الشاعر الكاتب ، نقولا الترك ، في الثورة الفرنسية والحروب النابليونية يشعر بالشعور الغامض الحائر الذي خالج النفوس بازاء الثورة والحكم لها او عليها . يقول نقولا الترك : « جرت عادة الاوائل ، بتأليف الكتب والرسائل ، وذكر ما يمر عليهم من الحوادث الكونية والحركات الكلية ، من قيام دولة على دولة ، وانتشار الحروب المهولة ، وما يتعلق بها من المواقع المريبة والامور الغريبة ، فحق لنا ان نؤرخ في هذا الكتاب ، لانتفاع الطلاب ، ما حدث من التغيير والانقلاب ، مما أجرته يد الاقدار ، في هذه الامصار ، وما آذنت العزة الالهية ، بظهور المشيخة الفرنساوية ، وما تكون بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية ، وديار الرومية ، وانتقل سلطنتهم ، وخراب بلدانهم ، وانتشار شانهم ، وربحهم من بعد (خسرانهم) ، وذلك بظهور فرد افرادهم ، وقايد اجنادهم ، لليث الشديد ، والبطل الصنديد ، امير الجيوش - الامير يونابارته ، وذكر الحروب التي ثارت بتلك الممالك ، وحدثت الشرور والممالك ، وقهر البلاد التي اتصلوا اليها ، والانتصارات العظيمة التي حصلوا عليها ، بانتقالهم القريب من الغرب الى الشرق ، ومرورهم العجيب اسرع من البرق ، وتزولهم على جزيرة مالطة ، كالمصواعق الهابطة ، وفتوحهم ثغر الاسكندرية ، واستيلائهم على الاقطار المصرية ، وذكر ما تم لهم من التملك ، في حروبهم مع النور والماليك ، وسيروهم على الاقطار الشامية ، ومحاصرتهم لمدينة عكا القوية ، مسكن ذلك الوزير الجبار ، المعروف باحمد باشا الجزار ، ورجوعهم الى ارض مصر ، وما تم لهم في ذلك العصر ، وكفاحهم مع الدولتين العظيمتين ، الدولة العثمانية والدولة الانكليزية ، ومصادمتهم للعساكر العربية والبحرية ... الخ . »

فاذا تأملنا هذا الكلام ، وجدنا ذكر الثورة الفرنسية مقروناً بالفتن وقتل السلطان ، (اي الملك لويس) ، وخراب البلدان . ولكن سرعان ما وجدنا المطاف يفضي بنا الى : انتشار شان الفرنسيين ، وربحهم بعد خسرانهم ، وانتصاراتهم العظيمة ، وانتقالهم القريب من الغرب الى الشرق ، وهلم . . . ولم يكن نقولا الترك موفقاً حين اتى على ذكر الثورة وقيام المشيخة الفرنساوية في جملة « الحوادث الكونية والحركات

الكلية « . فالثورة الفرنسية حقاً حادث كوني وحركة كلية وهذا من اوجز وابدع ما يقال فيها .

وكان اللبنانيين ما لبثوا ان تقدموا تقدماً سريعاً في فهم الثورة وحقيقة معناها . واننا لنصادف في التاريخ اللبناني ، حوالي هذا العهد ، بعض حركات وانتفاضات يعمل فيها وعي الشعب عمله الملموس ، كعاميتي انطلياس وحلفد سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وكالثورة على ابراهيم باشا والاحتلال المصري سنة ١٨٤٠ ، وكفضبة طانيوس شاهين على التحكم الاقطاعي سنة ١٨٥٩ .

وبهنا ان نلاحظ في هذا الصدد ، ان كلمة « العامية » انما هي تعريب حرفي لكلمة « Commune » الفرنسية . وكان اللبنانيون يشكون العاميات ، في مناسبات خاصة ، للامتناع من دفع الضرائب ، كما وقع في عاميتي انطلياس وحلفد اذ طلب عبدالله باشا الوالي العثماني في عكا مبالغاً مالياً من الامير بشير ، ففرضه الامير على اللبنانيين وبث الجباة لجمه ، فكانت عاميتا انطلياس وحلفد . ولستنا نعلم هل كان اللبنانيون متأثرين في عامياتهم بشي من الثورة الفرنسية .

ولكننا نعلم علماً لا يشوبه الظن ان اللبنانيين في المنشور الذي اذاعوه سنة ١٨٤٠ م يدعون فيه الى الثورة على ابراهيم باشا ، ضربوا للشعب مثلاً من البأس والثبات الفرنسي في القتال . يقول المنشور :

فليرقد بسلام رفات اخواننا (يقصد الحورانيين وكانوا قد ثاروا على الحكومة المصرية) الذين ماتوا في سبيل الحرية ، فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسيين الذين عندما هُددوا بالاستئصال ، اذا لم يستسلموا ، فضلوا الموت فحاضوا غمرات الوغى وقتلوا ١٥٠ ألف رجل . فهذا ايها الاخوان حادث تاريخي ، يجب ان لا يذهلكم ، فان مواطنينا الذين قاتلوا في حوران كانوا قليلي العدد ، ومع ضعف وسائلهم كما تعلمون قد فاقوا الفرنسيين ^(١٨) .

ولستنا نعرف بالضبط الحادثة التي يشير اليها المنشور في التاريخ الفرنسي . على اننا نرجح انها تلك الوثبة الجبارة التي وثبها الباريسيون ايام الثورة الكبرى ، حين

بعث اندوق دي برونشفيك البروسي ، يتهددهم بسحقهم وبحق عاصمتهم اذا مسوا الملك وقصره ، فردوا عليه بمحاصرة قصر التويلري وافتتاحه في ١٠ آب سنة ١٧٩٢ ، واعتالوا الملك ، وصادوا جيش التدخل الاجنبي ، وظفروا به في معركة فالمي الشهيرة .

اما حركة طانيوس شاهين ، فليس في اخبارها اشارة صريحة الى تقاليد فرنسا الثورية ، على ان في مخطوطة انطون ضاهر العقيقي ^(١) التي تحدث فيها عن هذه الحركة ، ذكراً اشكل السلطة التي كان يستند اليها طانيوس شاهين اذ كان « يقول بقوة الحكومة الجمهورية » . ويدعو صاحب المخطوطة طانيوس شاهين وجماعته « الجمهور » . ويغلب على الظن ان كلمة « الجمهورية » و « الجمهور » ، بالمعنى السياسي ، عرفها اللبنانيون بتأثير من الثورة الفرنسية الكبرى . وقد رأينا ان اول منشور اذاعه نابليون على المصريين ، يحمل في فاتحته هذه العبارة : « من طرف الجمهور الفرنسي المبني على الحرية » .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي . من طريق مصر وفلسطين ولبنان ، فينبغي لنا ان نحول النظر منذ الآن شطر الشمال ، شطر البلقان وتركيا ، وكانت هي والشرق العربي داخلة جميعها في نطاق الامبراطورية العثمانية الضخمة .

ومعلوم ان ريجاً من الثورة الفرنسية ما لبثت ان هبت من غرب اوروبا على البلقان ، في شرقها ، فساعدت على ايقاد لهيب من الثورات الوطنية الاستقلالية على الحكم العثماني . وكانت ابعد هذه الثورات صدى في الشرق العربي ثورة اليونان التي حررتهم ، بعد نضال طويل دام من سنة ١٨٢٧ الى ١٨٢٩ . ونفذت لفجات من ربح الثورة الفرنسية الى صميم الامبراطورية العثمانية وقاعدة السلطنة .

وغني عن البيان ان الامبراطورية العثمانية كانت اذ ذاك تحرك رجلاً للهبوط في سلم التاريخ . وقد بدأت طلائع فيها . من اهل العقول النيرة تشعر بوجوب اصلاح . والاسطان سليم الثالث الذي ولي الحكم سنة ١٧٨٩ ، وهي اولى سني عهد الثورة ،

(١٩) نشر هذه المخطوطة وعلق عليها الاستاذ يوسف يزبك سنة ١٩٣٨ .

• ما لبث ان احس بضرورة شيء من التعديل والتبديل ، ولكنه قصر جهده على الجيش وكان كثير من اصلاحاته مظهرياً . ومع ذلك فقد شق عليه جيش الانكشارية عصا الطاعة ، وخلعوه ، ثم نكلوه ، والقوا ما سماه « النظام الجديد » . وبالطبع ان الثورة الفرنسية وحوادثها ومبادئها حملت الاوساط الرسمية العثمانية فوراً على الاحتراز وامتناع شديد . وعاطف باشا الذي صادف ان كان رئيس الكتاب (وزير الخارجية) ايام السلطان سليم الثالث ، علق على الثورة الفرنسية بما يلي :

« ان جان جاك روسو وغيره من مشاهير الزنادقة والدهريين قد قاموا بتأليف الكتب الاحادية المفسدة في سب الانبياء . وإبطال الاديان وذم الملوك والاشراف ، وزاعم في هذه الكتب يميلون الى التهكم ، ويستخدمون الفاظ العوام والاليهم حتى يفهم منهم الناس ويتذوقوا طعم المساواة والجمهورية . . . وهم الذين دعوا الى التمسك اصول الالتزام (اي : نظام الاقطاع) الذي يعتبر اساس كل دولة (١) ومدار ارتباطها ونظامها . ثم حرضوا على الاحقاد ونبد الدين والشرع والمذاهب ، وبذلك مهدوا لانقلاب سكان فرنسا الى هيئة البهائم . وليت الامر وقف بهم عند هذا الحد ، بل انهم تجاوزوا ذلك ، فقد وجدوا في كل مكان اشياء مماثلين لهم ترجعوا ببيانهم المفعم بالظنيان والمسمى بـ « حقوق الانسان » الى جميع اللغات ونشره بين عامة الامم والملل التي كانوا يحرضونها فيه على حكامها (٢) . »

غير ان الطلائع الذين المعنا الى ذكرهم ، من اهل العقول النيرة ، في الامبراطورية العثمانية لم يكونوا ليوافقوا عاطف باشا ونظراؤه على مثل هذه الاحكام ، والآراء التي تجري مجرى التهم الباطلة . ولم يتحاشوا ان يسددوا سهام نقدهم الى الحكم السلطاني المطلق ويطالبوا بالدستور . وما زال عددهم يتزايد وتأثيرهم ينمو حتى كانت حركة مدحت باشا ودستوره ، ثم الرجعة الحميدية (نسبة الى عبد الحميد) ثم حركة تركيا الفتاة والانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ .

(٢٠) نقلناه عن الدكتور كامل عياد في مقال له : الثورة الفرنسية والشرق ، نشرته الطليعة جز ٧ ، سنة خامسة .

ولا يحتاج الى قول : ان الحركة الدستورية العثمانية من مدحت باشا^(٢١) الى شباب تركيا الفتاة^(٢٢) بل الى الانقلاب الكيالي ، تأثرت بالثورة الفرنسية ومبادئ مفكرها تأثراً واضحاً . ولقد عرف الشرق العثماني والعربي ايام عبد الحميد قافلة كبيرة من احرار الفكر استلهموا فرنسا النائرة واعلام ادبائها الثائرين وهاجروا الى الارض الفرنسية ، ونقلوا آثاراً فرنسية^(٢٣) من نتاج العقول الحرة ، وكانت هجرتهم وما نقلوه من المجاري الباردة التي سلكتها الثورة الى الشرق .

ولكن هذا كله يدخل بنا في فصل جديد ، كثير شعاب الموضوع ، طويل

الشقة .

(٢١) كان تأثر مدحت باشا بالتقاليد الفرنسية صريحاً ومشهوراً ، حتى انه لما قبض عليه للسحاكمة ، اخرج مستنطقه راغب بك مكتوبين باللغة الفرنسية من مظروفين وقال له : ما قولك في هذين ؟ (راجع كتاب محاكمة مدحت باشا نعريب يوسف كمال حثانه) .

(٢٢) نرى جرجي زيدان يشير الى تأثر شباب تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) بمبادئ الثورة الفرنسية اشارة جلية حين يجعل عزت باشا في رواية « الانقلاب العثماني » يقول لرامز السكائب وهو يستنطقه في السجن : « قد اندفعت بتيار الافكار الفرغية التي يبشها الاعداء باسم الدستور والحرية ... من هم هؤلاء المؤسسون ؟ اظنهم بعض المتفرجين الذين كانوا في باريس او جنيف ؟ »

(٢٣) نخص بالذكر كتاب « شرائط الاجتماع » لروسو ، نقله الى التركية الاديب التركي الكبير محمد نافع كمال ، فعرفه كثير من الادباء العرب الذين كانوا لا يمسنون غير التركية من اللغات الاجنبية . اما التسمية « شرائط الاجتماع » فهكذا نقلها جرجي زيدان في فصله عن محمد نافع في « مشاهير الشرق » ، والمقصود طبعاً Le Contrat Social .

الأدباء والمفكرون العرب أمام الثورة

١ - عرض عام

... والخليفة هذه هي : ان الانسان لا يفلح ولا يسعد ولا يرتقي الا بممارسة حقوقه الطبيعية ، وان الامم لا تنشأ الا بنشوء افرادها ، وان الحكومات الحرة لا تقوم الا بشرائع عادلة تسنها المجالس النيابية لا باوامر تصدرها الملوك والولاة . واول حقوق الانسان : الحرية ، حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . واول اسباب الرقي في الامم : الحرية الاجتماعية والحرية السياسية والحرية الدينية . واول دلائل الحياة الحرة الراقية ان يتمتع افراد الامة على السواء بهذه الحقوق الطبيعية ، فيسمون دائماً في تعزيزها ، وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تمس . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولية ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون ويحاولون قتلها .

امين الريحاني في « الريحانيات »

ها نحن في زمن السلطان عبد الحميد الثاني !
وواضح ان السلالة العثمانية كانت تأخذ بأسباب « الحكم المطلق » وتستند الى حق الملوك الالهي شأن غيرها من السلالات المالكة القديمة ^(١) .
وكان عبد الحميد الذي قبل الدستور ، اول الامر ، شديد النزعة الى الحكم المطلق يريد حصر السلطة بيده ، وقد فعل . فباتت تكال له ألقاب التفخيم

(١) ذكر جرجي زيدان في « مختاراته » ان السلطان سليمان القانوني ارسل الى فرنسيس الاول ملك فرنسا كتاباً هذه فاتحته : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك وواهب الاكابر لملوك العالم ، قل الله على الارض ... »

الفكر العربي الحديث

والتمجيد ، فهو « ظله (ظل الله) الاكرم وخليفته الاعظم »^(٢) . وهو « وارث الانبياء بلا امتنان ، وخلاصة بني عثمان » .

ولعلنا نحسن صنعاً اذا وقفنا قليلاً لنجس تيار الفكر السياسي الذي كان يبيحه عبد الحميد ، فان هذا يزيدنا فهماً لتيار الفكر السياسي الذي انطلق بدافع من الثورة الفرنسية ، وبعيننا على فهم الاصطدام القوي الذي وقع فيما بعد بين التيارين .

ولعلنا لا نجد احداً يمثل الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » كما يمثل لبناني من ادباء ذلك العهد ، هو الدكتور الظريف شاكر الخوري . والارجح ان الدكتور شاكر كان لا يشعر بانه يث « فلسفة » السياسة الحميدية ، بل الارجح انه كان لا يريد ان ييشا ، الا انه مع ذلك كان يكره جلب الاذى لنفسه ، و « المسكين » - في نظره - « من تقدمت افكاره عصرها ، فهو الذي يكون الضحية الاولى » . وما اغناه عن ان « يفحص كلف الشمس بالعين العارية ويعرض نفسه للعمى بلا فائدة » . وباختصار « اكرم رئيسك ولو كان حماراً »^(٣) .

مع ان الدكتور في خاتمة كتابه « مجمع المسمرات » يعلن ان مؤلفه « حبل به في الظلم وولد في الحرية » لان صدره مطبوعاً سنة ١٩٠٨ وافق سقوط عبد الحميد وعلان الدستور العثماني ، وبهذه الكلمة نفس عن صدر متضابق كان ينفس عنه قبلاً بلذع التوريات والنكات .

وفي الكتاب فصل عن « ضرورة السياسة للهيئة الاجتماعية » كتب في العهد الحميدي ، وهو الفضل الذي يساير فيه الدكتور شاكر تيار الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » مجلباً مجلباب من « المنطق » و « القياس » فيثبت الدكتور اولاً ، ضرورة « القوانين التي تعطي كل ذي حق حقه » ثم يثبت ضرورة « اناس مخصوصين يديرون حركة القوانين ويسيطرون بموجبها وهؤلاء هم الساسة » . اما القوانين فقدمان : قسم يتعلق « بحقوق الافراد بين بعضهم » ، وقسم يتعلق « بحقوق الهيئة عموماً مع هيئة اخرى » ولا بد للهيئة المخصوصة التي تتولى ادارة القوانين من ان « يرأسها شخص تعطي له السلطة » .

(٢) مجمع المسمرات لشاكر الخوري .

(٣) جميع هذه المقطعات من مقدمة كتاب مجمع المسمرات للدكتور شاكر الخوري .

ويكون له مساعدون وقوة تنفيذ هي الجيش . وثلاثاً تحرب الجمعية « حصر الباري السلطة بيد واحد . »

ومن ثم يقابل الدكتور بين الحكومة والجسم ، مقابلة طريفة لا نلبث اذا حققنا فيها النظر ان نجد ان الحكومة هي الدولة العثمانية الحميدية ، شبهها الكتاب بالجسم الانساني ليثبت موافقتها للخلق الطبيعي .

ف (الرأس هو الملك) . والرأس عليه « مدار الحياة » وهو « مركز العقل يميز النافع من الضار . » ولذلك « نرى هذا التحفظ الكلي للرأس » اذ « تحيطه اخصون من كل ناحية . » ثم (الرئة) التي هي (الصدر الاعظم) ووجه الشبه ان الرئة تدخل الهواء الجديد وتنقي الدم ، والصدر الاعظم وظيفته ان يدخل كل شي نافع لبلاده . ثم (القلب) وهو (وزير المالية) ، القلب يوزع الدم في الجسم ووزير المالية يسهر على الامداد بالنفقة . فالدم هو المال .

اما المعدة (فهي الخزينة) .
واما الاعصاب فهم الولاة ، صلة الوصل بين الملك الذي هو الرأس وبين البلاد .
ثم تأتي (الاطراف) ، وهؤلاء هم (العسكرية) ، و « الاطراف العليا تشبه الخيالة ، والسفلى المشاة » ، و « كلها تتحرك بأمر الملك . » و « كما ان الاطراف تقنع بالغذاء القليل كذلك العسكرية التي عليها مدار شرف المملكة وحمايتها فتكتفي بغذائها فقط ، لان ليس لها سلطة الادارة . فالتساوية على الاطراف كالتساوية على العساكر ، لان الاطراف - لتعودها من الارض - فيقسو جلدها ويصير قليل الاحساس كالعسكر الذين يعتادون على الشغل والتعب والحر والبرد ولا يجوز لهم الترفه لانه يضرهم ! »
ثم تأتي الحواس ، التي هي السفراء .

اما الافرازات التي يلفظها الجسم فكالاشخاص المفسدين والمقلقين في المملكة .
واخراج هذه الافرازات وظيفة من وظائف (العسكرية) . ويخلص الدكتور الى النتائج الآتية :
« الوظائف مختلفة في الاهمية ، ولكل عضو وظيفة . ويكون مؤلفاً بهيئة تجعله قادراً على اتمام هذه الوظيفة . وكلما كثرت اهمية العضو كان اكثر كمالاً وتركيباً . »

وهذا التفضيل سنة من الخلق ليس من العضو ذاته . وليس من الحكمة ان يتساوى الرأس والقدم لانهما لو تساويا لاختل النظام وخربت الحياة اذ لا يمكن القدم ان يقوم بواجبات الرأس ، ولا لهذا ان يخلف ذاك . ولكل منهما وظيفة خصوصية يتكافى او يتجاوزى حسب ضرورتها وحاجة الحياة اليها . وهذا التمييز هو عين العدل . مثلاً يجب للرأس بتغذيته خمسون غرام من الدم وللقدم يلزم عشرة غرامات . فيلزم ان يعطى الخمسون غرام من الدم اولاً للرأس ، اذ بدونها لا تقوم قائمة للقدم . ولذا ترى ان الدم اول ما يتوزع للرأس !

وبعد ذلك يرش الدكتور على هذا « المعجون الحميدي » شيئاً من الكلام العسلي « اساس السياسة الحق واساس الاجتماع المحافظة على الحقوق . »

ولسنا بحاجة الى ان نشرح للقارىء كيف ان الدكتور ييثر الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » ومجلبباً بجلباب من المنطق والقياس ، فهو يقرر ضرورة حصر السلطة في فرد ، ويدعو كل عضو الى الاهتمام بوظيفته ، والى الرضى بقسطه من الدم (اي من المكافأة على عمله) ، فيكون محصل كلامه توطيد الاوضاع الحميدية . ومما يسترعي انتباهنا بوجه خاص ، رأيه في وظيفة الجنود . واذا ذكرنا ان الاوتوقراطية الحميدية تلتقت ضربتها فيما بعد من الجيش ، ظهر لنا معنى دروس الدكتور شاكر الخاصة بالعسكرية .

وغني عن البيان ان مقابلة الدكتور بين الحكومة والجسم لا تصمد للنظر ، والمثل الالماني يقول : كل تشبيه اعرج . وتشبيهه هذا كسبح لا اعرج وحسب ! ولحظة تعرفنا ان الملك ، للهيئة او الجمعية ، ليس كالرأس للجسم . فالرأس اذا قطع هلك الجسم . وقد قطعت رؤوس ملوك فلم تهلك الهيئة بل زكت غافيتها وربت صحتها .

وكان طبعياً ان يتصدى لهذه « الفلسفة » السياسية الحميدية من يخالفها . بل ان هذه « الفلسفة » ، وهي مجلى من مجالي التعبير عن مشروعية الحكم المطلق ، اخذت بها الاوتوقراطية العثمانية قديماً . ووجدت طليعة من المعارضين ايام السلطان عبد الحميد بل قبله ايضاً . وكان عبد الحميد نفسه على جانب من الاستنارة ، فعمد الى شي .

من الإصلاح في نظام الحكم ، فادخل وزيره رشيد باشا « القانون المسمى بالتنظيمات الخيرية للمساواة بين رعايا الدولة المنسوبين الى غير العنصر الحاكم » . ولم يلبث عبد المجيد ان ايسد التنظيمات الخيرية بخط يعرف بخط الكوخانة . وسارت الدولة العثمانية خطى نحو الملكية المقيدة .

فلما ولي العرش السلطان عبد العزيز « ساقته عظمة الملك الى حب الاثرة والاستبداد ورأى اللذة في الانفراد بالاحكام » ، فلم يجسر احد على التلغظ بكلمة واحدة في امر الإصلاح . فقامت مقام التنظيمات وخط الكوخانة والقوانين الجديدة ادارة استبدادية .

و « ظن عبد العزيز الحكومة غير الامة . وبذر اموال الدولة في غير طائل كشراء الاسلحة واعداد الجنود لمقابلة الشعب بقوة مكوّنة من ابنائه »^(١) وحارب الوزيرين المستنيرين عالي باشا وفؤاد باشا^(٢) .

وفي هذا العهد اشرق نجم مدحت باشا ، وهو احد الاعلام الساطعين في الكفاح من اجل الحكم الشوري في الشرق . وكان يتجه الى الغرب بنظرة اصلاحية . وكانت الثقافة الفرنسية صلة الوصل بينه وبين الغرب . وكان عميق التأثير ببادئ الثورة الفرنسية ، الا انه في الاغلب كان يرمي الى ملكية مقيدة بدستور ديموقراطي عصري لا الى جمهورية ، وان يكن ظهر من خصومه من « يتهمه » بالجمهورية وتفكيك الدولة العثمانية وحب الاستقلال ببعض اجزائها .

(١) هذه المستندات من كتاب « اكمة مدحت باشا ، تعريب حناثة .

(٢) « كان هذان الوزيران قد اعلنا قانون الولايات ، وهو يوجب انتخاب مجلس عمومي في كل سنة لمشاركة الوالي في اعماله . وانتخبوا اعضاء مجلس شوري الدولة من الولايات . فقال السلطان عبد العزيز في نفسه انهما سيندرجان الى احداث مجلس نيابي . وكان قد رأى اثناء زيارته في اوروبا ، المخطوط الحديدية والمصانع والطرق فشوقه الرجلان الى احداث مثلاً في الاندانة ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما قالاه ، بل كان جل مقصده وقصارى جهده احداث مصانع ومتاجر باسم خزينته الخاصة لا باسم الشعب . فتذمر الشعب وكثر اللغظ ورأى السلطان ان في بقاء عالي باشا وفؤاد باشا ما يخالف مشربه لانهما لم يروجا غايته ولا خدما شخصه وروجا مطالبه . فتفر منهما نفور القلي من حبالة القانص . » (كتاب محاكمة مدحت باشا) .

ووفق مدحت باشا واعوانه الى خلع السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد ليحكم بموجب دستور تقره الامة . ولكن عبد العزيز انتحر بمقراض لشدة غيظه . ولم يطل حكم مراد ، فعهد بالسلطنة الى عبد الحميد ، والنية لا تزال معقودة على اعلان الدستور . واعان الدستور ، الا ان عبد الحميد ما لبث ان اتهم مدحت واعوانه بقتل السلطان عبد العزيز ، ودبر لهم محاكمة ، انتهت باعدام مدحت . وهكذا استطاع السلطان عبد الحميد ان يتابع سيرة الاوتوقراطية العثمانية ، واستبد بالامور وبالغ في استبداده .

وقد سبق لنا ان رأينا تيار الفكر السياسي الحميدي كما مثله الدكتور شاكرو الخوري « مفلساً » ومجلبباً بجلباب من « المنطق » و « القياس » . فما هو التيار الفكري المعارض الذي كان يمثله مدحت باشا واعوانه ومفكرونه وادباؤنا الأولى تزعموا نزعتهم ، متأثرين بالثورة الفرنسية ومبادئها ؟

من اقدم آثار هذا العهد كتاب بعنوان : محاكمة مدحت باشا ، عربيه يوسف كمال حناتيه ، وصدر تعريبه في مصر . وفيه نقراً ما يوجهنا الى فهم مذهب الاحرار المعارضين لعبد الحميد ونلمس مدى تأثرهم بالثورة الفرنسية ومفكرها . يقول الكتاب : « الحرية تحدد للانسان حدوده ، وتعرفه موقفه في الهيئة الاجتماعية ، وهي التي تفرق بين الانسان وبين الحيوان ، وهي التي اوصات الحكومات المتمدنة الى درجة الرقي ... »

« خلق الله الانسان وخلق اعضاءه فهو مختار في استعمالها ، حر في تصرفاته وحر كاته وسكناته ، له حق العمل كما يريد والتوجه الى اي مكان يرى فيه مصلحة نفسه ، وهذه هي الحرية الشخصية . ومع هذا فالانسان يميز بواسطة العقل النافع والضار والحسن والقيبح . والعقل يختلف بين الناس ولا يقدر الانسان على الوقوف عند حده وعدم التجاوز على حقوق الغير ، ولذلك فقد وجدت القوانين لوضع حدود للبشر وتعيين حقوق افراد الشعب ... » الخ .

ولقد اثبتنا في باب النصوص ، من كتابنا هذا ، مقطوعة طويلة نقلناها عن كتاب محاكمة مدحت باشا . فاذا راجعها القارى . - ولا بد له من مراجعتها - وجدها

اشبه بمنهج كامل كان اساساً فكرياً بنى عليه اعلام مفكرينا وادبائنا العرب . فكما
كثرت الالتفات في هذه المقطوعة (التركية) الى « العدل ، المساواة ، الحرية ،
والشعب ، والحقوق ، ومونتسكيو » - وفي ذلك ما فيه من اثر يبين للثورة
الفرنسية ومبادئها - كثر كذلك الالتفات اعلام مفكرينا وادبائنا الى هذه القيم
والمذاهب في الحكم والى « مونتسكيو » و « روسو » والثورة الفرنسية ومبادئها .
ولسنا نظن انفسنا بحاجة الى المعارضة بين التيار الفكري السياسي الذي مثله تلك
المقطوعة ، والتيار الفكري السياسي الحميدي كما عرفناه في مقال الدكتور شاكر
اخوري . فان نقاط الخلاف والتناقض بين التيارين ظاهرة للقارى .

ويلاحظ من المقطوعة ايضاً ، ان الاعلام من مفكرينا وادبائنا لم يكتفوا بالنظر
الى الثورة الفرنسية ، بل نظروا معها الى الاسلام ومبادئه ، فوجدوه يؤيد مطالبهم في
الاصلاح والشورى والدستور . (وهذه شعبة من الموضوع سنعالجها معالجة خاصة) .
واندفعت هجمة فكرية عنيفة على الاستبداد الحميدي ، في سبيل الحرية والدستور
والاصلاح . فكان الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ولكن بقوة الجيش . واستمرت
اليقظة العربية الفكرية ، وقد كانت - وما برحت - للثورة الفرنسية يد
قوية فيها .

وسيلتنا في هذا الفصل ان نعرض لقافلة من كتابنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة
الفرنسية ومبادئ اعلامها ، وسنرى ان القافلة عظيمة حقاً تكاد لا تحلو من اسم
كاتب او مفكر عربي شهير . وغني عن البيان اننا سنقتصر على اسماء الذين كان
تأثرهم واضح السمة عميق الطابع .

وليكن ابتداءنا بالسيد جمال الدين الافغانى (١٢٥٤ هـ - ١٣١٤ هـ ،
١٨٣٩ م - ١٨٩٧ م) . وهو وان لم يكن عربياً فقد اتصلت حياته اتصالاً
وثيقاً بالشرق العربي ، واتقن اللغة العربية ، وله فيها آثار ادبية (كلمات وخطب
مقطعة ورسائل) ، تنزله منزلة الاديب العربي .

ولسنا نعلم كيف بدأ اطلاع الافغانى على الثورة الفرنسية ومبادئها ، ولكننا نعلم
انه انضم الى الحركة الماسونية في مصر ايام الخديوي توفيق ، والتحق بالحلل

الاسكتلندي ظناً منه ان الماسونية حركة تحريرية . ولا يزال هناك اعتقاد الى اليوم بان الماسونية لها يد قوية في كل الثورات ، ومنها الثورة الفرنسية . على ان التحقيق التاريخي ، كما يقول زيدان ^(٦) ، دل على ان هذا الظن لا يستند الى اساس . وبالفعل اصطدم الافغاني بخيبة مرة لما رأى ان المحفل الاسكتلندي الذي التحق به ، جعل من شعاراته : « الماسونية لا دخل لها في السياسة ! » فألقى كلمات نزويها كما حفظها لنا السيد محمد باشا الخزومي ، مؤلف كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني » اوسع كتاب في موضوعه . قال الافغاني :

« اذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون - وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم وتشيد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ، وتذك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة ... »

« اول ما شوقني للعمل في بنائة الاحرار عنوان كبير خطير - حرية ، مساواة ، اخاء - ، غرض منفعة الانسان ، سعي وراء ذلك صروح الظلم ، تشيد معالم العدل المنطوق - فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية وهو مهمة للعمل وعزة نفس وشتم واحتقار الحياة في سبيل مقاومة الظالم . »

وظاهر ما في هذا الكلام من تأثر بشعارات الثورة الفرنسية . ولما لم ير السيد الافغاني أن اشتراكه في المحفل الاسكتلندي يهيئ له ما يريد من النشاط والتوجيه السياسي ، انشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي ، وركز جهوده على المطالبة بدستور ومجلس شوري ، مستنداً الى ما تأثر به من شعارات الثورة الفرنسية ومبادئها ، مستمداً من روح الشورى في الاسلام ، مقتنعاً بان الاصلاح الداخلي في طريقة الحكم يقوي الشرق في ثباته لانفج الزاحف عليه . وترتبط سيرة جمال الدين الافغاني بثلاث حركات شوروية في الشرق هي : الحركة التركية الدستورية ، والحركة المصرية النيابية في عهد الخديوي توفيق وبعده ، والحركة الايرانية النيابية ايام ناصر الدين شاه .

(٦) في كتابه عن الماسونية . راجع فصله : الماسونية والثورة الفرنسية .

ويلاحظ ان باريس ، وما وراءها من تقاليد ثورية ^(٧) كانت جواً استأنس به جمال الدين الافغانى فأصدر من مدينة ثورة ١٧٨٩ مجلته « العروة الوثقى » بمساهمة صديقه الشيخ محمد عبده . ومع ان هذه المجلة لم ينتشر منها الا ثمانية عشر عدداً ، بين ١٣ آذار و ١٦ تشرين الاول سنة ١٨٨٤ ، فان صدى صوتها كان عظيماً في تنبيه الافكار في الشرق العربي عامة .

ويجد القارىء في باب النصوص من هذا الكتاب ، طائفة مختارة من اقوال الافغانى تشف جميعها عن تأثر واضح بثورة فرنسا ومبادئ مفكرىها الاحرار .

وينتقل بنا القول الى مفكر آخر من طلائع مفكرينا : فرنسيس فتح الله مرآش الحلبي ، وقع في يدنا منه كتابان : « غابة الحق » (طبع في بيروت سنة ١٨٨١) و « مشهد الاحوال » (طبع في بيروت سنة ١٨٨٣) . كان فرنسيس مرآش عميق التأثير بما بلغته فرنسا من التقدم في صحة اساليب الحكم وروعة المظاهر العمرانية ، وكان شديد التفاؤل بتيار الاصلاح الذي دبّ ديبه ايام السلطان عبد العزيز . فهو في كتابه : « غابة الحق » قوي الايمان بفوز العدل والحرية والعلم والعقل ، قوي الدعوة الى تأمل الطبيعة واحكامها وعبرها ، كثير التحدث عن « نزاهة الطبع الانساني » و « حرية النظرة » ^(٨) .

على انه في كتابه : « مشهد الاحوال » الذي انشأه ، او انشأ معظمه في غربته في باريس ، ميّال الى التشاؤم ، وان كان اكثر تشاؤمه معلقاً بسوء حظّه الشخصي . والارجح انه لم يفقد يوماً ايمانه بفوز العدل والحرية والعقل ، الا انه ما لبث ان ادرك ان موجة الاصلاح التي لمسها ايام عبد العزيز ضعيفة سطحية ، فلا بد من امد طويل قبل اندفاع موجة اصلاحية قوية عميقة النبع كما يريد .

ولئن يكن فرنسيس فتح الله مرآش لم يذكر الثورة الفرنسية ومبادئها ذكراً صريحاً

(٧) من اقوال جمال الدين : الدعوة لطلب الحرية في فرنسا - وهي دعوة حق ومطلب حق - كم صادف اهلها من اللحن وكيف استجر فيهم القتل وسالت الدماء ، واليوم فالعالم يقدرم ولسوف يقتدي بهم - خاطرات جمال الدين الافغانى ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٨) وفي هذا ما يذكر بروسو .

فان وشائج الارتباط بينه وبينها ، وبين اعلامها المفكرين ، صريحة ملموسة ولا سيما في كتابه « غابة الحق » .

وانه لكتاب فريد في نوعه ، قص فيه المؤلف قصة حلم تراهى له ، واودعه آله وأمانيه في مصير بلاده والدنيا . يدور هذا الحلم الرمزي العجيب على حرب نشبت بين « مملكة الحرية » و « العبودية » ، فظفرت فيها مملكة الحرية ، ووقع ملك العبودية في الاسر ، واقامت محكمة ، اجتمع فيها ملك الحرية وامراته « ملكة المحكمة » ورئيس جنده « قائد جيش التمدن » ووزيره وزير « محبة السلام » ، وسبق اليها ملك العبودية واعوانه ليعاكوها ، وكان « الفيلسوف » يمثل دوره الاساسي في توجيه المحاكمة وتوضيح طرق التسوية والاصلاح .

ولما كان اجزاء الاقوال القصيرة من كتاب « غابة الحق » لا يبنى بغرضنا ، فقد آثرنا ان يرجع القارى الى باب النصوص من مؤلفنا هذا ، ففيه فصول اخترناها لظهار اثر الثورة الفرنسية ومبادئها في كتاب يعد باكورة زكية من موسم نهضتنا الفكرية والادبية .

ومن فرنسيس مراث ينتقل بنا الحديث الى اديب اسحق تليغز الافغانى وصديقه ورفيقه . وقل بين كتاب العرب ، في مطلع النهضة الحديثة ، من تصرف بقلم وبيان كقلم اديب اسحق وبيانه . وان القارى ليحس بجمرة الشباب تتنفس في كلماته . ولعل الشيخ اسكندر العازار وفق الى تصوير الرجل وانصافه خير توفيق ، حين قال يؤبنه : « عاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً ، ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً . يبيكه ضمير الاحرار ، وتندبه الحرية . نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً ، وعاش جندياً لاشرف الاصول واسمى الغساليات . . . اي ، والانسانية ! كان للانسانية نصيراً ولاعدادها نذيراً وبالانسانية بشيراً ، فلتبكه الانسانية ! »

واديب اسحق من اعمق كتابنا صلة بالثورة الفرنسية ومبادئ . مفكرها . وله لفتت الى الثورة قلاً جميع ما سطره قلمه ، وله فلتات رائعة في وصف هذه الثورة واستنباط العبرة منها وضرب المثل بها . وفي كتاب « الدرر » (منتخبات من آثاره طبع في بيروت سنة ١٩٠٩) رسائل بليغة بعنوان « نفثة مصدور » خطها ،

كما يقول ، في فرنسا « تحت سماء الانصاف على ارض الراحة » بين اهل الحرية ،
يسمع أحسناً في مجالس العدل ، فيذكر انين قومه في مجالس الظلمة وتحت سيطرة
الجلادين فينوح نوح الثاقلات ، ويرى علائم النعمة في معاهد المساواة فيذكر شقاء
سربه في ربوع الظلمة فيذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب ويكتب به اليهم . . .
وقد اثبتنا في باب النصوص من هذا الكتاب رسائله الاربع التي تتعلق بالثورة
الفرنسية ، واثبتنا كذلك جزءاً من مقالاته « حركة الافكار » وهي تدور في اساسها
حول الثورة الفرنسية وسريان روحها من الغرب الى الشرق ، كتبها لمناسبة خلع
السلطان عبد العزيز ، وظهور حركات معارضة للشاه في بلاد فارس . وكثيرة هي
النصوص الملائمة التي يمكن اختيارها من ادب اسحق^(١) . الا اننا اثبتنا النصوص
الرئيسية التي سبق ذكرها وعززناها بقطاعات قصيرة من اقواله ، واضطررنا الى
الاكتفاء بذلك نظراً لضيق المجال .

ونعادر ادب اسحق الى كاتب آخر من طلائع كتاب العرب ومفكرهم الذين
ناضوا الظلم في سبيل « قيم » ومبادئ . يظهر عليها طابع من الثورة الفرنسية وآراء
مفكرها . ذلك الكاتب هو عبد الله نديم الذي اضطر الى الاختفاء من ملاحقة
السلطات عقداً كاملاً من حياته ، على اثر الثورة العراقية في مصر . وقد دون تيمور
باشا في كتابه « اعيان القرن الثالث عشر » قصة عبد الله نديم واختفائه فاذا هي
حقائق عجيبة كاختلافت الخيال . ولم يترك الشيخ نديم كثيراً من الآثار ، ولا ريب
ان يد الاضطهاد مسؤولة عن ضياع بعض روائع قلمه . الا اننا وقمنا على احدى
مقالاته التي تبين ما نحن بصدد ، فاثبتناها مع النصوص . وسيرى القارى ان عبد الله
نديم يدعو ملوك الشرق الى الشورى ، ويؤيد دعوته بشاهد من الغرب ، ويعمد بانه
سيؤيدها بشواهد من القرآن الكريم في مقالة ثانية .

والى جانب عبد الله نديم ، يرتفع امامنا شخص بقامة معنوية ، فكرية ، شاعقة ،
اعني عبد الرحمن الكراكي مؤلف كتابي : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وغني

(١) نلفت انتباه القارى الى مقالاته : « الثورة » في الدرر ص ١٧٢ ، والى مقالاته
« ١٤ تموز في باريس » ص ٣٦٢ .

عن البيان ان الكواكبي ، كغيره من الاعلام الذين نسوق الحديث عنهم ، لم يكن نتيجة لتيار واحد ، وانما اشتركت في تكوينه تيارات منها الثورة الفرنسية ومبادئها . وقد عرض الكواكبي في « طبائع الاستبداد » لذكر السيلين الرئيسيين من سبل الاصلاح - في نظره - فكان أولهما : « سبيل النبيين » وثانيهما : « سبيل الفئة التي اتبعت اثرهم » ، يعني « فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعادة كل دين ، بل رفقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا » . وضرب مثلاً لهذه الفئة فذكر « مؤسسي جمهورية الفرنسيين » . وكان الكواكبي ، جاكياً بينظة الشعب الفرنسي وتوثبه الثوري ، ويرى « ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها ، كما جرى في صدر الاسلام فيما نغم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في مسائل النياشين وبناما ودريفوس » .

ويستطيع القارى ان يرجع الى النصوص التي اختارها للكواكبي من « طبائع الاستبداد » واثبتناها في هذا الكتاب ، فانها اوضح دليل على عمق تأثره بثورة فرنسا واحرار مفكرها .

وينتقل بنا الكلام من الكواكبي الى الدكتور شبلي الشميل وهو فلتة زمانه في قبول النظريات الجديدة ، في العلم والسياسة ، واعتناقها اعتناقاً مدركاً واعياً . ترك الرجل مجلدين غنيين يحويان جل آثاره الادبية ، نشرتهما مجلة « المقطف » باسم مجموعة الشميل ، وليس بهما منها في هذا الكتاب الا الجزء الثاني . وطبيعي ان يكون الدكتور شبلي تأثر بالثورة الفرنسية ومبادئها ، على انه لم يقف عند حدها بل اعتبرها حادثة عالمية تؤلف مرحلة من مراحل التطور البشري الذي كان يعتقد انه سائر نحو الاشتراكية . ويكفيها هنا ان نثبت له هذه الكلمة في الثورة الفرنسية : « لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطليح نوع الاحكام الى ما هما عليه الآن ، ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم قاطبة » . ويرجع القارى في باب النصوص ، من هذا الكتاب ، الى مقالته التي علق فيها على اضطرابات فرنسا بعد حادثة

دريغوس ، فيرى قوة اعجاب وعمق تأثر بفرنسا الثائرة ويقظة شعبها .
ومع الدكتور الشميل يعرض ذكر فرح انطون صاحب « مجلة الجامعة » . وفرح هو
معرب رواية « ديماس الكبير » عن الثورة الفرنسية ، طبعت ثلاثة اجزاء في مجلدين :
« نهضة الاسد » و « وثبة الاسد » . وكان فرح اول الامر ، شديد الايمان بمبادئ
الثورة يعتقد انها الدواء لكل دا . ثم ضعف ايمانه الا انه - كما قال عن نفسه - تغذى
بهذه المبادئ حتى أصبح يحرم على نفسه رشقها ولو يورده حتى في المبادئ التي بطل
اعتقاده بها . والواقع أن ارتياب فرح انطون في قيمة الثورة ناتج عن أنه لم يرها ،
كما رآها الشميل ، مرحلة من مراحل التطور البشري ، واعتبرها - وهي التي حدثت
في اواخر القرن الثامن عشر - دواء لكل دا . في نظام الهيئة الانسانية ولو بعد مضي
قرن خطأ فيه التقدم خطى جبارة ، وجدت مشاكل تستدعي اصلاحات جديدة . ولنا
فيا بعد رجعة الى هذا الموضوع .

وقد كتب فرح انطون كلمة تمهيد للطبعة الثانية ، من تعريب رواية « ديماس » ،
اثبتنا قسماً منها في باب النصوص ، لانها تدل على مدى تأثره بالثورة الفرنسية وصلة
الانقلاب العثماني بها ، وضغط العصر الحميدي على الفكر وحرية .

وما كان لنا ان ننسى في هذا العرض ، الزعيم المصري الوطني ، مصطفى كامل ،
وهو الذي نشر كثيراً من مبادئ ثورة فرنسا وآراء أحرارها . ولقد قضى مصطفى
كامل رداً من حياته في باريس ، ويكاد لا يخلو كتاب في سيرته من الصورة التي
عرضها في شوارع باريس ، قتل مصر فتاة مكبلت مسلوقة الارادة ، تستنجد بفرنسا لرد
حريتها . ويفهم من نص العريضة التي وجهها مصطفى كامل الى فرنسا ، في سبيل
اسعاف مصر ، انه انما علق امله على روح الثورة الكبرى وما رافقها من مبادئ .
وفي العريضة يشيد الزعيم الوطني المصري بفرنسا « التي اعلنت حقوق الانسان » . ومفهوم
ان استنجاد مصطفى كامل كان عملاً سياسياً فيه كثير من السذاجة ، الا انه في الوقت
نفسه يدل على عمق أثر الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، وجمال الهالة التي احاطت بها
الثورة وجه فرنسا .

ولمصطفى كامل خطاب كثيرة تشف عن صلة قوية ، وعدوى بمبادئ فرنسا الثائرة .

وكان اول هدف يشوخاه « الحزب الوطني » الذي بقرده مصطفى كامل : « اعلان مبادئ الحرية الدينية والسياسية ، وتشكيل مجلس نواب مصري وتحديد كل سلطة » . وقد اوردنا في باب النصوص مقتطفات من خطبه يستطيع القارى مراجعتها . وبين طلائع كتابنا ومفكرينا اديب ناضل الظلم ، وقادى النفي والاضطهاد ، واتصل اتصالاً روحياً عميقاً بالثورة الفرنسية واعلام المنكرين الذين اوقدوا شعلتها في الضائر قبل أن يندلع لهب نارها في مدن فرنسا وقراها ويرسل ضوءاً كبيراً قشع ظلمة عن العالم . اردنا ولي الدين يكن ، صاحب « القلم الذي أصبح غازياً في حرب الاستبداد » كما قال عنه في كتابه « المعلوم والمجهول » . وما أشد ما يذكرنا ولي الدين بفولتير حين قال هو لعبد الحميد « لاهزن بقلبي أركان قصرك هزاً » . وكان متأثراً بما قاله ساخر فرنسا الساحر لملك بروسيا فردريك الكبير : « ليس لي صولجان ولكن لي يراع ! » وتقد سالت من ولي الدين على سن قلمه كلمات قصيرة تذهب مذهب المثل ، وكلها تشف عن تأثر الثورة الفرنسية ، كقوله : « الحرية عدوة الملوك وحبية الشعوب ! » وكان مشهد ثورة ، كالثورة الفرنسية ، تشب في وجه عبد الحميد لم يفارق باصرة ولي الدين . فهو ينظر الى الامة أيام عبد الحميد ويراه « اجمل الصبر حتى تنفت عن البارود » . ويرى قصر عبد الحميد وكراشي ملكه ، ثم « ما هي الا صيحة اخذتهما فتساقطت تلك اللبنات الذهبية ، وقعت هاتيك العروش ، وقضى الأمر ! »

ولولي الدين رقة على باريس وحنين اليها . وما مقالته فيها ، يوم طغى عليها نهر السين سنة ١٩٠٠ فنكبتها نكبة مؤلمة ، الا قصيدة ناعمة والهة . ومن ابرز ما يشاهده اديبنا بعين الخيال ، من المدينة العظيمة « برج ايفل كأنه خطيب الحرية ! » ويجد القارى بين النصوص المختارة في هذا الكتاب قطعة لولي الدين عن « الببل » ، اجترانها من روايته « دكران ورائف » ، وهي الرواية التي اراد بها تصوير جوايس عبد الحميد ، وسعي الشباب الاحرار في سبيل الانعتاق من نير السلطة المطلقة المستبدة . وولي الدين متأثر في قطعه هذه التي اخترناها ، بفكرة استلهام الحرية من الطبيعة ، ومعلوم انها فكرة روسوية . ويلاحظ ان ببل ولي الدين « يترفع عن تمليق الملوك »

وهو « على ضعفه وصغره بطل الحرية ما اودع قفصاً الا ومات فيه غماً او انتحر يأساً » .
ولن ننسى ، من كبار ادبائنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة الفرنسية ، أمين
الريحاني ، وقد توجنا هذا الفصل بكلمة له تنادي مناداة على صلته الواضحة الوثيقة
بالثورة الفرنسية ومبادئها ، وتكاد لا تخلو صفحة من « ريحانياته » ، في اجزائها
الاربعة ، من أثر من آثار ثورة فرنسا وأعلام مفكرها . ولأمين الريحاني فصل ناقش
فيه كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، ودار في نقاشه حول مسألة تاريخ الثورة
وقضية العنف ، فاثبتناه في باب النصوص من هذا الكتاب ، لقيمته . والذي
يقرأ القصيدة المنشورة التي كتبها الريحاني في الثورة ، اطلاقاً ، ترسم في ذهنه صورة
راسخة من حياة هذا المفكر الجري . وهو لا يفتأ يذكر الظالمين ويردد قوله :
« ألم نقص عليهم قصص باريس ؟ »

ويقودنا الريحاني الى جبران خليل جبران . وقد تأثر هو الآخر بفرنسا الشائرة^(١٠)
واحرار مفكرها تأثراً عميقاً ، الا انه غير ظاهر فيه ظهوره في الريحاني . والارجح ان
ذلك راجع الى ان جبران تعاطى السياسة قليلاً ، وطارت عليه طواري . افكار في
القسم الاخير من حياته ، فلان العصب النضالي في ادبه كما لم يان في الريحاني ، وذهب
مذهب الاكتفاء . بتأملات نفسية حاوة مخدرة . على انه في مطلع سيرته الادبية اعرب
عن ثورية غاضبة ، متسمة بسجات بارزة من الثورة الفرنسية ومبادئها . ويجب بعض
ان ينسوا تلك البواكير القوية التي انتجتها يراعة جبران في اول امره كـ « الاجنحة
المتكسرة » و « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » ، ولكن لها من القوة ،
والحيوية الثورية ، ما يكفل بقاءها . وان الهيئات التي سدد اليها جبران ثورته
تجعلنا في هذه الظروف نؤثر الاقتصار على رسالة له بعث بها الى احدى الاوروبيات
المهتات بشؤون الشرق فراجعها في باب النصوص . اما هنا فنكتفي منه بهذه الفقرات

(١٠) وكان جبران معجباً اعجاباً صريحاً لا حد له ، بما سماه « الذات الفرنساوية » .
وهو القائل : « واغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنساوية ، فقد عاشت في
سنة امام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة » (من كتابه العواصف) . وغني عن
البيان ان الروح الشائرة سمة قوية من سمات هذه الذات التي يتحدث عنها جبران .

النارية المنيرة . قال في مقالته : « يوم مولدي » :
 « قد احببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجهور والهوان ،
 وتوسع بالتسع ادراكي خضوعهم للاصنام المخيفة التي تحتها الاجيال المظلمة ونصبها الجمالة
 المستمرة ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد . لكنني كنت احب هؤلاء العبيد
 بحبتي الحرية ! »
 وقال في مقالته التي كتبها يصف بؤس لبنان وجوعه ، ايام الحرب العظمى الماضية ،
 وعنوانها « مات أهلي ! » :
 « لو ثار قومي على حكمهم الطغاة وماتوا جميعاً . متمردين لقلت ان الموت في سبيل
 الحرية لأشرف من الموت في ظل الاستسلام . »
 عند هذا الحد نقف في عرض الاعلام من مفكرينا وادباءنا الذين انطبعوا بطابع
 ذهني ونفسي عميق من ثورة فرنسا وحرار ادبائها ومفكرها . وكان يمكننا ان
 نطيل السلسلة فنذكر كثيرين ممن لم نذكرهم ، ونقف عندهم ، كروحي الخالدي ^(١١) ،
 وجرجي زيدان ^(١٢) ، والدكتور طه حسين ^(١٣) ، والدكتور حسين هيكل ^(١٤) ،

(١١) وهو من اعلام الفكر والادب الفلسطيني . كان قنصل الدولة العثمانية في مدينة بوردو
 ثم اصبحت بعد الانقلاب العثماني عضواً في مجلس المبعوثان . ألف كتاباً نسباً سماه « علم الادب
 عند الفرنج والعرب وفكتور هوغو » . وقد اثبتنا منه فصولاً في باب « نصوص مختارة » .
 (١٢) وهو القائل في كتاب « رحلة زيدان الى أوروبا » : « هي (يعني آثار فرنسا
 في المدينة الحديثة) كثيرة منها : الحرية واستقلال الفكر . ان للفرنساويين الفضل الاول في
 نشر روح الحرية باوروبة وغيرها . ومقدوة الامم في بث هذه الروح على اثر نصوصهم
 خلع نير الملكية ، والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة . »

(١٣) ألف كتاباً عن حرية الرأي وعن ابطاله فاني بخمسة اقدم يوناني ، هو سقراط ،
 والآخرين : فولتير وروسو ورينان وتين « Taine » ، جميعهم فرنسيون . وقال في فصله
 عن روسو : « لم يقف تأثير روسو السياسي عند انشاء الثورة ، فانتم تعرفون اثر الثورة الفرنسية
 في نشر الديمقراطية في أوروبا ، بل في بلاد الشرق بعد الحرب الكبرى . فحياتنا نحن
 الديمقراطية ، ومذهبنا نحن في فهم الحكم وفي ما نريد من المثل السياسي الاعلى تتأثر بهذه
 الفكرة التي كان جان جاك اول من اشاعها واذاً في كتاب العهد الاجتماعي . »
 (١٤) مؤلف كتاب ضخمة عن روسو .

والاستاذ عبد الرحمن الراجحي^(١٥) ، والاستاذ محمد كرد علي ، وغيرهم وغيرهم^(١٦) . ولكننا اكتفينا بمن سبقوا ، واوردنا لاحد هؤلاء (الاستاذ محمد كرد علي) في باب النصوص من هذا الكتاب ، قطعه الشهيرة عن باريس . وكذلك اثبتنا مقالاً لاحد كتابنا المهاجرين عن الاصلاح والصحافة ، وفيه يعز جلياً كيف كان يفكر مهاجرون متأثرين بعوامل عدة منها الثورة الفرنسية^(١٧) .

(١٥) كاتب مصري سياسي ، له كتاب عن الجمعيات الوطنية ، اصدره سنة ١٩٢٢ ، وقد اراد به ان يقدم « نموذجاً لما تبذله الامم من الجهود في سبيل تحررها من رق العبودية ، ومقاومة الاخطار التي تتهدد كيانها ، وتدعيم حياتها المستقلة على ارقى القواعد السياسية والاجتماعية . » بدأ الكتاب بفرنسا وجميعها ابان ثورة سنة ١٧٨٩ ، واستغرق نصف الكتاب وهو لا يزال يرافق تاريخ الثورة . وتطليب لنا حماسة الكاتب حين يجلو جبين الثورة وعليه هذا القرار من الجمعية الوطنية الكبرى « La Convention » : « ان الجمعية الوطنية الكبرى تعلن باسم الامة الفرنسية انها ثوابي وتساعد كل الشعوب التي تريد حريتها ، وتكلف قواد الجيش الفرنسي بان يمدوا يد المساعدة الى كل ابناء البلاد المضطهدة الذين ينالهم اذى بسبب دفاعهم عن الحرية . »

(١٦) كالاديب الاستاذ سلانه موسى ، مؤلف كتاب « حرية النكر » وفيه يقول : « ليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاسم ، اما حقيقتها فعلية . وانت ايضا القاري . المصري لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر منذ نحو اربع سنوات لوجدت عليه مسحة « حقوق الانسان » التي اعلنتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، ووجدت فيه الفاظاً وعبارات تنم عن هذا الاصل . »

ويمعنا ان نعلم ان الثورة الفرنسية بلغ من احترامها واحترام مفكرها في الادب العربي الحديث ، ان ادلى مثل الامير شكيب ارسلان بثل هذا الاعتراف : « لو فرضنا ان الفائد العام اليوم او الامبراطور او القيصر لا يعود الى الهيجاء ثلاثة او اربعة ملايين ، بل لو اعتبرناه قائدا لجميع سكان مملكته لبعي قاصرا عن جان جاك روسو ، مثلاً ، وهو الذي كان خادماً في احد المنازل ، ثم كان اعظم الاسباب في الثورة الفرنسية التي حمل سبيلها ايضاً بقية الممالك قاتقات لا فكاره الجاهل ولا يزال ينقاد منها الى ما شاء الله . . . »

(١٧) يلاحظ اننا لم نعرض لذكر شعرائنا ، وتأثرهم بفرنسا النائرة واحرار مفكرها . ذلك لاننا رأينا الانصراف الى الشعر العربي ، من هذا القليل ، لا يجدي ولا يشمر كالانصراف

ولما كان الادباء اللبنانيون والسوريون في طليعة من تصدى لتصرفات الحكم العثماني وفي مقدمة من بث المبادئ المنبثقة عن الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، لا سيما مصر ، فقد اثبتنا مقالاً للكاتب الشهير مصطفى لطفى المنفلوطي يؤدي فيه واجب التقدير والاعجاب لاولئك الاعلام الاحرار .

والآن ننتقل الى فصل آخر ، او الى ناحية اخرى من هذا الفصل نفسه ، فنذكر الدروس الفكرية التي تلقاها اديباؤنا ومفكرونا من فرنسا الثائرة واعلام ثورتها .

٢- دروس في الفكر والاصلاح

ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء في نشر العلم ويحتد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا ...

عبد الرحمن الكواكبي

ولكن ما هي الدروس الاساسية التي قبسها اديباؤنا ومفكرونا من فرنسا الثائرة واعلام مفكرها الثوريين ؟ يبدو ان هذا هو المحور الذي يدور عليه كتابنا . وليس من ريب ان ادباءنا ومفكرينا لما اتجهوا بقلوبهم وعقولهم شطر فرنسا الثورية ، كانوا يرمون الى دروس ومبادئ يتعلمونها ، لا الى تأييد دولة في غرض من اغراضها الخاصة .

الى النثر . ومع ذلك فللثورة الفرنسية ومفكرها اصدا. ظاهرة في شعرنا وشرائنا . وقد اثبتنا لاحد شوقي ، في صدر من هذا الكتاب ، اياته القافية الرائعة التي غنى بها الثورة السورية ، عائدا بالذكرى الى الثورة الفرنسية . وحافظ ابراهيم ايات يبيجها ذكرى الانقلاب العثماني ويذكر الثورة الفرنسية ، وسيأتي نص الايات في فصل آت . واذا رجع القارى الى اب « نصوص مختارة » وجد في خاتمتها قطوفاً لطيفة من شرائنا ، وأحسن بصلة تربط هذا الشعر بالثورة الفرنسية ومفكرها السابقين .

أما أول هذه الدروس التي تعلموها فهو فكرة الثورة نفسها . لقد رأوا ان حياة الأمم ربما اعترتها المفسد والظلمات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، ورأوا ان الاصلاح ربما اصبح غير ممكن عن طريق الاقنصاع والنسوية السلبية فآمنوا بوجود الثورة في بعض الاحوال ، ورأوا ، بناء على الانقلاب الفرنسي العظيم ، ان الثورة اذا اجيدت وكانت في موضعها ، اتت بنجيم كثير ، بل خلقت الأمة والبلاد خلقاً جديداً .

واننا لنجد هذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلال عند امين الريحاني ، ولكنه ملموس عند مفكرينا وادباؤنا الاحرار جميعهم . يقول الريحاني ، في رسالة وجهها الى نفسه ، على لسان صديق : « من الحقائق الرائعة : ان الثورة للامة كالحمام للانسان تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط ، ناهيك بالنظافة . فالخود الملازم لحكومات الشرق كلها ، والفساد الذي اعتراها ، والاقدار التي تراكت عليها لا يزيلها غير الحمام ، حمام الثورة العالي . » ويقول ملتفتاً الى الثورة الفرنسية : « في الامة الفرنسية ، من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقى الامم والناس . »

وقد ذهب ادباؤنا ومفكروننا في تعبير الثورة الى شبهه بما ذهب اليه الادباء والمفكرون الفرنسيون ، فاعلنوا ان السلطة والسيادة هما للامة والشعب ، وان الهيئة الحاكمة ليست الا لخدمة الامة والشعب ، وهي مسؤولة امامها ، فاذا هي اساءت التصرف حقت محاسبتها ، فاذا هي اصرت وعاندت جازت ازالتها بقوة السلاح . ولنذهب الى امين الريحاني ، مرة اخرى ، فنقرأ : « الحكومة للرعية ، لا الرعية للحكومة » ، « واول دلائل الحياة الحرة الراقية ان يتمتع افراد الامة على السواء بالحقوق الطبيعية ، فيسمعون دائماً في تعزيزها وينهضون للدفاع عنها عند اتيقيد او تمتين » . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولى ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون يحاولون قتلها (١) . »

(١) تذكر هذه الكلمات بما اذاعته الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣ : متى خرقت الحكومة حقوق الشعب اصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ، واصبحت لكل هيئة منه واجباً لا مناص منه .

ولما كان الريجاني يحاول ان يقيم لنفسه تفكيراً متسلسلاً في موضوع الثورة ، من الوجهة النظرية ، فقد انتقل من ميدان السياسة والاجتماع الى ميدان الحياة كلها ، والطبيعة كلها ، شأن المفكرين الفرنسيين ، فرأى هنا وهناك شواهد على روح الثورة وفعل الثورة ، وانتهى عند هذه القاعدة « ازرع العاصفة تحصد القاصفة » ؛ « ان روح الثورة حية عاملة في دوائر الحياة كلها » (٢) .

وما لبث ان عرض لأدبائنا ومفكرينا السؤال التالي : ان الثورة لا بد لها من عنف وتدمير وسفك دم ، فهل يجوز ذلك ؟ هل توازي الفوائد المرجوة من الثورة ما يرافقها من اعمال القسوة والتقتيل والتخريب ؟

غني عن البيان أن الثورة لم تكن في نظر مفكرينا لهواً ولعباً يصح ان تقدم عليه الامة أو هيئة من الشعب اقدماً اعمى أو أرعن . بل من المقرر ان مفكرينا ، جميعهم ، كانوا يتمنون تلافي الثورة باصلاح عن طريق الاقتناع والتسوية السلمية ، ولذلك رأيناهم ، في برهة النشوة والاغتراب بالانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، يجعلون من مميزاته سرعته ، وحقنه للدماء ، وامساكه للارواح . ويلاحظ ان كلمة ثورة ، بمعناها الحديث ، مستجدة في اللغة العربية . اما التسمية القديمة فهي الفتنة ، وقد تركها مفكرونا الحديثون لتسمية التراءات الداخلية المساحة ، التي يصطدم فيها فريق بفريق سفهاً وتعصباً وهوساً ، عن غير مبدأ ولا فكرة ولا طلب اصلاح او حق . ومنهم من أن أصحاب الاغراض يخلطون بين الثورة والفتنة ، وقل ان قامت ثورة لم يقيم من شئع عليها بانها فتنة وفوضى . و « دائرة المعارف » البستانية في الفصل الذي عقده عن روسو تدعو الثورة الفرنسية « الفتنة العظمى المشهورة » ، كما ان نوفل الطرابلسي في كتابه « سياحة المعارف » يدعوها « الفتنة » ايضاً ، ونعتقد أن للمناخ العقلي الحميدي ، بدأ في ذلك مباشرة او غير مباشرة .

زُيد بهذا ان نعهد للقول : ان مفكرينا الاحرار كانوا يفرقون بين الثورة والفتنة من جهة ، وكانوا من جهة ثانية لا يميزون الثورة الا اذا لم يكن سبيل غير سبيلها . وقد تقرر لديهم ، بناء على شواهد في مقدمتها الثورة الفرنسية ، ان الانقلابات الضرورية

التي تستدعي تحلياً عن امتيازات بطل وجه الحق فيها ، وتستهدف تبديل وضع راهن ، وترمي الى احداث تحويل جديد في مجاري الحياة ، لا تقع ، أو قل ان تقع ، سليمة بقوة الاقتناع والاعتناع وحدها . ولتقرأ ما يقوله جمال الدين الافغاني في هذا الصدد : « والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو اميراً أو دخيلاً بقوته على شعب يرضى عن طيب خاطر ان يبقى ملكاً اسماً وامته هي المالكة فعلاً ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى » ؛ « اذا صح أن من الاشياء ما ليس يوجب ، فاسم هذه الاشياء الحرية والاستقلال »^(١) .

وهنا نفضي الى القول : ان مفكرينا الاحرار ، الذين فرقوا بين الثورة والفتنة ، ورأوا احوالاً يصبح فيها التبديل والتحويل ضرورياً ، وادركوا أن اصحاب الامتيازات وانصار الوضع الراهن ، لهم منطق يعتمد بهم عن فهم منطق طلاب الانقلاب ومريدي الإصلاح ، (بحيث يتعذر الحل السلمي الناجع) ، رأوا عند ذاك ان الثورة ضرورة واجبة . ولما كانت واجبة كان لا بد من قبول كل ما يرافق طبيعتها ، اعتقاداً بأن ذلك مغرم لا مفر منه لمغرم مرغوب فيه . وهكذا أجاب ادباؤنا ومفكرونا عن السؤال الذي عرض لهم فيما يتعلق بعنف الثورات وقسوتها بما يلي : « ان التنديد برجال الثورة والاستيلاء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة ... ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفل يولد في الألم والعذاب ، والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب ، والألم تتألم ساعة الولادة وكذلك الامة »^(٢) .

والذي يستفاد من احدى كلمات اديب اسحق انه لا يحمل الثوار تبعة أعمال العنف التي ترافق الثورات ، بل هو يرى أن ما يأتيه الثائرون ليس سوى رد على فعل سبق ، ويخاطب الجماهير المهالكة بقوله : « ما انتم باصحاب الثورة ، وانما اصحابها الذين يوجبونها بما يظلمون ! »^(٣) .

(٣) شاع هذا القول بصيغة اخرى : « الحرية تؤخذ ولا تعطى » ، « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » ونسب الى غير جمال الدين ، ولكن جمال الدين مصدره الاصل .

(٤) من مقال الريماني في مناقشة كارليل حول قضية العنف في الثورة ، راجعه في بساب النصوص من هذا الكتاب .

(٥) من مقاله : « الثورة » في الدرر .

ولكن مسألة أخرى عرضت لأدبائنا ومفكرينا فيما يتعلق بقضية الثورة ، وكان أهم ما أحدث هذه المسألة وقوع الانقلاب العثماني وإعلان الدستور وانطلاق موجة من الحماسة والفرح أسفرت بعد قليل عن فتور وانقباض . لقد سدد الانقلاب العثماني ضربة إلى سلطة مطلقة هي سلطة عبد الحميد . ولقد صك دستوراً ديمقراطياً يعترف « بحقوق الإنسان » ويؤكد حمايتها . ولقد أقر مجلساً نيابياً منتخباً من الشعب ، وجعل الأمة موئل السيادة ، وأقر مبدأ الحكم الشوري الحديث ، فكان في ذلك كله شيئاً بالثورة الفرنسية . على أنه مع ذلك لم يشر الثمرة المنتظرة^(٦) ، لم يتناول الدولة وحياة البلاد بتغيير عميق ثابت كما تناولت ثورة سنة ١٧٨٩ دولة فرنسا وحياتها .

فما السبب ؟ ما السر ؟ هكذا تسأل أدباؤنا ومفكرونا .

وكان جواب الدكتور شبلي الشميل نافذاً مقنعاً ، فقد رد السبب والسر في تقصير الثورة العثمانية إلى « عدم اشتراك الأمة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار من الثغفي في أول الامر ، وهي اليوم تكثر من العويل ولا تتمدها إلى عمل حازم ، وتخرسها أقل كلمة ، فتورتنا حتى الآن عسكرية اقتصر فيها التغيير على صورة الهيئة الحاكمة ،

(٦) وكان العنصر العربي في طليعة العناصر العثمانية التي أحست بسطحية الانقلاب العثماني . راجع كتاب ثورة العرب بقلم أحد أعضاء الجمعيات العربية ، فتجد فيه ما يلي : « تحققت طبيعة الاستبداد في الأمة العثمانية على عهد الحكومة المطلقة ولم تتحقق طبيعة سلطة الأمة في عهد الحكومة الدستورية ، فلم يستبدل الضعف والتقاطع والتخاذل والذل ، والرضوخ لسلطة الفرد ، بالقوة والاتحاد والعزة وتحقيق سلطة الأمة والتكافل العام على توطيد دعائم الحكومة الدستورية ، حكومة العدل والحرية والاخاء . » وأحسن بذلك أيضاً بعض أحرار الترك كالدكتور رضا توفيق ، فصرح بما يلي : « ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة يفتضى احكام الدستور . » ومما تجب ملاحظته ان الحركة القومية العربية لم تتخذ في مبدأ أمرها شكلاً حركة انفصالية ، بل طالبت باللامركزية وبالاشتراك في ادارة الدولة على اساس ديمقراطي . وقد جمعت الجمعية الاصلاحية البيرونية رأس موادها : « الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . » فيمكن القول ان الحركة القومية العربية الحديثة ولدت في الشوق والسعي الى الديمقراطية .

فلم تغير شيئاً من اخلاقنا ولم تتصل الى علومنا وصناعتنا وتجارتنا .
وضرب شاهداً للثورة التي تشترك فيها الامة اشتراكاً محسوساً ، وتأتي بنتائج عميقة
باقية ، فكان شاهده الثورة الفرنسية .

ويحسن بنا هنا ان نسوق كلام الدكتور الشميل بنصه ، قال : « ان الاجتماع لا
بد له في بعض الاحوال من ثورة تحلصه من خطر الهلاك . ويلزم ان تكون الثورة
صادرة عن استعداد باطن كأنها اتفاق خفي بين اعضائه ، موافقة لامياله ، اي ان تكون
عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والا انقلبت شراً عليه . والثورة التي
تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لانها ليست من افعال الآحاد ، بل هي
عبارة عن تحلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تحلصاً طبيعياً قانونياً . ويلتفت
الدكتور ليلتمس قياساً بقيس عليه ، فيقول فوراً : « كالثورة الفرنسية ، فانه لم يصدها
شيء . ولم يقو عليها شيء . مع انه اعترضتها موانع داخلية وخارجية قوية جداً ، وما
ذلك الا لانها كانت موافقة لميل الشعب وناشئة عن استعداده . »

وذهب الشيخ مصطفى الغلاييني الى شبه ما ذهب اليه الدكتور الشميل فقال :
« ان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجية عنه ، كالجيش
مثلاً ، أو كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر (٧) .
والواقع أن الجيش هو الذي زحف من سالانيك واسقط عبد الحميد وقام وحده
بالانقلاب العثماني . ومع أن رؤساء الانقلاب قالوا في ندائهم الذي اذاعوه على الشعب :
« ان الجيش هو الشعب ، والشعب هو الجيش (٨) » فقد ظل الواقع ان الفرق بعيد
جداً بين انقلاب تحدثه القوات المسلحة وحدها وانقلاب تفرضه الجماهير المتحفزة .
وكان طبيعياً ان يعمد ادباؤنا ومفكرونا ، ولا سيما اثر تجربة الانقلاب العثماني ،

(٧) من كتاب « اريج الزهر » للغلاييني وقد اثبتنا في باب المختارات الفصل الذي
اقتطفنا منه هذه العبارة ، مع قطع اخرى من سائر الكتاب . ونتمنى جداً المعنى نفسه مقالات
للدكتور ايوب ثابت نشرت بعنوان « عبرة وذكرى » وقد اثبتنا منها في باب « نصوص
مختارة » جزءاً غير يسير .

(٨) صدر النص الكامل للنداء في جريدة المشير لسليم سركبس .

الى النظر في قضية الانقلابات الناجمة وخصائصها ومميزاتها ، وفي مقدمة هذه الانقلابات الناجمة الثورة الفرنسية الكبرى . تسأل ادباؤنا ومفكروننا : مَنْ يهيئ للثورة ويقوم بها ؟ ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟

فأما السؤال الاول ، فنرى في جوابه مذهبين : مذهباً يقول ان المفكرين هم مهيئو الثورة وموقدو شرارتها . فالثورة الفرنسية انشأتها ^(٩) افكار جان جاك روسو وفولتير مثلاً . وكتاب « الاتفاق الجمهوري » الذي وضعه جان جاك مؤذناً « بوجوب المساواة هو الذي ادى الى الفتنة العظمى المشهورة ^(١٠) » . ونرى مذهباً آخر يقول : « ان الفرد ائماً هو صوت واحد ينطق باسم ملايين الناس الصامتين ، فالرجل العظيم ائماً هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال ^(١١) » .

وقد سبق لنا في تعليق طويل ، في الفصل الذي عقدناه عن مفكري الثورة الفرنسية في هذا الكتاب ، ان اوضحنا رأينا في قيمة الفكر ودوره في الانقلابات ، وقلنا ما خلاصته : « ان الفكر الثوري ، السياسي الاجتماعي ، اذا هو قاطع او عدم الدعائم المادية الجديدة ، التي تهيئها النشأة التاريخية الحديثة ، لم يكن له وزنه في الثورات والنهضات . فجان جاك روسو اشترك في تهيئ الثورة الفرنسية ، ولا ريب . ولكن اشتراكه في تهيئها كان ممكناً ، لان فكره وافق مطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، وصح ان يكون مرشداً ، وسلاحاً نظرياً لها في ثورتها . ومطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، لم يوجد لها روسو ، ولكن التطور التاريخي الذي قوى الطبقة الثالثة « Tiers Etat » ودفعها الى طليعة المجتمع نفوذاً واهمية ، هو الذي اوجد هذه المطامح ، فعملها واحسها وعبر عنها ، ونبه اليها جان جاك روسو . بل ان روسو نفسه لم يكن الا ثمرة من ثمرات هذا التطور التاريخي ، ومظهراً من مظاهر تلك

(٩) كلمة نوفل الطرابلسي في كتابه : « سياحة المعارف » .

(١٠) من الفصل المعنود عن جان جاك روسو في دائرة المعارف للبستاني ، المعنود بالاتفاق الجمهوري كتاب « Le Contrat Social » .

(١١) الكلمة للريحاني استعملناها في تنويع فصلنا عن مفكري الثورة في هذا الكتاب .

المطامح التي تحركت بها اعماق الامة الفرنسية ، اذ ذاك . فروسو لم يكن ممكناً في فرنسا في القرن السادس عشر مثلاً . »

ولنقل : ان هذا الانقسام النظري لا يزال ظاهراً في تفكيرنا الحديث بين فريقين : فريق يؤمن « ببعقري » او « نخبة مختارة » يفرضون انفسهم وبرامجهم الاصلاحية على الامة ، وفريق يؤمن بامة تناضل بجاهريها نضالاً يشاركها فيه افاذا الرجال ، وتنجب ابناءه الرجال الافذاذ ، وتعلمهم ويعلمونها ، وتقودهم ويقودونها .

ولنقل ايضاً : ان فريقاً كبيراً من ادبائنا ومفكرينا السابقين ، في مطلع النهضة ، ادركوا انهم ، مهما سمحت آراؤهم وطايت مقالاتهم ، لا يستطيعون وحدهم ، كما لا يستطيع زعيم ، ولا تستطيع هيئة كالجليش مثلاً ، ان تحقق انقلاباً عميقاً واصلاحاً راسخاً في امة لم تتيقظ صفوها ، وفي بلاد لم تتم فيها دعائم مادية لبناء الاصلاح .

هذا اديب اسحق ، في فصله عن الثورة ، يتصور جماهير غربية (الارجح انها فرنسية) تشور وتنطلق في تيار الثورة وينتهي الصخب والعنف باستقرار الحرية ، وتثبيت الجماعة الوطنية ، واستتباب وحدة الحقوق ، وانتشار العمران والرخاء . ثم يتصور جماهير شرقية تأتي ما يأتيه الغربيون في ثوراتهم من صخب وعنف ، ولكنها (اي : الجماهير الشرقية) لا تنال بعض ما نال اولئك . والسبب هو ان الشرقيين ، كما عرفهم ، « لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بيئة مما يقصدون . . . فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم . . . » وظاهر من كلمات اديب اسحق : ان الثورة لا تنجح الا اذا انبعثت من جماهير ، جماهير « يقاتلون عن انفسهم » ، اي : يطالبون بحقوقهم ويدافعون عن مصالحهم ، وهم « على بيئة مما يقصدون » ، اي : انهم مدركون واعون ، وليست حركتهم « دعوة لزعيم او عصياناً للزعيم » اي : انها غير قضية شخصية .

وهذا امين الريماني ، يبحث في « الثورة الحقيقية » فيقول : « الثورة الحقيقية ، ونحن من انصارها ، من رسلها ، لنا هي التي يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم . . . هي الثورة التي يتقدمها ري العراق مثلاً وسكة الحجاز وحرية الطباعة والتجارة والتعليم . . . الثورة الحقيقية ، او بالحري الانقلاب العظيم ، هو

الذي يساعد في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون . » وواضح ان امين الريحاني لا يصدق الثورة المرتجلة ، التي لم « يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم . » فاذا قام مفكر او مفكرون ، مثلاً ، تضم افكارهم بذور ثورة ، فان ذلك لا يكفي ، اذ لا بد من (الزمان) الذي يزرع البذور ، ولا بد من (القربة) التي هي القلوب والعقول ، قلوب الناس وعقولهم ، والناس هم الكثرة لا عشرون ولا مئة . ثم لا بد ايضاً من ان تكون البذور صالحة والقربة قابلة ، اي : لا بد من ان تكون الافكار الثورية تجاوب مطالب قلوب الناس وعقولهم ، في العهد الذي تلقى فيه اليهم . وفوق ذلك ، ان الثورة ليست افكاراً في افكار ، ولكنها ايضاً تقوم على دعائم مادية عمرانية ، كسكة الحجاز مثلاً وري العراق ، وتظهر في مظاهر قانونية نظامية تفسح المجال للنشاط الحر في ميادين ثقافية واقتصادية كالطباعة والتعليم والتجارة ، و « تساعد » بالنتيجة « في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون ا »

وفي قول الريحاني : « يتقدمها ري العراق ، مثلاً ، وسكة الحجاز ، وحرية الطباعة والتجارة والتعليم . . . » امر يجب ان يستوقفنا . فوالذي اراده كاتبنا بكلمة « يتقدم » ؟ فالمعروف ان الثورات تقوم لكسب حرية كحرية الطباعة والتجارة والتعليم ، والمشهور ان الثورات تهب خلق ظروف يتيسر فيها انشاء المشاريع العمرانية . فهل قصد الريحاني وهو يتحدث عن الثورة الحقيقية ان يصفها باعتبار ما يكون من نتائجها فذكر في مقدمتها بعض نتائجها ، زيادة في التأكيد ، لكي لا يُخال ان حادث الثورة غاية في ذاته لا وسيلة الى غاية ؟ ام انها فلتة من فلتات القلم ؟

نرجح ان الريحاني اراد ضمناً ان يفرق بين نوعين ، او مرحلتين من الثورة ، فهو في خطبة عنوانها « روح الثورة » ، القاها في « جمعية تهذيب الشبيبة » سنة ١٩١٣ ، يبحث في الاصلاح ، ثم يقول : « ولكن هذا الاصلاح لا يتم بلا انقلاب في الاحكام ، ولا يتم انقلاب بلا ثورة سياسية » ، والذي يقصده بالثورة السياسية استيلاء العناصر الجديدة على السلطة ، تأميناً لظروف يصبح فيها الاصلاح ممكناً ، بل واجباً ، اذ ان الثورة اذا اكتفت بالاستيلاء على السلطة لم تكن في الحقيقة ثورة ، بل

كانت كما قال الدكتور الشميل عن الانقلاب العثماني « تغييراً يقتصر على صورة الهيئة الحاكمة . »

وهذا يخرج بنا الى معالجة السؤال الذي طرحناه سابقاً : ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟ (مع العلم ، طبعاً ، اننا نسوق الحديث عن ادبائنا ومفكرينا ، والدروس التي تلقوها من الثورة الفرنسية) .

يؤخذ من مغزى كلمات الريحاني السابقة ، ومن اقوال غيره ، ان الثورة تتدرج من مقصد الى مقصد ، ومن هدف الى آخر . ويكون احد المقاصد والاهداف في وقت ما هو الغاية ، ولكنه اذا تحقق بات وسيلة الى مقصد وهدف آخر يصبح هو الغاية عندئذ ، وهكذا حتى تتحقق الغاية النهائية .

فاما المقصد الاول ، والهدف الاول ، فهو ان تعمل العناصر الجديدة ، الثورية ، في سبيل « انقلاب في الاحكام » او « ثورة سياسية » او استيلاء على السلطة . ولما كان ادبائنا ومفكروننا يواجهون سلطة مطلقة ، في نظام الحكم العثماني ، لاسيما ايام عبد الحميد ، فقد غلب عليهم رأي الاستيلاء بالقوة على نظام الاحكام^(١٢) . وكان « شاهد » الثورة الفرنسية قدوة لهم . وكان الاستيلاء على السلطة بالقوة معناه ، في نظرهم ، خلع السلطان ، ونصب سلطان يوافقهم ويسلم بطلاب الانقلاب . وقليلون جداً منهم من كانوا يريدون الجمهورية^(١٣) ، فالرأي الاعم الاغلب كان طلب الملكية ، او السلطنة المقيدة بالدستور .

فاذا تم الخلع ، ونصب السلطان الجديد ، اعلن الدستور ، واطلقت الحريات الديمقراطية المعروفة ، ودعيت ارضية الى انتخاب مجلس نيابي يمثلها ويشارك السلطان الحكم .

ولكن هذا كله ليس الا مرحلة من المراحل ، بل هو بدء الطريق . هكذا قالت طليعة من ادبائنا ومفكرينا رأيت ان الانقلاب العثماني وقف عند هذه الغاية .

(١٢) لم ينشأ بينهم خلاف حول قضية الوصول الى الحكم عن طريق القوة او البرلمان ، مثلاً ، لانهم كانوا يطالبون ببرلمان .

(١٣) كان من رأي جمال الدين الافغاني أن الشرق في زمانه لا يصلح له الجمهورية .

فلقد نسخ الانقلاب العثماني الصفحة الاولى من الثورة الفرنسية واكتفى . ولم تكن له جماهير تؤيده في الشوارع كما كانت الحال في الثورة الفرنسية .
 وكان الدكتور شبلي الشميل وامين الريحاني وغيرهما في مقدمة الطليعة من ادبائنا ومفكرينا الذين لمسوا التقصير في الانقلاب العثماني وأحسوا طبيعته السطحية ، وادركوا ان الانقلاب يجب ان تكون له اهداف ومقاصد تعليمية ثقافية ، وصناعية زراعية تجارية .
 ان اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي انما هو اصلاح - اذا وقع كما وقع -
 الانقلاب العثماني بقوة الجيش واشتراك فئة قليلة - لا تتم فائدته الا اذا سيق الى اذهان الشعب بالتثقيف المتواصل المخلص ، والا اذا طهر جهاز الدولة القديم ، فان موظفاً قبل الدستور يعمل بروح ما قبل الدستور ، لا يتقارب بسرعة ما تصله القوانين الجديدة والتعليمات الجديدة .

كان هذا رأياً في نقد الانقلاب العثماني أخذت به الطليعة من ادبائنا ومفكرينا ، فدلّت على انها فهمت طبيعة ذلك الانقلاب السطحية ، وأكدت - كما اكد مفكرو القرن الثامن عشر في فرنسا - ضرورة تعليم الامة وتنقية جهاز الدولة وتربية القائمين باعمال الحكومة تربية جديدة .

١٠ من حيث الصناعة والزراعة والتجارة ، فاعمل الرأي الاقتصادي السائد كان يعتبر نشاط الدولة في انشاء الصناعات امراً غير مرغوب فيه ، بل محظوراً ^(١٤) . وهو رأي مستعار من مفكري النهضة الصناعية الاوروبية الحديثة ، في مفتتح شأنها ، ومستعار ايضاً من الثورة الفرنسية واعتمادها - بالنتيجة - على قاعدة ما نسميه « الاقتصاد الطليق » .
 غير ان دولة كالامبراطورية العثمانية تأخرت في احداث انقلابها الدستوري الى اول القرن العشرين ، وهي جد متأخرة في بنائها الاقتصادي - نصف الاقطاعي - وعرضة لماّرب الدول الاستعمارية ما كان لها ان تكتفي بالنشاط الفردي في ميدان الصناعة (لاسيما الصناعة !) والزراعة والتجارة اعتقاداً منها بان مجرد اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي كنبيل بسير كل شي . على ما يرام . فالنشاط الفردي ، الاقتصادي ، واطلاق

(١٤) راجع في باب النصوص فصلاً بعنوان : « وجوب حرية الانشاء الاقتصادي من تدخل الدولة » وهو فصل اجترأناه من كتاب « محاكمة مدحت باشا » نريب : ختانه .

الحرية لهذا النشاط الفردي، كل ذلك واجب ومثمر ايضاً، الا انه وحده لا يكفي
للاوثب بدولة افقت متأخرة على السباق الاقتصادي العالمي .

على اننا قد نكون ، هنا ، جاوزنا بعض الشيء . ما قاله ادباؤنا ومفكرونا في نقد
الانقلاب العثماني . والواقع ان ثقافة ادباؤنا ومفكرينا ، من الوجه الاقتصادي ، كانت
ولا تزال ضعيفة في الغالب . ولكن يجب القول : ان ادباؤنا ومفكرينا اذا كانوا قد
«الوا الى مذهب الاقتصاد الطليق ، وآثروا ان ترفع الدولة - ولو كانت منبثقة من الامة -
يدها عن البناء الاقتصادي ، فقد ادركوا كل الادراك ، هذه الحقيقة الاساسية وهي :
ان وجود حكومة شورية ، (او دستورية او ديموقراطية) ، تطلق الحريات وتحميها ،
حاجة اولية لا بد منها لتقدم الشعب ونهضة البلاد .

وهكذا دعوا الى العناية ، وايدوا الاهتمام الكلي بمسألة السلطة ، لانها مفتاح كل
شيء . وكأنما جعلوا شعارهم ان « المرء الذي لا يكتث لامور حكومته يعد
خاملاً »^(١٥) . ووجهوا الفكر والادب الى السياسة والاجتماع ، شأن الاعلام الفرنسيين في
القرن الثامن عشر ، ورائدعم الحرية السياسية التي هي « العافية المفقودة » كما سماها
عبد الرحمن الكواكبي في طبائع الاستبداد .

وبتصور اديب اسحق فريشاً يقول له : « دع السياسة لاهل الرئاسة ، فهم
فيها احق ، وبها اعلم ، وعليها اتدر » . وقد اراد اديب اسحق ان يعرض بنوع
من ذهنية تعتقد ان السياسة وقف خاص او احتكار ، وراح ينقض هذا الرأي
فقال : « الف الكاتب الفرنسي روسو كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة ، وشعر من
اهل زمانه ببطل ذلك الاعتراض فأجاب : يقولون أنت امير ام انت حاكم لتكتب في
السياسة ؟ واقول لا . ولكنني من اجل هذا كتبت ، فاني لو كنت اميراً او
حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان افعل ، بل كنت افعله او السختم
السكوت »^١ ويستأنف اديب اسحق كلامه فيقول : « من حقوق الانسان الطبيعية
بل من واجباته ان ينظر فيما يسه وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال
الاجتماعية . ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نواميس الطبيعة

في حالة كونه لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها ، فكيف يحظر عليه النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان ؟ »

وينظر كاتبنا الى الفلاسفة ، فلا يعترف بانها « مخصوصة بطائفة من الناس دون الآخرين » . ثم يقول : « ان الامم خرجت من خطوة الفنية ... وانتقلت من دور الطفولية ، وسئمت انفسها الغذاء من لبن الخرافات والرموز ، فلا بد لها من العلم بالحقائق السامية كما تعلم المعارف الدانية ، فقد اذف الوقت الذي يخرج فيه عن صفة الانسانية من لم يكن عارفا بكل ما اكتشفه عقل الانسان » . ويذهب كاتبنا الى التصريح بان الفلسفة اداة ، او يجب ان تكون اداة من ادوات الكفاح الثوري في شؤون الاجتماع وقضايا السلطة ، فـ « تأثير (علمها) غير منحصر في المعلومات الانسانية ، ولكنه يتجاوزها الى هيئة الاجتماع فتظهر فيه آثار تغيره (اي : الاجتماع) بظواهر من ثورات الاخطار وتجليات الالباب » . ولا بدع في ذلك فهو (اي : علم الفلسفة) علم الانسان ، فلو قدر ان يكون من نتائجه الحكم بكون الناس نوعين اثنين احدهما للامر والسلطة ، والآخر للطاعة والانقياد ، لازم من ذلك ان يكون في الارض ظلام لا يرحمون وعبيد لا يأتقون . ولو فرض ان تلك النتيجة قد هذبت فيه واعطت فلم تقض الا بان يكون في كل جمعية مدنية فريق يتدبرون الأمور عن الكفاية ، وان تكون الكفاية وفقاً على خدمة ذلك الفريق ، لحصل من ذلك مبدأ الامتياز الارستوقراطي القبيح لزوماً . »

ويلتفت اديب اسحق الى الكتاب فيجرهم الى المعصية ، ويريدهم مكافحين مناضلين ، ويجعل من واجباتهم « السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات وقيد القوانين » .

ووجد اديباؤنا ومفكرونا انفسهم امام قيم ومثل ومقولات جديدة ، شاعت على الالسنه والاقلام ابان الثورة الفرنسية ، وتناقشتها الافواه والقراطيس في الشرق العربي . فقد طفق الناس يتحدثون عن « الوطن » و « الوطنية » و « الامة » و « القومية » و « الحرية » و « المساواة » و « الحقوق الطبيعية » وشؤون اخرى ، فكان النظر فيها

واجباً على ادبائنا ومفكرينا .

١٠ الوطن ، فلا نعلم أن احداً من طلائع ادبائنا ومفكرينا ، حاول البحث فيه كما حاول اديب اسحق . وقد اثبتنا له في باب النصوص من هذا الكتاب قطعتين تدوران حول الموضوع . ويلاحظ ان اديب اسحق بنى على المفكرين الفرنسيين قبل الثورة ، وأيد نفسه بقول من « لافرويير » : « لا وطن في حالة الاستبداد » . وخلاصة رأي كاتبنا في موضوع الوطن أنه « خير وحدة » يرجع اليها المواطنون و « يجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً » ، ولا بد للوطن - حتى يكون وطناً بصحيح المعنى - من حرية وحقوق وواجبات تسري على الجميع ، فـ « ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى » (١٦) .

والوطنية هي حب الوطن ، والمواطنين ، مع ما يستدعي ذلك من الخدمة والتضحية ، والفداء . في بعض الاحيان . وقد تطرق اديب اسحق الى بحث الوطنية ، فاثبتنا بحثه في باب النصوص . ولاحمد فارس الشدياق فصل ممتع في نقد الوطنيين الزائفين ، اثبتناه ايضاً وهو يشف عن روح الرجل الفكهة ، اللاذعة ، وقرايتها من « رابليه » و فولتير (١٧) . وبديهي أن ادباءنا ومفكرينا انصرفوا الى تعزيز الشعور الوطني وتقويته ، واعتبروا

(١٦) هذه العبارة الاخيرة مأخوذة من مقالته في الدرر : « امانى » .

(١٧) لا نظن ان احمد فارس الشدياق كان متأثراً متأثراً مباشراً بالثورة الفرنسية ، ولم يكن طبعياً ان يشيد بالثورة وهو في ظل عبد الحميد . غير ان حملته على سلطة معينة في لبنان ، وبراعة سخره ، واستنكاره لاحراق الكتب (وكان شديد الخوف من ان يمحروا كتابه الفارباقي) ، كلها عوامل اثرته مقلته فولتيرية في ادبنا ، وجعلته من دغاة حرية الرأي والفكر . وقد يقال ان الشدياق كان مسوقاً الى ثورته بدافع فاجعة عائلية ، مسته في الصميم (فاجعة اخيه) ، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من نتيجة الحكم بشوريته . والذي يؤخذ من آثاره انه كان معجباً جداً باعلام فرنسا المفكرين ، وفيهم يقول :

وكم قانع منهم وما بارح الحسى
كتائبه اقلامه والفراطيس

ولئن يكن كتب فصلا في « كشف المخبا عن فنون اوروبا » تناول فيه كومين باريس ، سنة ١٨٧١ ، وانحرف بتيار الاحكام التي لا تزال سائدة بحق الكومين ، فذلك لا ينقض انه كان معجباً بـ « الفعلة » في باريس ، كما سعى العمال في « الفارباقي » .

الوطنية خير جامعة يجمعون بها صفوف الامة لحمايتها وانهائها . وما كاد الشيخ عبد الله النديم يطرح هذا السؤال الذي جعله عنوان احدى مقالاته : « هذه يدي في يد من اضعا ؟ » ، حتى اجاب في اول سطر من المقالة : « ضمها في يد وطنيك ! »
 اما الامة ، فيبدو لنا ان ادباؤنا ومفكرينا لم يطيّلوا الوقفة عندها ، وسبب ذلك - على ما نرجح - أن معظم ادباؤنا ومفكرينا الاول كانوا يأخذون بالجامعة العثمانية^(١٨) . ومفهوم ان امبراطورية الساطان العثماني لم تكن تتألف من امة واحدة . فاذا استعمل ادباؤنا ومفكرونا لفظ الامة تجوزوا فيه وتوسعوا . والواقع ان تعريف الامة ، في الفكر العالمي ، لا يزال الى اليوم موضوع جدل كثير . وفي باب النصوص . من هذا الكتاب ، بحث قصير لاديب اسحق ، حاول فيه تحديد الامة فجعلها « الجماعة من الناس » « تتجنس جنساً واحداً » و « تخضع لقانون واحد » و « تتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه » . اما « وحدة اللغة » فاستحسنها^(١٩) ، ولم يذكر الرابطة الدينية مطلقاً^(٢٠) . وعنى بقوله : « تتجنس جنساً واحداً » ان ليس من الضروري ان تكون الامة من اصل واحد في النسب ، لان التقلبات التاريخية ادت بمعظم

(١٨) راجع العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث جزء ١ (العوامل السياسية) لانيس الحوري المقدسي .

(١٩) ان وحدة اللغة ضرورية للامة . ولكن ادب اسحق كتب في العهد التركي ، ولم يكن في الامبراطورية لغة واحدة ...

(٢٠) خالف ذلك نفر قليل من مفكرينا ، جعلوا وحدة الدين من شروط الامة . واستندوا الى قول القرآن : « كنتم خير امة اخرجت للناس ... » وقالوا انه يقصد بالامة المسلمين . على ان القرآن استعمل كلمة الامة في موضع آخر ، فقال : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ... » وظاهر ان الامة هنا لا يمكن ان يكون معناها المسلمين ، بل الجماعة . وبما يسب الى الرسول قوله في قس بن ساعدة : « يبعث امة وحده » وقبل ان معناها هنا : الطريقة . وقد قصد الرسول : ان قساً كانت له طريقة اخرجته عن حكم ما سبق (اي : الجاهلية) ولما لم يدرك الاسلام فقد لبث امة (اي : طريقة) وحده . وعلى هذا فالطريقة - الطريقة الواحدة ، او المتشعبة في الحياة والعادات ، مثلاً - عنصر مندرج في معنى الامة . ولكن يجب ان لا ننسى ان الالفاظ نكتسب ، باختلاف الاحوال ، معاني مستحدثة ، فتنبه استمالاتها الجديدة باستمالاتها القديمة يورط في الاخطاء .

البشرية الى الاختلاط والتأزج . ولا ريب ان اديب اسحق وفق الى الصواب في النقاط التي ذكرها ، وكان موقفاً ايضاً في سكوته عن الرابطة الدينية . والذي يمكن استنتاجه من فحوى كلامه : ان الامة هيئة تتكون تاريخياً (يكونها التاريخ) ولا توجد في اصل الخلق . وانها حقيقة من الاهمية بكان عظيم . على ان اديب اسحق غفل في تحديد الامة عن بعض نقاط اساسية ^(٢١) .

اما كلمة القومية ، فكان استعمالها قليلاً جداً ، في إبان انتشار فكرة « الجامعة العثمانية » ولم تشع الا بعد نهضة فكرة العروبة ^(٢٢) . والقومية اسم لشعور وفهم بنيا على النسبة الى القوم . وقد ذهب اديب اسحق الى ان « الامة من الرجل هي قومه » . ومعنى ذلك ان كاتبنا جعل القوم الامة ، والامة القوم ، فتكون « القومية » من « الامة » بمثابة « الوطنية » من « الوطن » . وهذا هو المعنى الاغلب الذي قصده ويقصده اكثر كتابنا وادباؤنا بالقومية ، مع العلم ان بعض الفوضى لا تزال منتشرة في استعمال هذه الكلمات التي لم تعين مدلولاتها الحديثة تعييناً واضحاً في لغتنا وادبنا . ويمالج ادباؤنا ومفكرون موضوع الحرية ، وكاهم مجمعون على انها الضالة الحبيبة المنشودة ^(٢٣) . ومن الخير انهم لم يقفوا في امرها عند حد المدح والثناء ، بل اعمالوا

(٢١) اوفى تعريف اطلعنا عليه للامة هو قول ستالين : الامة ١ - جماعة ثابتة من الناس ، (اي : احكام ذاتها عرضاً بشجاع موقت في النتج كمبراطورية الاسكندر) ، ٢ - مؤلفة تاريخياً (اي : تكونت بمر التاريخ) ، ٣ - لها لغة مشتركة ، ٤ - وارض مشتركة ، ٥ - وحياة اقتصادية مشتركة ، ٦ - وبنيان نفسي مشترك ، يجد تعبيراً له في الثقافة المشتركة . . . ان اجتماع كل هذه السمات هو وحده الذي يوجد الامة . (كتاب المسألة الوطنية) .

(٢٢) راجع كتاب « ثورة العرب » بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، فنقرأ فيه ان الاختبارات للمرة « اظهرت للعرب كافة ان اتفاقهم مع الترك كان شراً عليهم لانه لم يكن قائماً على اساس القومية » . ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢٣) « ايها الحرية ، يا مصدر كل امر جليل في الارض ، لقد علمنا انه لا نجاح بدونك ، ولا سعادة مع البعد عنك ، فان الامة الحرة تكون كنز مقيم يسير رافعاً رأسه ويتشوق ملء صدره الى الهواء النقي ، ويسرح في المرعى النضير . اما الشعب المستعبد فهو كقفس مستعبد يدور حول الرمح مغمض العينين يسير السنة بتمامها ولا ينتقل من مكانه » - اديب اسحق .

الفكر المحلل ، وكانت القاعدة التي بنوا عليها ما ورد في « بيان حقوق الانسان » :
 « حد الحرية انه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط ان لا يؤذي غيره . » واتفقوا
 على ان لا بد للحرية من قوانين نافذة ، فهم بذلك قد ماشوا مونتسكيو ، ولكنهم ،
 بلسان اديب اسحق ، اخذوا على مونتسكيو « ذهوله عن ماهية القوانين . » في
 واشنطن قانون وفي طهران قانون . وكذلك الامر في لندرا وبكين . ولكن التقيد
 بالقانون في طهران وبكين لا يعني الحرية ، كالتقيد بالقانون في واشنطن ولندرا .
 والسبب راجع الى ماهية القوانين ، في واشنطن ولندرا دستور وشورى وديموقراطية ،
 بينما في بكين كانت تنفذ ارادة الامبراطور المطلق ، وفي طهران كانت تنفذ
 ارادة الشاه المطلق . واذن ، فالحرية هي التقيد بقوانين يشترك الشعب في وضعها
 عن طريق ممثليه . وفي هذا عرق من روسو نجده في ادبائنا ومفكرينا .

وكما سعت الثورة الفرنسية وسعى اعلامها الفكريون الى حرية الرأي والعقيدة
 الدينية والبطاعة والخطابة والانتخاب ، وحرية التصرف بالاملاك وتنظيم الجمعيات ،
 وحرية الشخص الانساني بحيث لا يُقبض عليه ولا يسجن ولا يحاكم ظلماً ، كذلك
 سعى ادباؤنا ومفكرونا الى هذه الحريات اجمع ، في مدى قانون يحميها ويضع لها حداً
 تقف عنده هو الاضرار بالغير وبالمصلحة العامة .

وكما رجع اعلام الفكر الفرنسي الثائر الى الطبيعة يؤيدون بها مذهبهم ، كذلك
 رجع ادباؤنا الى الطبيعة ايضاً .

وجميل ان نعيّر التفاتة خاصة الى مفكر عربي خرج عن نطاق الحرية المدنية
 والسياسية (وكل ما ذكرناه سابقاً يدخل في هذا النطاق) فسر موضوع الحرية
 فلسفياً . ذلك المفكر هو فرنسيس فتنح الله مراش الحلبي ، فقد رأى ان بناء
 الحرية على الطبيعة مذهب سطحي . فالطبيعة كلها قواعد ونواميس تضبطها
 في حركاتها وتطوراتها ضبطاً حديدياً . فأن هي الحرية في الطبيعة اذن ؟
 ولكن المراش لم يخلص من هذا الى الفناء . الحرية ، بل كان مؤدى فكرته ان
 كل شيء في الوجود الطبيعي لا يمكنه ان يكون حراً الا اذا خضع لقواعد
 ونواميس هي ضرورية كافلة لوجوده . ومعنى هذا : ان لا حرية الا مع القيام

بالضرورات ، لا حرية الا مع اتمام الحاجات التي لا بد منها . فالحرية ليست ، فقط ، حقوقاً نرغب فيها ، وهي تضمن لنا بمجرد قانون نضعه ، ولكنها ايضاً واجبات لا بد من الوفاء بها حتى تحقق الحقوق . ولذلك لم ينظر المراس في الوجود الاجتماعي والمدني ، الى مجرد الرغبة في الحرية ، والى مجرد قانون يُزال او قانون يوضع ، بل نظر ايضاً الى الضرورة ، وقرر ان اطلاق الحرية بالفا. كل قيد لا حاجة اليه هو قانون صواني . ولرب قائل يقول : ولكن من يثبت ان هذا القيد ، او ذاك ، بات ولا حاجة اليه فيجب الغاؤه ؟ وليس من شك ان المراس فطن الى مثل هذا الاعتراض ، وعرف ان القيد اذا أصبح عائقاً للتقدم لا ضابطاً يخدم نظاماً صالحاً ، فلهشورة عند ذلك محلها اللاتق ، فأيد المراس الحرب الاهلية الاميركية التي وقعت في زمانه لتحرير العبيد ، مع انه علم ان كثيرين كانوا في اميركا لا يزالون يجادلون في وجوب استعباد الرقيق ويدافعون بالسلاح عن هذا الحق . ومن اقوال المراس : ان الكون لا يزال مملوئاً برائحة البارود في سبيل الحرية . ومن معاني الحرية التي نظر اليها بعض كتابنا وادباؤنا : الحرية النفسية ^(٢٤) . والمقاصد بهذا النوع من الحرية كثيرة . فمنها ما يتصل بالاخلاق ويرجع الى التربية . واديب اسحق بناء على روسو وكتاب « اميل » قد ادرك شدة الحاجة الى الحرية في التربية ، وعرض بالذين « يربون الاولاد كما تضرب الدراهم » ، درهم منسوخ عن درهم . ولكن من الحرية النفسية ما قد يعني اكتفاء الانسان بمحض الاعتقاد انه حر ، وتلك حرية الوهم . ومن الحرية النفسية ما قد يعني استغناء الانسان بنفسه ، وانسلاخه عن محيطه ، تحرراً من الواقع وتوصلاً الى شهود النيب ، وتلك حرية لا تدخل في بحثنا ^(٢٥) .

(٢٤) كما سماها الدكتور سلبان غزالة في كتابه : الحرية .

(٢٥) عرض المفكر العربي الكبير ، ابو اسحق النظام المعتزلي ، الى جماعة « هجروا الديار والاولدان واقبلوا على اكل المشيش وساكنته الجبال ومرافقة الوحوش ، فغف دماغهم واخذهم المالبخوليا ، فتمجلوا بالمعد السوداء وذهبت اعمالهم هباء ولم يحصلوا الا على سراب يحسبه الظآن ماء . » (مفيد العلوم للخوارزمي) ، وهو كلام شديد الانطباق على جماعة « الحرية »

ونالجب ادبائنا ومفكرونا قضية المساواة ، وفهموها كما فهمتها وأقرتها الثورة الفرنسية ، اي : مساواة امام قانون واحد ، يسري على جميع المواطنين ، يمثلون كلهم امامه ، لا فرق بين غني وفقير ، وضعيف وقوي ، وابناء مذهب ومذهب^(٢٦) . ومن يراجع آثار الطلائع من ادبائنا يجدهم جميعاً كثيري الالتفات الى قضية المساواة . ذلك لان الامبراطورية العثمانية كانت مبنية الاحكام على الدين والتفريق في القضاء بين ابناء المذهب والمذهب ، يضاف الى ذلك نقائص صارخة ، كهضم حقوق الطبقات الهابطة في السلم الاجتماعي ، ومحاربة الطبقات ارفيعة ، ومراعاة « المحسوبيات » ، وشيوع الرشوة ، وما اشبه . وقد اتخذ التدخل الاجنبي حجة من هذا كله ، لفرض محاكم خاصة تنظر في قضايا الاجانب ، ونجح في استغلال الاستياء المشروع الذي كانت تبديه عناصر مختلفة في البلاد . فكان من الطبيعي ان يشتد طاب ادبائنا ومفكرينا للمساواة ، حرصاً على مماشاة الرقي وانصافاً لجميع المواطنين ، وقطعاً للتحجج الاستعمارية . وتفرعت من قضية المساواة لدى ادبائنا ومفكرينا مسألة الرجل والمرأة وهل يتساويان ؟ وقد القى الدكتور شبلي الشميل محاضرة جنج فيها الى ترجيح جانب

الذين يستهدفون شهود النيب . وغني عن البيان ان حرية الشهود في البراري ، والنسك ، والرياضات الروحية قليلة الجدوى الاجتماعية والسياسية ، وهي رد فعل انزامي امام الظلم ، ولكنها ليست ، احياناً ، اشخاصاً يروعنا سوء الخلق وتفاوتهم النفسي كبن ادم . (٢٦) نستطيع ان نسوق شواهد لا حصر لها في هذا الباب . ولكننا نكتفي بشاهدين من ادب اسحق والمراس . قال ادب اسحق : « اما حقيقة المساواة ان نكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، يعني ان تجرد النصوص الحكمية من كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنتزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون الآخرين ، وتظهر من كل ما يشف عن شيء من ذلك ان يؤدي اليه ، فتكون امن الخائف وملاذ الفاعز وصفة المظلوم وسدا سديدا في وجه الجري . » وقال المراس : « ان اعظم المظلمات لصحة السياسة واقامة الحق ، هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون ادنى امتياز بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى النفسي والاعراض عن الفقير . ولا موازنة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق . » (راجع نتمتها في باب النصوص من هذا الكتاب) .

الرجل ، فكانت موجة قوية من الاخذ والرد . وسبق لأديب اسحق ان نظر في الموضوع ، فشخص الى هيكل وحيه ، الى الثورة الفرنسية ، فرأى - على تعبيره - ان « روبسبير رسول المساواة الكبير . . . نسي نصف النوع الانساني » . وبالفعل ، ان الثورة الفرنسية لم تعترف للمرأة بحق مساواة الرجل ، وكان اعلام مفكري الثورة ، لاسيا روسو ، متحاملين على المرأة . الا ان اديب اسحق قرّر ان « المرأة غير الرجل » وبذلك ترك الباب مفتوحاً ، فلم ينف مساواتهما ، كما انه لم يثبتها . واذا خرجنا عن موضوع المساواة وجدنا ادبانا ومفكرينا جميعاً يعترفون بسمو مكانة المرأة وبوجوب احترامها وتعليمها وانهاضها . ومن هنا شاع على ألسنتهم القول : الامة نسيج الامهات !

اما النظر الى الطبيعة والتعلم منها ، شأن اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر ، فهو سمة بارزة من سمات ادبائنا ومفكرينا . وقد مر معنا كيف ان فرنسيس المراس رأى ان بناء الحجة ، في وجوب الحرية ، على شاهد الطبيعة مذهب لا يخلو من السطحية ، وكان فرنسيس المراس في ذلك اعظم من غيره . إلا ان ادبانا ومفكرينا - على وجه عام - اتجهوا الى الطبيعة اسوة بالمفكرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، واستخلصوا ، كما استخلص اولئك ، ان الحرية والمساواة وسائر المطامع الانسانية انما هي حقوق اثبتتها الطبيعة للانسان . واذن ، فقد كان مبدأ الرجوع الى الطبيعة له منزى سياسي اجتماعي ، وتلك هي أهمية هذا المبدأ بقطع النظر عن خطاه او صوابه . فاديب اسحق ، مثلاً ، حين يقرر الحرية الطبيعية لا يقف عند حد التقرير ، ولكنه يرسل الصيحة الى النضال فيقول : « كل ما يذهب بالحرية الطبيعية تعقيداً او إضعافاً او محوّاً كلياً ، فهو اختلاس او جهل بانهية الوجود ، لان العبودية ، اما ان تكون اجبارية ، فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود ، واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعى قاب يخرج بهما عن ان يكون انساناً . »

يضاف الى ذلك ان التوجه الى الطبيعة كان له أثر مبارك في حقن ادبنا وادبائنا بدم جديد . فانهم لما خرجوا الى جو الطبيعة الطلق بدأوا يخرجون عن الكتب

والتقيد بالقواعد المرسومة في الاساليب والافكار . هذا المنفلوطي يهتف بالشاعر داعياً اياه الى التفلت والانطلاق :

« انت كالطائر السجين في قفصه ، فزق عن نفسك هذا السجين الذي يحيط بك وطر ينجاحيك في اجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت في جنباته واكنافه ، واهتف باغاريدك الجميلة فوق قمم جباله ورؤوس اشجاره وضاف انهاره ، فانت لم تخلق للسجين والقيد ، بل للهتاف والتفريد ! »

وهذا جبران خليل جبران يحاول دفع الناس الى الاحساس باليون الشاسع بين حالتهم والحالة الطبيعية ، ويدعوهم الى الحرية ونور الشمس :

« امام عرش الحرية تفوح الاشجار بمداينة النسيم ، وامام هيتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . على مسامع الحرية تذبذب العاصف ، وحول اذيالها ترفرف بقرب السواقي . في فضاء الحرية تسكب الزهور عطر انفاسها ، وامام عينها تبسم لمحي الصباح . اما البشر فجرومون هذه النعمة لانهم وضعوا لارواحهم الآلهة شريعة عالية محدودة وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، واقاموا لايالهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم وعقولهم تبراً عميقاً مظلماً . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متمرّد شرير خليق بالنفي ، وساقط دنس يستحق الموت . ولكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة الى انقضاء الدهر ؟ ام تحرره الايام ليحيا بالروح وللروح ؟ ايبقى الانسان محبداً بالتراب ؟ ام يحول عينيه نحو الشمس ليحيا بنورها ويحترق بنارها ؟ »

واخلاصة ان مبدأ الرجوع الى الطبيعة يعني في الحقيقة ان الانسان ينظر الى الطبيعة فيفيض عليها حياة من حياته ، ويقعها مقام المشارك له في عواطفه وافكاره وامانيه . وهذا هو جوهر الرومانتيكية . الا ان من الرومانتيكيين من يتصور الحالة الطبيعية - وهي الحالة المثلى - ويرى ان لا امل في العودة اليها ، فيعتبر نفسه ، والانسان جملة ، شبه بلاك طرد طرداً نهائياً من الفردوس ، فهو حزين كئيب والطبيعة حزينة كئيبة ^{٢٧} . ومن الرومانتيكيين من يشهد الفرق بين اخالة الطبيعية

(٢٧) ترك هذا النوع من الرومانتيكية اثراً بليفاً في عدد من ادبائنا ابرزهم المنفلوطي .

— الحالة المثلى — والحالة الراهنة ، فيرسل الصيحة الى النضال . ولئن كانت هذه الصيحة مبعثها في الغالب شعور يحسّ الهدف ، ولا يرسم طريق الوصول ، فإنها مع ذلك خير من رومانتيكية الندب والعيول .

بقي معنى لا بد لنا من ذكره ، يقصده اديبنا ومفكرنا حين يقولون : « الطبيعي » . فلقد نظروا في اشياء الطبيعة وتصرفاتها ، فاذا بهذه الاشياء والتصرفات لها خصائص ونواميس تسري عليها . فالحجر اذا افلت من فوق وقع الى تحت ، وهذا طبيعي . والفحم اذا تمت فحميته اسود ، وهذا طبيعي ايضاً . ونظر اديبنا ومفكرنا في السياسة والاجتماع فاذا للامور والتطورات السياسية والاجتماعية خصائص ونواميس تسري عليها . فالاستبداد ، مثلاً ، اي : « حكم الحاكم بامر » كما عرفه الكواكبي ، له في صفاته ومساكنه طبائع ملازمة له . ومن هنا كان عنوان كتاب الكواكبي « طبائع الاستبداد » . ولا يجوز القول بان اديبنا ومفكرنا قبسوا هذا الاستعمال من اعلام الفكر الفرنسي وحدهم ، فقد سبق اليه ابن خلدون اذ يقول ، مثلاً : « من طبيعة الملك الانفراد بالمجد »^{٢٨} .

ولم ننس الى هذا المعنى من معاني « الطبيعة » و « الطبيعي » ، لبين محض طريقة من طرق استعمال الكلمة ، ولكن لنظهر ما وراء ذلك من صحة وعمق فكر . فان معرفة اديبنا ان الامور والتطورات السياسية والاجتماعية — كالانظمة واشكال الحكم والانقلابات — لها طبائع مخصوصة لما هي معرفة ثمينة تمكننا من انتظار ما يجوز ، او يجب انتظاره ، في شأن هذا الضرب من ضروب السياسة او هذا النوع من انواع الاجتماع . فاذا كنا امام « حاكم بامر » توقعنا الاستبداد والجور لان ذلك طبيعي ، ولم يحق لنا ان نتوقع زوال الاستبداد والجور الا بتغيير النظام الذي يحكم فيه حاكم بامر ، لان طبيعة الشيء لا تتغير الا بتبدل الشيء . نفسه ، فالفهم لا يخرج عن الفحمة اذا دهن بالطلشور ، ولكنه يتقلب اذا صار ماساً .

وهناك درس آخر افاده اديبنا ومفكرنا من الثورة الفرنسية وعلامها الفكريين ، ذلك هو فصل الدين عن الدولة . وقد شامت بعض الجهات في الثورة الفرنسية ان

تتدخل في امر الدين ، فترسم للناس عبادة جديدة هي عبادة العقل ممثلاً في امرأة ، ولكن الرأي الاخير قرأ على ان يفصل الدين عن الدولة ويحال بين السلطات الروحية والتدخل في الشؤون الزمنية . وصحيح ان عدداً من ادبائنا ومفكرينا كالشدياق في « الفاريق » ونوفل الطرابلسي في « سياحة المعارف » وقفوا موقف المستنكر من الثورة الفرنسية لمساهمتها في الدين . وصحيح ايضاً ان بعض مفكرينا كالكتور شاكرو الحوري في « مجمع المسرات » وقفوا موقف النقد من روسو وفولتير لانهم خالوهم يريدان نقض الدين . ولكن ليس من شك ان رجال الادب والفكر عندنا ابدوا جميعاً . مطالب فصل الدين عن الدولة وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا تتعداه . ومفهوم ان اوضاع الامبراطورية العثمانية كان فيها ما يدفعهم دفعا الى تأييد هذا المطلب ، فشاع على اللسان والاقلام الشعر التالي : « الدين لله والوطن للجميع » .

وبهذا ننهي جانباً آخر من بحث ادبائنا امام الثورة الفرنسية ومفكرينا . وواضح اننا كنا الى هذا الحد نستعرض الذين رأوا في الثورة دروساً ونتائج ايجابية ، فلنلتفت الآن الى الذين حاولوا ان ينقدوا الثورة نقداً يصح اعتباره .

٣ - نقد ورد

هل جاءت الديمقراطية بكل ما ينتظر منها ؟
 هذه القرية الجسمة المحضة ، التي يحاولون تسخير العلم لتأبيدها ، فيقوم نياتش ونوردو فيلسوفا الالمان ، مدفوعين برغائب حكومتها العسكرية ، يشدان ازرق الغوي في القضاء على الضيف ، وتحطيم اسنان الغير ، واحتكار الحياة والعوت والارتقاء ، هي تربية فاسدة تماماً ، تخر الانسان الى الوحشية وتجعل العالم غار وحش صار كله بنايا عظام رجسة . ولذا وجب

دك معلما وتغويض اساسها الراسخ واقتلاع جذورها واحراقها وتذريتها في
الآفاق .

قد تغيرت الغيود وتنوعت السلاسل واستبدل النحاسون بنهرهم .

امين الزيجاني (فوق سطوح نيويورك)

نعم ، لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف حياته في تحصيل العلم
النافع او الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد
للخاطر بالكسول الخامل ...

(ولكن) الانسان لا يكون انساناً ما لم تكن له صنعة مفيدة

نكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتذله ولا تزيد عليه فتطعيم ...

وقد أصبح للثروة العمومية اهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال .

كلمات للكواكبي

جملنا سبيلنا في هذا الفصل ان نعرض لادبائنا ومفكرينا الذين حاولوا ان
ينقدوا الثورة الفرنسية الكبرى نقداً يصح اعتباره ، ونحن نعني ، بالطبع ، اننا ان
نعرض للذين لم يستطيعوا ان يروا في الثورة الا بعض مظاهر وقفوا عندها فأسأوا
حتى فهم تلك المظاهر ، وكتبوا ، وهمهم التشنيع على الثورة او الاغراب الادبي في
سرد القصص والحوادث . وقد كان للروايات التي نقلتها الى العربية « مجلة روايات
الجيب » عن رافائيل سباتيوني والبارونة اوركزي اثر سي . في تصوير الثورة الفرنسية .
فنحنا هذا النحو بعض ادبائنا المحدثين كالاستاذ حسن الشريف في كتابه : « تاريخ ما
اهمله التاريخ » اذ راح يشبع قراءه حديثاً عن مواضيع كالملكة اري انطوانيت
و « حزنها الملكي » كأن الحزن ايضاً طبقات كطبقات المجتمع ! ومن هذه الطائفة
ايضاً الاستاذ عبدالله عنان الذي كتب سفرأ في المؤامرات السياسية في التاريخ ،
فذكر غراكوس بابوف وحركته ، واظهر في ما سطره عجزاً ذريعاً عن فهم التأثير
الفرنسي وحقيقة مكانته ^(١) .

مر بنا ان الادباء والمفكرين العرب ، على وجه الجملة ، وقفوا موقف المعجب

(١) لعل خير الكتب التي تعالج مرحلة من الثورة الفرنسية ، وتجري على الاسلوب
الروائي ، كتاب « ١٧٩٠ تموز » للاستاذ يوسف ابراهيم يزبك .

المتعلم من الثورة الفرنسية وافذاذ مفكرها . ولكن تقصير الانقلاب العثماني عن تحقيق
الاصلاح المنشود أضعف الحماسة ، بعض الشيء ، العبادي . التي رفع الانقلاب لواها ،
وهي مبادئ الثورة الفرنسية . كما ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء .
والمساواة » لم تصدّ دولاً تدين بها ، او بما ياتلها ، عن الزحف نحو الشرق بغية التسلط
عليه . يضاف الى ذلك ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء . والمساواة »
رغم قيامها في المجتمعات الأوروبية لم تلغ كفاعلاً داخلياً مستمراً في تلك المجتمعات ،
ومنها فرنسا نفسها . فقد ظل ادبائنا ومفكرونا يسمعون ، مثلاً ، بهمال يضربون ،
وبمفكرين يطالبون بالحرية والمساواة والاصلاح ، فخالط بعضهم شك في ان الثورة
الفرنسية غيرت شيئاً ، بل بات بعضهم يعتقد بان مبادئ شبيهة بمبادئ الثورة الفرنسية ،
تخالف طبيعة الامور ولا يتبها تحقيقها . وبلغت اذهان الادباء العرب اصداً من فردريك
نيشه الذي حمل حملة شعواء على الثورة ومبادئها . وكذلك لم تلبث ان بلغتهم اصداً
من غوستاف لوبون وموقفه العدائي من الثورة . وقامت الحركات النازية والفاشية ،
فكانت مبادئ الثورة الفرنسية من اهم الاهداف التي صبت عليها نيرانها .
كل هذه عوامل اضعفت الاعجاب لدى بعض مفكرينا وادبائنا بالثورة الفرنسية ،
وضالت الثقة بقيمة مبادئها .

وكان فرح انطون في طليعة ادبائنا الذين اخذوا يديرون ظهورهم الى مبادئ الثورة
بعد ان كانوا شديدي الحماسة لها . على ان فرح انطون ، وقد انتهى الى الاعتقاد
بالاشتراكية ، ظن ان اعتقاده الجديد يضائل من قيمة الثورة الفرنسية ومبادئها ومقرئها
في التقدم التاريخي . وكان الدكتور شبلي الشميل قصد الرد على فرح انطون حين
كتب القطعة التالية ، وفيها يبين ان الثورة الفرنسية كانت مرحلة عظيمة في سير التقدم ،
ولكنها ليست بالمرحلة الاخيرة ، ولا هي تفي بمطالب الاصلاح جميعها على ممر الايام .
قال الشميل :

« ... الغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة
الاولى يعترفون جهارة اليوم بانه لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع
الاحكام الى ما هما عليه الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم

قاطبة . وهؤلاء الذين يعترفون بذلك اليوم يؤخذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تبق تصلح له اليوم ، لان الهيئة الاجتماعية المتمدنة ارتقت كثيراً عما كانت عليه من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله . فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمه قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية ، او انه اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها بيد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يجوز على عقول الاطفال ولكن لا يجوز على الذين يدركون بعض الشيء . من اسرار العمران ، ففرنسا ان تعود الى الملكية . ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفعة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل ، والتي تتوقعها اوروبا ، هي الجمهورية الحقيقية الديمقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء ، بخلاف حكومات اوروبا وجمهورية فرنسا اليوم ، فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في نقصها ، ولو اختلفت في اسمائها ، وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب . . . »

« . . . ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى النفور من نظمات الهيئة الاجتماعية واحكامها هي اقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة الاولى ، فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والارزاق لشرف المولد . وقد كان الناس قليلهم يدرك حق المساواة واما اليوم فالثورة هي . . . بين قوى العقل المستنبط واليد العاملة ، وبين فساد نظام الاحكام ، حتى أصبحت مستنبطات العقول وأعمال الایدی خادمة لـ (نفر) يستفيدون منها . »

وقد كان على التاريخ ان يقطع شوطاً كبيراً ، فتقع الحرب العظمى الاولى ، وتقع الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ، ثم تقع هذه الحرب بين قوى التقدم من جهة وقوى الرجعية التي تترعها المانيا النازية . كان على كل ذلك ان يقع ، وان تعثر فرنسا ثم تأخذ في النهوض من جديد وبهتف الجنرال ديغول : من يقل فرنسا يقل ثورة ، ويتحدث عن « فرنسا الغد التي ان تكون كفرنسا الامس » ، وعن الجمهورية الرابعة ، وتثار في بريطانيا وكل مكان مشكلة الضمان الاجتماعي ، وتمتلئ الدنيا حديثاً عن الديمقراطية الصحيحة ، والعهد العالمي الجديد ، كان على كل ذلك ان يقع

حتى يظهر كلام الدكتور الشميل في مدى عمقه وصحته .
 قبل فرح انطون ، ارسل اديب اسحق هذه الكلمات التي تجذبنا الى النظر
 والتأمل فيها ، قال :

« ليس في الوجود الطبيعي ولا المدني من واجب الا بحق يائله . وايس فيه من
 حق الا بواجب يقابله . فاذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده فقد حق له
 امكان ذلك التعليم على قدر الكفا . واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه فلقد
 لزمها توفير اسبابه وتجهيد سبيله على قدر الامكان . فان كان الوالد من الذين اصابهم
 النظام المدني باختلاله . . . فهو فقير معدم . . . لا يقوى على تعليم ولده . . . فالهيئة
 الحاكمة مأمورة بأن تيسر له ما لا يستطيع . »

وهي كلمات ايدها الكاتب بقول الاقتصادي الفرنسي الشهير ساي : « ان مركز
 المحترف العامل يذني مقدار دخله الى حد انه لا يكاد يني بحاجته الا بشق النفس ،
 فاذا استطاع تربية الولد وتعليمه حرفة فهو لا شك عاجز عن ان ينيله من العلم القدر
 الذي يقتضيه حسن الحال في الهيئة المدنية ، فان رامت هذه الهيئة التمتع بنفائحه هذا
 القدر من العلم في الذنة المحترفة العاملة ، وجب عليها ان تبش فيهم على نفقتها بانشاء
 المدارس المجانية . » (الاقتصاد ، الكتاب ٣ ، الفصل ٦) .

فاديب اسحق يشير ، قاله وما قبله من ساي ، مشكلة عظيمة هي مشكلة
 الذين يصيهم النظام المدني باختلاله ، على حد تعبيره ، وهو يعني اولئك الذين يقعون
 ضحية المعجز الاقتصادي فلا يستطيعون ان يملوا اولادهم . والى جانب ذلك يشير
 اديب اسحق مبداً عاماً يتناول بمداه شؤوناً كثيرة غير التعليم الالزامي ، فما هو هذا
 المبدأ العام ؟

يقول كاتبنا : « اذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده ، فقد حق له
 امكان ذلك التعليم على قدر الكفا . واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه ، فقد
 لزمها توفير اسبابه وتجهيد سبيله على قدر الامكان . »

واذن فليس يكفي فرض الواجبات على الناس والمجتمع ، بل يتحتم على الهيئة
 الحاكمة ان تيسر لهم وسائل القيام بالواجبات المفروضة . وبطريق القياس ، ليس يكفي

ايضاً منح الحقوق للناس في المجتمع ، بل يتحتم على الهيئة الحاكمة ان تيسر لهم الوسائل الضرورية لممارسة الحقوق الممنوحة .

وبكلمة مختصرة ، ان القوانين والقرارات ، مهما تكن عادلة ، نزيهة ، انسانية ، تنجو منحي المثل الاعلى ، فهي لا تنفي بالغرض المقصود منها ، بل قد تظل سحراً على ورق ، بل قد تنقلب ظالمة جائرة ، ان لم تكن قائمة على اساس يمكن من مراعاتها وتنفيذها ويغلق باب العذر والحجة على من يخالفها .

ولقد عرض كاتبنا نجيب الحداد شي . من هذا ، تنبه اليه بتأثير من فيكتور هيجو وكتب البوسا . قال :

« وضع » فيكتور هيجو « كتابه المشهور بعنوان « البوسا » في ستة مجلدات كبيرة بناها على حكاية رجل حسن الاخلاق طيب القلب لم يخلق للشر والعدوان ، قضت عليه الضرورة القصوى ، وهي ضرورة الجوع او ضرورة البقاء التي فطر عليها الانسان ان يسرق رغيفاً من الخبز لاهل منزله وفيهم صغار اطفال يتضورون من الجوع . فقضت عليه الحكومة بهذا الذنب الكبير وحكم عليه التنازل بموجب قانونهم بالاشغال الشاقة الى امد بعيد . وقد افرغ هيجو في هذا الكتاب كل ما حواه عقله الكبير من فلسفة الشقاء ، وكل ما شعر به فؤاده الكريم من واجب الرحمة والحنان ، وكل ما سمح به برهانه القاطع وحجته الدامغة من الطعن على القضاة في مثل هذا الظلم الشديد على فقير بانس يسرق رغيفاً لاسد الرمق وقوام الحياة ، دفعته اليه ضرورة العيش وحب البقاء ، فاقدم عليه مضطراً غير باغ ولا عاد ، وليس من طبعه السرقة وحب الاذى ، فحكم عليه القانون القاسي بمثل ما يحكم به على سارق المآل الكثير تدفعه اليه يد الطمع وفساد الطبع وحب الاذى والميل الى السرقة والاختلاس . »

وقال الكاتب نفسه يعالج مشكلة صغار الموظفين :

« لا يخفى ان حياة الانسان وحفظ وجوده هو الدافع الاكبر له في كل امر ، بل هو الطبع الغريزي الذي ينقاد اليه بالفطرة الحيوانية حتي يفضلهم بحكم الطبيعة على كل شي . سواء . . . فاذا ضاقت يد العامل (يقصد عامل الحكومة اي : موظفها) وكثر عياله وقل مورد رزقه من ضيق راتبه ووجد نفسه مدفوعاً الى حفظ وجوده بوسائل

الخلفة والفترة ، هانت عليه الذنوب وسهلت لديه اسباب المخالفة والخروج عن الواجب الخفي في سبيل صيانة الحياة الظاهرة ، وعن الغرض الوهمي في الحصول على الوجود الحسي الذي هو حقيقة الانسان وانسان الحقيقة . ولما كانت اعمال الحكومة التي تمس جانب الشعب مباشرة من طريق الحس قائمة على ايدي صغار العمال كالجندى والجاني والكتائب والناظر ونحوهم ، وكان هؤلاء الصغار في ضيق من العيش وقلة في الرزق وحاجة الى الانفاق ، لم يكن يؤمن على الرعية من اهتزام حقوقها تلك اليد التي تسلمها الحكومة رعاية الشعب من جانب ، وتدفعها الفاقة والحاجة الى ظلمه والتضييق عليه من جانب آخر ، لا عن رغبة في الظلم او حب في السلب والاهتزام ، ولكن عن حاجة في النفس وضيق في اليد ، وكم قاد شر الى شر . »

وبكلمة اخرى ، يريد ادب اسحق ونجيب الخداد ان يوجها النظر الى ما للضمان الاقتصادي من شأن عظيم في ضمان القوانين ، وحسن سير الحكومة ، بل حسن سير المجتمع على وجه عام ، وكون الحقوق والواجبات فيه ذات معنى للجميع . ولكن ، ما علاقة هذا كله بالثورة الفرنسية ، وبانتقادها ؟

ان الثورة الفرنسية قد اعطت الانسان والمواطن حقوقاً اساسية جداً ، على ان ديدرو ، مثلاً ، كان يقول : ان الملكية (اي ما يملك الانسان) هي التي تجعله مواطناً^(٢) . وبالفعل ، اننا نجد في الثورة الفرنسية تياراً قوياً يأبى اعتبار الذين لا يملكون شيئاً مواطنين ، ويريد تجريدهم من حقوق المواطن كحق الانتخاب مثلاً . وهو تيار قاومه الشاثر مارا مقاومة عنيفة كان من تأثيرها بالنتيجة ان تراجع هذا التيار واندحر . ومع ذلك ، فلا شك ان حقوق الانسان والمواطن ، وان شملت جميع المواطنين ، نظرياً ، فان كثيرين من المواطنين لا تنهياً لهم عملياً ممارستها كما ينبغي . اذ ليس يكفي ان تعلن المواطن حريته الفكرية ، مثلاً ، وحقه في الدعوة الى رأيه ، مع كون هذا المواطن لا يستطيع القراءة والكتابة ولا يتمتع بالطاقة الاقتصادية التي تمكنه من بث فكرته عن طريق التأليف والطباعة . وبكلمة اخرى ان الحرية السياسية والمدنية لا تتوطد وبعز شأنها ما لم توفر باليسر الاقتصادي الشامل .

(٢) انسيكلوبيدي ، مادة « Représentants » .

وهذا هو وجه النقص الذي حاول ان يتلمسه كاتبانا اديب اسحق ونجيب الحداد ،
الا انهما لم يهتديا اليه صراحة ، بل لمساها لمسا عابراً من طرف ربما خفي عليهما . وقد
ذهب نجيب الحداد مع هيفو الى ان الرحمة المفقودة من قلوب القضاة ، هي النقص
الذي اذا عوض فض المشكلة او كاد . وربما مرت هنيئات بالكاتبين كليهما طغت
في نظرهما الالوان القاتمة على نظام اوربا عامة ، لا فرنسا خاصة ، فقررنا ان الحرية
فيها « اسم بلا معنى عند القوم » وان تكرار ذكرها في محافلهم ، ورسمها في
مجامعهم ، هو من قبيل اللغو الساقط والتمويه والتطرئة ^(١) ، وان الحمجية السوداء عند
الزنج تقابلها « الحمجية البيضاء » ^(٢) في اوربا ، فكأن الثورة الفرنسية وهبات
الاصلاح جميعها لم تكن ، او لم تجد فتيلاً . وقد يكون مصدر هذا الاجفاف ذهاباً مع
عاطفة وطنية مستفزة ، الا انه عند التأمل والتحليل يرجع الى ان الكاتبين لم يستطيعا
ان يفهما حق الفهم وجه النقص الذي ذكرناه في الحرية التي اسفرت عنها الثورة الفرنسية .
وكأنه كان على اديب اسحق ونجيب الحداد ، كما كان على فرح انطون ، ان
يدعوا مثل هذا المجال للدكتور شميل يخوض فيه . وقد رأينا كيف تصدى له الدكتور
الشميل من غير ان يسبقه بقرلة اوربا وقيمة الثورة الفرنسية ، وما حققته من
نهوض ورفق .

على اننا يجب ان لا ننسى ان فرح انطون وأديب اسحق ونجيب الحداد ، في
هذا الموقف الذي وقفوه من الثورة الفرنسية ، كانوا يطمحون الى مزيد من الاصلاح ،
لا الى نقصان ، وكانوا يريدون مضياً في التقدم لا رجعة ، فاذا نقسوا الثورة فلأنها
قصرت عما ينشدون .

أما غوستاف لوبون فقد نقد الثورة لأنها كانت في رأيه حادثاً عبثاً ، ولو انهما لم
تحدث قط لما ضاع شيء على فرنسا من نتائجها . وغوستاف لوبون مؤلف مدح الحضارة
العربية ، فكان ذلك ممهداً لاشتهاره في البلاد العربية ، فنقل اكثر كتبه الى لغة
الضاد ، ومنها كتاب اسمه « روح الثورات والثورة الفرنسية » ، عربه محمد عادل

٣ (الكلمة لاديب اسحق .

٤ (الكلمة لنجيب الحداد .

زعيتر . وامله الكتاب الوحيد الذي يستطيع ان يتناوله القارى . باللغة العربية ، ويطلع فيه على محاولة طويلة في تقدير الثورة الفرنسية . ذلك لان الكتب الخاصة بالثورة معدومة تقريبا في لغة الضاد ، وقد تناولنا نحن سافراً يجمع بين الثورة الفرنسية ونابليون ، ألفه محمد صبري ، وجمه من باب تقرير الوقائع . وهكذا كاد يخلو الجو لغوستاف لوبون . وتتمثل خلاصة رأيه ، في الثورة ، في هذه السطور التي حوتها مقدمة كتابه « روح الثورات ... » : « ولا ريب في نيلنا » منذ زمن طويل ، ما بلغنا اليه ، وما بلغت اليه امم كثيرة قبل الثورة الفرنسية من المساواة والحرية سواء اشتعلت هذه الثورة ام لم تشتعل . »

وأقل ما يقال في هذا الكلام انه فاقد البرهان . وكيف نستطيع ان نحزم ان فرنسا كانت تنال نتائج الثورة بدون الثورة ؟ وقول غوستاف لوبون : ان امم كثيرة بلغت قبل الثورة ما بلغته فرنسا من المساواة والحرية ، فيه موضع للنظر . فان هذه الامم الكثيرة ليست في الحقيقة الا اثنتين : الامة الانكليزية والامة الاميركية ، وكلتاهما نالت الحرية والمساواة بثورة كبيرة شبيهة بثورة فرنسا !

وقد رد اميل اوليفيه على غوستاف لوبون ، فقال : « هل يأسف لوقوع الثورة الفرنسية من لا يريد ان يكون مسخراً لصيد الفساد في الندران كي لا تقلق الامير الاقطاعي في نومه ، وهل ينوح لحدوثها من يريد ان لا يرى كلاب شاب عات تخرب حقله ، وهل يحزن انشوبها من يريد ان لا يسجن في الباستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجه او لتفوهه بكلمة ضد رجل نافذ او لغير ذلك ، وهل يغتم لاشتغالها من يريد ان لا يبغى عليه وزير او موظف او وكيل ، وان لا يكون تحت رحمة احد من الناس ، وان لا يؤخذ منه اكثر مما يفرض عليه ، وان لا يهينه ويشتمه من يدعي بانه فاتح ؟ ولذلك فاني بصفتي من الطبقة المتوسطة اشكر اولئك الذين انقذوني بعد عناد شديد من الانيار التي لولاهم لبقيت رازحاً تحت اغلالها ، وابارك لهم رغم زلاتهم . »

(نقلنا العبارة كما عرجا محمد عادل زعيتر ، وفيها اضطراب ، وصوابها : « ولا ريب في اننا كنا نلنا منذ زمن طويل الخ ... »)

فكان ان رد عليه غوستاف في مقدمة «روح الثورات...» بما يلي : «مصدر هذا الوهم الشائع - حتى بين كثير من اقطاب السياسة - هو المبدأ التسائل بان طرق الحياة عند الامة تكون بحسب نظاماتها ، والواقع ان الطرق المذكورة تابعة للبشكرات العلمية والاقتصادية ، فتأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة .»

وصحيح الى حد كبير ان طرق الحياة عند الامة لا تكون بحسب نظاماتها ، كما يقول لوبون . ولكن لماذا حدثت الثورة الفرنسية ؟ انها حدثت لان الحياة الفرنسية جرت شوطاً في التغير ، عقلياً ومادياً ، بينما بقيت النظمات على ما هي ، فوقع التناقض بين الحياة الفرنسية الجديدة ، الآخذة في الظهور والنمو ، وبين النظمات القديمة . ولما كان من المستحيل ان يقتنع جميع ممثلي النظمات القديمة بان دورهم انتهى ، وقع الاصطدام بينهم وبين ممثلي الحياة الجديدة . واذن فالثورة الفرنسية نشبت لتقيم نظمات جديدة ترضي بها . مطالب الحياة الجديدة ! على ان طرق الحياة عند الامة تتأثر ايضاً بنظماتها . وقول لوبون ان الطرق المذكورة (طرق الحياة) تابعة للبشكرات العلمية والاقتصادية ، يشف عن اختطاف لتعابير ماركسية لم يترها حق منزلتها . وكأنه شعر باخطأ فقال : «ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة» مع ان سياق فكرته كان يجب ان يدعوه الى اثبات كل التأثير للقاطرة ونفي التأثير عن المقصلة ! اما ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة ، فهذا مما لا يجادل فيه احد ، الا ان القاطرة بمجرد وجودها لا تكفل التسوية بين الناس ، بل لا بد من نظام يضمن هذه التسوية مع القاطرة ، ولا بد لهذا النظام ، في ولادته وحمايته ، من تأييد حتى بالمقصلة احياناً !

غير ان غوستاف لوبون كان اقل شراً على سمعة الثورة الفرنسية من رجل آخر هو فردريك نيتشه ، بلغت آراؤه وافكاره البلاد العربية عن طريق النقل . وكان فرح انطون في طليعة من اهتموا من ادبائنا بنيتشه ، وان يكن فرح لم يقف منه موقف المسلم المحبذ . والى القارى . ما نقله فرح انطون عن الكاتب الالماني بشأن الثورة الفرنسية ، قال :

«ومن اقواله (اي نيتشه) ان الاديان والثورة الفرنسية هي التي افسدت مبادئ

الفكر العربي الحديث

البشر في الدنيا وخربت طريق الانسانية ، وصرفتها الى طريق اخرى ادت الى الاضطراب والفوضى الحاضرة . فان (المساواة والاخاء والحرية) التي وضعت تلك المبادئ اساسها قد ادت الى تسويد الصغار على الكبار وترجيح الخاملين القاصرين على اهل الكفاءات ، وجعلت الفضل في الدنيا لكثرة العدد لا للاستعداد الطبيعي ، واقامت « سلطنة الشعب » التي هي سلطنة قطيع المواشي . وقال في فصول عديدة في كتابه « بد. الظلام » و كتابه « ما بين الخير والشر » و كتابه « زاراتوستا » : « ان الاديان ومبادئ الثورة الفرنسية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي أشد وباء اصاب الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفي قواها كما يفي داء التدرن قوى المسولين . وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو ادنى من انحطاطها الحالي اذا لم يحبط البشر له ويحدث لديهم رد فعل في شأنه »^(٦) .

واهتم اديب آخر ، هو فيليكس فارس ، بنيتشه فعرب له كتابه : « هكذا تكلم زرادشت » . وفيلكس من ادبائنا الذين ابتهجوا بالدستور العثماني ، واكثروا عنه الخطب فعرفوا بـ « خطباء الدستور » . ولا شك ان فيليكس ، اذ ذاك ، كان يحب الثورة الفرنسية ويستلهمها ، بل هو ثابر على هذا الحب ، فنحن نقرأ له في احدي خطبه ، في كتابه « رسالة المنبر » ما يلي : « هدم الرجل الباستيل لانه اصبح معقلاً لمن اختلسوا حق الحرية والحياة ، وجاءت المرأة بدورها تهدم جدران بيته (اي بيت الرجل) ، لانه كأمسياد الباستيل اساء استعمال سلطته » . وهذا كلام يشف عن تأييد للثورة الفرنسية .

الا ان فيليكس ، مع ذلك ، وقف موقف المواقف للثورة ، فقال (الكلام من رسالة المنبر) :

« خرجت اوروبا الى عهدا الجديد ولكن عيسى لم يكن مهديها ولا محمد

(٦) نسخنا هذا الكلام عن مقدمة فرح انطون ، لرواية دينس ، التي عرجا عن الثورة . وقد وقع فرح في بضع غفوات ، فكتاب نيتشه « ما بين الخير والشر » هو في الاصل « ورا . او » ، فوق المنبر والشر » ، و كتابه « زاراتوستا » هو في الاصل « هكذا تكلم زاراتوسترا او زرادشت » .

ماشياً في طليعتها . كان انجيلها حقوق الانسان التي كتبها الثائرون بالدم المتمرّد . وكان قرآنها القوانين التي سنّها نابليون لاقامة الموازنة بين الحقوق . ولكن هذا الانجيل الحديث الذي استمد من انجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من مبادئ الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة . وهذا القرآن الجديد ، قوانين نابليون المستمدة من مذاهب الائمة في الشرع الاسلامي ، وقف عند حد التنظيم المادي المحض لحقوق الناس ، فقصر عن الأخذ بما في قرآن النبي الهادي من الدعوة الى المعروف والبر بالأذنين والأبعدين من بني الانسان . »

وهكذا نجد كاتبنا يود لو كانت الثورة لم تهمل القيم الدينية المعنوية ، كالعطف والمغفرة والدعوة الى المعروف (٧) . فهو من هذا القبيل مخالف لنيته الذي يقول الثورة الفرنسية والاديان متزلة واحدة ، كما عرفنا مما ذكره فرح انطون .

ولقد كاد يعلق شي . من « النيتشية » بادية كبيرة من أدبياتنا ، هي الأنسة مي زيادة ، مؤلفة كتاب « المساواة » . تقول مي في مقدمة هذا الكتاب :

« لاجلها (أي : لاجل المساواة) شبت الثورة الفرنسية وانبرت تعان الانسان حقوقه المدنية المرتكزة على الحقوق الطبيعية ، فاثبتت في مطلع بيانها بنسأ اول يشاركها اليوم فيه العالم المتمدن ، وهو ان الناس « يولدون ويظلون متساوين احراراً ازا. القانون . » فحذفت بهذا البند نظام الاقطاع القائم على تفاوت الحقوق والواجبات . »

ثم تقول : « انها (اي : المساواة) مع الحرية والاخاء . تهز نفسي ، وقد لمستها منذ ان كان لي نفس تتحرك . غير اني وصلت الى نقطة اود عندها تحليل كل شعور وكل تأثير . ما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا ما أرغب في استجلائه في الفصول الآتية ... »

وليس في هذا الكلام كله ما يدل على صلة بين مي ونيتشه . والحق ان مي لم تسلم يوماً بجميع ما ذهب اليه الكاتب الالماني ، على انها وقفت مثله موقفاً منكرأ

(٧) الواقع ان فيليكس فارس اهل شعار الثورة الفرنسية : الاخاء ، وهو يتطوي على شيء كثير مما اراده ادبنا .

للمساواة ، مؤمناً بعدم امكانها ، بل بضررها . وهذا ما توضحه فصول كتابها .
واخطأ الاساسي عند مي هو انها لا تشمل لتقيد كلمة المساواة بمعانيها التي لا يستها
في التاريخ والحركات التاريخية ، كما انها لا تشمل ايضاً لتقيد كلمات كثيرة بمعانيها في
مختلف العصور والاجيال . وهذا جدير ان يؤدي الى شطط في التقديرات والاحكام .
ان الانسة مي لم تجب السؤال الذي سمعناها تطارحه على نفسها : « ما هي
المساواة ؟ » راحت تتساءل مثلاً : « أي قوة اقامت دولة المالك في مصر ان لم
يكن التطلع الى المساواة ؟ » وهنا لا يمالك القارى . من ان يسألها : أي
مساواة تعنين ؟ ولكنها تستمر فتقول : « لاجلها (اي : لاجل المساواة) ثبت
الثورة الفرنسية ... » وبديهي ان جعل المساواة هدف المالك في حركتهم في
مصر ، وهدف الفرنسيين في ثورتهم سنة ١٧٨٩ ، انما هو حكم يعث به تخطيط تاريخي
عجيب . فالمالك آمنوا قوة وفرصة ، فاستولوا على الامارة في بلاد حكموها حكماً
استبدادياً مطلقاً ، بينما ثار الفرنسيون فاقاموا نظام حكم مصدره سلطة الامة ،
والناس فيه امام القانون سواء . ولعل مي قصدت ان المالك ارادوا ان تكون لهم
امارة يحكمون فيها ويستبدون كغيرهم ، فكانوا بذلك متطلعين الى « المساواة » .
غير ان هذا عنت واخلال باستعمال الكلمات ، والا جاز ان نقول مثلاً : ان خروج
(فلان) ليصبح لصاً كـ (فلان) ، فيه ايضاً « تطلع الى المساواة ! »
يقراً القارى . كتاب مي فيجدها تبدأ بسألة « الطبقات الاجتماعية » ، وتذكر
شيتاً تسميه « التنوع بين الطبقات » ، تريد بذلك ان تهرب « تمايز الطبقات » في تعبير لا
ينفر . وتذكر ايضاً « التنوع بين الافراد » ، وتعرض لروسو الذي « طال تأمله في
حالة البداوة الاولى ، وقام هو واتباعه ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية على
الهناء المفقود وترتع في بجموحة السلام والحرية . وقد نسوا ان الهمجي مستعبد بجهله
الفادح ، وان له من اخراقات سجناً لعقله ، ومن الاوهام حجاباً لروحه . فهو وان
كان حراً حرية نسبية ، من حيث علاقته بامثاله ، وبقناعته - التي لا يمكن ان
تدوم اكثر من زمان ما - فهو اسير احط انواع العبودية واطورها . وهيئات
الرجوع الى الماضي ! »

على ان الثورة الفرنسية لم تقصد بشعار المساواة الغاء التنوع او التمايز بين الطبقات ، الا فيما يتعلق بسريان القانون على الجميع ، كما ان احداً من اعلام الثورة لم يفكر بالغاء التنوع بين الافراد . وقد قفرت مي في تعرضها لروسو من موضوع الى موضوع . فالحرية غير المساواة وان تكن بينهما قرابة . وروسو لم يطالب بالغاء الطبقات او التمايز بين الافراد ، بل ان الثورة الفرنسية لم تنشب ، وروسو لم يكتب ، الا في سبيل تغيير نظام يحصر الامتيازات حصراً صريحاً في طبقة معينة . اما حالة البدانة الاولى - او الحالة الطبيعية على الاصح كما يسميها روسو نفسه - فقد اصابته مي في نقدها ، على اننا لا نظن ان روسو اراد الرجوع اليها فعلاً ، بل هو تصورهما تصوراً ، واتخذها موطاً وحي يستلهمه .

ثم تتقدم مي الى مسألة الارستوقراطية ، فاذا مر القارىء بفصلها هذا وتسامح بكثير مما فيه وجدها تقرر ما يلي : « سبطل الارستوقراطية ، ارستوقراطية الجماعة ، و ارستوقراطية الفرد ، ما دامت الطبيعة ، ولو تحوت منها الانواع وتغيرت المظاهر وتعددت الاسماء ! » ولكن السر - كل السر - هو في تحول هذه الانواع ، انواع الارستوقراطية ، اذا شئنا الاصرار على الاسم . فان الثورة الفرنسية ، مثلاً ، ازلت سيطرة ارستوقراطية الاقطاع وشرف المولد ، وفسحت السبيل لارستوقراطية الصناعة والتجارة والمال . هذا صحيح . على ان الارستوقراطية الجديدة وثبتت بفرنسا وثبة هائلة الى امام . فلا يصح اطلاق الحكم الواحد على الارستوقراطيتين . وتستأنف مي كلامها فتقول : « سبطل التفوق . وجوداً ما بقي بين البشر جماعات وافراد يسيرون بخطوات الجبارة نحو قم الوجود ، فيتجلون على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين . » وفي هذا رائحة ، بل الفاظ نيئشية ظاهرة . ولكن مي هنا تنتقل بكل يسر وسهولة ، من الارستوقراطية الى التفوق . والمعنيان ، حسب المتعارف ، متباعدان جداً . فالفهوم بالارستوقراطية انها تشمل طبقة من المجتمع تنسب الى نفسها شرف الدم والمولد ، وتنغلق بالقلب خاصة ، وتكون ثروتها عقارية في الاغلب كأمراء الاقطاع في القرون الوسطى ، مثلاً . فاذا كانت ثروتها نقدية اجيز تسميتها بارستوقراطية المال . الا ان هذه في الغالب لا تنسب الى شرف المولد ، ولا تسبغ عليها الانقلاب

الخاصة . واسننا ندرى ما علاقة هذا بالتفوق ، والسير بخطوات الجبارة نحو قم الوجود ، والتجلى على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين ؟ لعل مي تقصد الفاتحين العسكريين . لعلها تقصد العباقرة المفكرين والمخترعين واصحاب المواهب والكفاءات . لسنا ندرى بالضبط . الا ان مي تتابع طريقها فتقول لنا : « سيوجد ابداً هؤلاء ، ومنهم من ينعكس خيال الاستوقراطية في الاجيال الآتية ويمتد حتى اطراف الدهور القصية مهما تقلبت الثورات والنظم والعمرائات . هذا اذا كانت الارستوقراطية من الطراز « الاصلح » وهو الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولاً وآخرأ . »

فما هي هذه الارستوقراطية التي هي من الطراز « الاصلح » ؟ وما هو هذا الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولاً وآخرأ ؟ ان مي لا تجيب بكلمة . وبمثل هذه القوامض كان يتحدث نيتشه ، ولا يزال الباحثون الى اليوم مختلفين في معنى الارستوقراطية التي قصدها ومعنى « السورمان » .

غير ان هذا كله لا يس حقيقة موضوع المساواة . فالمساواة التي سارت تحت لوائها الثورة الفرنسية حاربت الارستوقراطية التي تقرب على ظهر المجتمع ، وتسيج نفسها بالامتيازات تجاه القانون ، وفي احتلال الوظائف واداء الضرائب ، وغير ذلك . ولا شك ان الثورة الفرنسية ، لما ازاحت تلك الارستوقراطية ، واعلنت المساواة ، وسعت المجال لكفاءات كثيرة ومواهب كثيرة جديدة . فلم تمن المساواة التي اعلنتها كبها لطفرة العبقريات والحيويات الدفينة في اعماق الامة بل هي التي شجعتها واطلقتها من مكائنها وعقالاتها .

وما مقصدنا ، هنا ، ان نوافق مي في جميع كتابها . فهي احياناً ترجع في نقد الثورة الفرنسية ، والمساواة التي اعلنتها ، الى ما ذكرناه سابقاً من ان هذه الثورة لم تعزز الحقوق السياسية والاجتماعية بكفالة الحقوق والوسائل الاقتصادية . وقد كان هدفاً ان ندل على شي من النيتشوية علق ، او كاد ، بتفكير ادبينا .

ومن نيتشه ، وموقفه من الثورة الفرنسية ، يخرج الباحث الى النازية والفاشية وموقفهما من هذه الثورة . فنيتشه هو الكاتب الذي اتخذ النازي والفاشي اباً روحياً .

وفي غير مكان من هذا الكتاب يجد القارىء كيف أن موسولينى وغوبلز يشددان الهجوم على الثورة الفرنسية ومبادئها وأعلام مفكرىها . « ان التعاليم الفاشستية هي التعاليم المعاكسة لجميع نظريات سنة ١٧٨٩ الخالدة (يستعمل هذا النعت متعمداً) . » « ان الفاشستية رد فعل لحركة مجانين القرن الثامن عشر ومعتوهي الانسيكلوبيديا (٨ . » « ان عام ١٧٨٩ سيلقى من التاريخ (٩ . »

ولست هذه الاقوال كلمات عابرة . ففي كثير من الكتب النازية الهامة يرد ذكر الثورة الفرنسية مشغوعاً بالهجوم عليها . فكتاب « مباحث عن بعث المانيا » يزعم ، طبعاً ، ان الجرماني خالق المدنية الحديثة . ثم يندد بكارثة مشؤومة « هي الثورة الفرنسية الكبرى التي قضت على زعماء الشعب الفرنسي الجرمانيين » ، لان « طبقة الاشراف - كلها ، او معظمها ، بما فيها سلالة البوريون - كانت جرمانية الاصل . وهذا ما حدا بالجماهير غداة الثورة الفرنسية ان تصب جام حقدها على طبقة الاشراف خاصة . . . » والحق ان هذا مضحك ، لان الشعب الثائر ، ان لم يوجه سخطه الى طبقة الاشراف ، في جملة اصحاب الامتيازات ، فالى من يوجهه ؟ واذا كان الشعب يرى ان طبقة الاشراف هي اشد اصحاب الامتيازات تشبثاً وتمسكاً ، اذا كان الشعب يرى قليلين من هذه الطبقة ينحازون الى جانبه بينما ينحاز اكثر الاكليروس ، اذا كان الشعب يرى اكابر هذه الطبقة يهجرون البلاد ليعودوا غازين مقاتلين تحت لواء اجني ، فعلى من يصب جام حقده ان لم يصبه عليهم بصورة خاصة ، لا لانهم جرماني ، بل لانهم اعداؤه ؟

وكتاب « اسطورة القرن العشرين » لالفرد روزنبرغ « يتنازل الى حد الاعتراف بالفكر والعقل لاعلام فرنسا ، من ادباء وفلاسفة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه يجعلهم جميعاً « محرومين كل سمو حقيقي في الشعور ! » ويستنتج من ذلك ان « يوم ١٤ تموز اصبح رمز ضعف في الاخلاق ! » ويذهب الى ان الثورة الفرنسية مثلت فيها مسألة اللون دوراً خطيراً . « فالجماهير اليعقوبية ، ذات اللون القاتم (١)

٨ (الفولان لموسولينى .

٩ (الفول لغوبلز .

كانت تجر الى المقصلة كل من كان ممشوق القامة اشقر الشعر ! » (اي : آرياً) .
واخيراً يقرر روزنبرغ « ان الانسان الجديد ، وليسد اختلاط انسان جبال الالب
بانسان البحر الابيض المتوسط ، احتل المكان الاول منذ هذا اليوم ! » (يوم انتصار
الثورة الفرنسية) .

وهكذا يرى النازيون في ثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ضربة مسددة الى « طبقة
الاشراف الجرمانية الاصل » ، والى كل « ممشوق القامة اشقر الشعر » . وعلى تعبير « ايوالد
« اغولد » في كتابه « فرنسا وفكرة الجنس » ، يرى النازيون في الثورة الفرنسية « شق
عصا الطاعة » ، من الجماهير القاطنة ما بين البحر الابيض المتوسط وجبال الالب ، على
سيطرة طبقة الفوهرر ! » ويكاد لا يحتاج الى ذكر انهم يرون فيها ايضاً أثراً من
آثار « الاجرام اليهودي » اذ لا بد من الاصبع اليهودية في كل شيء . لا يعجب
النازيين . فيقرر جيرهارد أوتينيكال في كتابه « الجريمة اليهودية التقليدية » ان
اليهود هم الذين قاموا بالثورة ، ولكن عن طريق الماسون !

في كلمات نيتشه التي نقلناها عن فرح انطون ، يقول الكاتب الالماني : « ان
الاديان ومبادئ الثورة الفرنسية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي اشد وباء اصاب
الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفني قواها كما يفني التدردن قوى المسولين .
وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو أدنى من انحطاطها
الحالي ، اذا لم يحبط البشر له ، ويحدث لديهم رد فعل في شأنه . »

والنازيون الذين يتخذون من نيتشه اباً روحياً ، يزعمون انهم ، وحركتهم ، هم
رد الفعل الذي ينتشل الانسانية من وهدة انحطاطها التي قذفتم فيها مبادئ الاديان
والثورة الفرنسية وشقيقاتها . وفي بعض الآراء التي نقلناها عن مؤانبي النازيين يبدو
من تهوسهم بالجرمانية وعمق عقولهم وتنورهم في البحث انهم ، حقاً ، أكفأ للقيام
بهذا الواجب الانساني العظيم !

ولكن لندع المراح . ان التاريخ يصدر حكمه الآن في ميادين النضال والقتال .
انه يلفظ قراراً رهيباً في اي الجانبين يجب ان يعيش ويكمل سير تطوره وتقدمه :
القيم الدينية ، ومبادئ الثورة الفرنسية وشقيقاتها ، ام مبادئ رد الفعل النازي ؟

ومن قبل ، اصدر احد ادبائنا ومفكرينا حكمه في هذا الموضوع . ففي خاتمة رواية الريحاني « خارج الحرم » ، بعد ان تنتحر بطلة الرواية جهان ، يطالع القارى هذه الاسطر :

« أما المدبة وكتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) ، فقد كانا على الارض الى جانب الديوان (المقعد) مغموسين بالدم ، كأنهما يشهدان شهادة حق على ما ينبغي ان يموت في الشرق والغرب قبل ان تولد روح العالم الجديدة ! »
غير اننا نتحدث عن هذه الروح الجديدة كأنها لم تولد بعد ، وهي في الواقع مولودة ، سائرة في طريق الشباب .

ولرنا غشيت المنكر ساعات من الحدة العصبية ، تجلت له فيها الانسانية شائعة الفرق بين ما هي عليه وما ينبغي لها ان تكون ، فصرخ صرخات جبران خليل جبران ^(١) في مقالته العبودية . وتراوى له « الشيخ الهزيل » الذي تراوى جبران فسأله : « من أنت ؟ » واذا به الحرية ! فسأله : « من اولادك ؟ » فاذا بهم ثلاثة : « واحد مات مضروباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد ! » ثم تراوى الشيخ خلف الضباب ...

الحق ان الحرية منذ عصور لم تبق شجراً هزيعاً ، ولها ابناء كثيرون لم يموتوا مصلوبين او مجازين .

والحق انها لبثت عصراً فصراً تغالب الضباب الذي ينغمد ليوارى شمسها ، واذا باشعتها تتكاثر وترداد قوة ، وتبدد الظلام ، وتثير بقاء اعظم فاعظم من الكون .

... الخنجر وزرأتوسقرا نيتشه ، شاهدا شهادة الحق ، على ما يجب ان يموت في الشرق والغرب ، كما قال الريحاني .

(١) يقول الاستاذ ميخائيل نعيمة ، في كتابه عن جبران ، ان صاحب النبي نأثر بنيتشه في كتاب هكذا تكلم زرادشت . وقد يكون ان جبران ونيتشه تلاقيا في اشياء هي من مشاعرات الفكر ، ولكن المؤكد ان الروح الجبرانية بعيدة جدا عن النيتشية كما يصورها دعاة النازية . وهذا لا يعني ، طبعاً ، اننا ننفي ان يكون جبران نأثر بنيتشه اديباً من حيث الاسلوب والغالب . فتصميم كتاب النبي فيه مشابه من كتاب هكذا تكلم زرادشت .

تَيَّارَانِ يَتَفَاعِلَانِ

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟

عمر بن الخطاب

يولد الناس ، ويلبثون ، احرارا ، متساوين في الحقوق .

من البند الاول من « اعلان حقوق الانسان »

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ »

شد ما تذكر هذه الكلمة التاريخية التي فاه بها عمر بن الخطاب بفاتحة اعلان حقوق الانسان والمواطن ، وشد ما تذكر ايضاً بكلمة روسو : يولد الانسان حراً ، ولكنه في كل مكان مقيد بالحديد ، وهي الكلمة التي افتتح بها كتابه : الميثاق الاجتماعي .

فهنا قرابة فكرية نفسية بادية للعيان . وقد سبق لنا ان ذكرنا كيف ان الاعلام من مفكرينا وادباؤنا لما انفتح لهم سبيل الاطلاع على الثورة الفرنسية ومبادئها ومفكرها رأوا محيطهم وظروفه فلم يلبث ذلك ان ردهم ايضاً الى عصر النبوة والراشدين ومبادئ الاسلام في طلعت البكر . فسموا الحكم الديموقراطي الذي كانوا يستهدفونه بالحكم الشوري ، ونقشوا على الراية الديموقراطية التي رفعوها الآية الكريمة : « وامرهم شورى بينهم » . واذا طالبوا بحرية الفكر مثلاً نادوا بالآية : « لكم دينكم ولي دين » .

وقد عزز الكواكبي حق المفكرين في الحماية من الاضطهاد والاستبداد بالآية : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

وبالطبع ان الفرق بعيد بين العصر الذي تلقى فيه الناس آيات القرآن لأول مرة ، والعصر الذي وقعت فيه الثورة الفرنسية او العصر الذي طلع فيه الافذاذ المفكرون

من اعلام نهضتنا الحديثة . ولكن فهم المفكرين للكتب الدينية يكون عادة ، من خلال مطالب عصرهم ، ولا سيما المفكرون المصلحون والثوريون . ومن اسرار البقاء في الكتب الدينية انها تتسع في كل عصر لمضمون فكري يطاوع مطالب العصر الاصلاحية . والاسلام بدأ وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور لا يخلو بعضها من مضمون بعض ، وكثيراً ما تتقارب تعابيرها اللغوية عن اهدافها العامة ، تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المثل والقيم العليا .

ولا شك ان مثل هذا التراث العظيم الذي وجد مفكرون المصلحون انفسهم متكتفين عليه ، خلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية وتقبل مبادئها . كانوا يرجعون الى القرآن فيصادفون الآيات النارية التي تتوقد غضباً على العتاة والجبارين وترن بالنداء الى الثورة :

« ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شعباً يستضعف طائفة منهم يذبح ابنائهم ويستحي نساءهم ، انه كان من المفسدين . وزيد ان غن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ، وزوي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

« وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينتقلون . »

وكانوا يرجعون الى سيرة النبي واقواله ، فيجدونه في ساعة عصية من العهد الذي ذاق فيه ألوان الاضطهاد يقم ان لو وضع خصومه كلاً من القمر والشمس بيديه لم يرجع عن رسالته . وهو مثال يتبع في الثبات على العقيدة ، وفي الايمان بحق الاعلان عن الرأي . وكانوا ايضاً يرددون من مأثور حديثه : اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان تقول له : انك ظالم ، فقد تودع منها .

وفي زمن الراشدين ، كانوا يرون كره الخلفاء للملكية الوراثية المطلقة وما يصحبها من ابهة وبذخ في طريقة الحياة ، وما تستدعيه من حراس وحجاب وابتماد عن الشعب . كانوا يسمعون قول القرآن في الملوك : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة . » ويسمعون رأي ابي بكر في الجالسين على العروش ، وتصريح عمر

ابن الخطاب : ما انا بملك فاستعبدكم ، وكانوا يقرأون ما تسجله التواريخ عن ابن الخطاب من مباشرته امور الناس بنفسه ، ومراقبته العمال (الولاة) ، وحرصه على بيت المال ، وان لا تثرى الاسر ذات النفوذ على حساب الرعية . كانوا يسمعون قوله للناس : كللكم راع وكللكم مسؤول ، ويرددون جوابه الشهير للبدوي : الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم اعوجاج عمر ، فيستنجون ان الامة حقاً في محاسبة حكامها . وكانوا يتمثلونه قائماً كأحد الناس ، يوقظه الفارسي متعجباً من رئيس دولة يرقد ولا حارس له ، فيجيبه الفاروق : عدلت فامنت فمئت !

وكانوا اذا راحوا يقرأون اخبار الفتوحات الاولى ، يرون كيف التقت جيوش العرب تحت لواء المبادئ. الشورية الجديدة في اصول الحكم ، بجيوش الفرس وهي تحت لواء الاوتوقراطية الكسروية .

كانوا يقرأون كيف وقف رسم قوائد الفرس على قنطرة القادسية قبل المعركة الشهيرة ، فواجه مفاوضاً عربياً هو فيما ساءه التاريخ زهرة . فحدثه المفاوض العربي عن الدين الجديد الذي تألق نوره في سماء الجزيرة العربية ودعا ودعا الفرس اليه . فقال رسم : ارايت ان اجبت الى هذا ومعني قومي كيف يكون امركم ؟ اترجعون ؟ قال المفاوض العربي : اي والله ! ففكر رسم . لقد كان سمع من المفاوض العربي ان هذا الدين الجديد « يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله » . وفي ذلك - معنوياً وعملياً - ما فيه من المس باوتوقراطية التاج الفارسي ومصالح الاشراف والبهاتين ، والنظام الاجتماعي الفارسي جملة . فقال للمفاوض العربي : « ان اهل فارس منذ ولي اردشير لم يدعوا احداً يخرج من عمله من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم تعدوا طورهم وعادوا اشرافهم . » ومعنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقم السفلة (اي : جاهل الشعب) الى طوائف يلتمز كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعها الاجتماعي ، لا حق له ان يتخرج عنه ، فهو فلاح قن ، مثلاً ، يكون ابنه فلاحاً قناً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية ، مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً ، وهكذا ...

فأجاب المفاوض العربي بقوله لرسم : نحن خير الناس للناس . فلا نستطيع ان

نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا بضربنا من عصى الله فينا .
ولم يكن رسم غيبياً ، فأحسن ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي
اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، ولن يقر الاوتوقراطية الفارسية وبلقي الجبل على
العرب للاشراف والدهاقين .

وكانوا يقرأون محضراً آخر من محاضر المفاوضات بين العرب والفرس قبل القادسية ،
اذ طلب رسم مفاوضاً من العرب يأتيه في الخيمة ، فأرسل اليه سعد بن ابى وقاص
المغيرة بن شعبة . فأقبل المنيرة فوجد القوم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ،
قد فرشت بسطهم على مسافة غاوة ، فلا يوصل الى صاحبهم حتى يثشى عليها . وكان
رسم قد تأخر عن الحضور مبالغة في الابهة والعظمة . فما زال المغيرة منطلقاً على
البسط حتى انتهى الى مقعد فخيم ، فارغ ، كان مقعد رسم ، فجلس عليه . فوثب
رجال الحاشية وانزلوه ومعهكه ، فصاح بهم : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا
ارى قوماً اسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت انكم
تواسون قومكم كما نتواسى . كان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم
ارباب بعض . اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا
هذه العقول !

وكانوا يقرأون كيف ان اشراف الفرس لما سمعوا كلام المغيرة قالوا : والله لقد
رمى بكلام لا يزال عبيدنا يتزعون اليه (اي : ييأون اليه)^(١) .
ثم كانوا يقرأون خبر النقرة على عثمان لما خص اقرباءه ، وكيف قيل له : اعتدل
او اعتزل . ثم يقرأون خبر الثورة عليه ، فيستتجون ان ولي الامر يمكن دعوته الى
التنحي عن منصبه وخلعه .

وفي عصر بني امية كانوا يجدون الخلافة تتحول على يد معاوية الى ملكية . بدأ
هذا التحول باستحداث تغييرات في نط حياة الخليفة ، اذ ابنتى قصرأ وجعل له حجاباً
وحراساً ، وفصل بين شخصه وسائر المصلين في المسجد ، واخذ البيعة لابنه يزيد ،

(١) راجع امر مفاوضات العرب والفرس قبل القادسية ، في كتاب « الفتوحات
الاسلامية » ، لدحلان ، الجزء الاول .

فأقر بذلك قاعدة الملكية الوراثية ، واصبحت البيعة من بعده مظهراً شكلياً ، لا نوعاً من الانتخاب ، كما كانت قبلاً .

قال الجاحظ : فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة بل كان عام تفرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكاً كسروياً واختلافة غصباً قيصرياً ^(٢) .

كانوا يجدون هذا التحول ويسمعون اصوات الاحتجاج ، وفي مقدمتها صوت عبد الرحمن بن ابي بكر : لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . وكانوا كذلك يقرأون ما يذكر المؤرخون وعلماء السياسة بهذا الصدد اذ يقررون ان الخلافة انقلبت الى « ملك عضوض » .

اجل ، بات الاعلام من ادبائنا ومفكرينا في النهضة الحديثة يرجعون الى التراث القديم . ويرافقون عصور التاريخ العربي فيستلهمون من عبره ما يوجبهم شطر الحرية ومقاومة الاستبداد ، ويفتح نوافذ قلوبهم واذعانهم على الثورة الفرنسية ومبادئها وقواعد الحكم الديموقراطي الحديث .

ونستطيع نحن ان نستأنف السيرة طوال عصور التاريخ العربي ايام الامويين وبعدهم ، فترى كم هي كثيرة الوقائع والافكار الخليقة بان تذكر بالثورة الفرنسية ومبادئها . نستطيع ، مثلاً ، ان نتلو هذه الرواية عن جارية بن قدامة ومعاوية ، قالوا :

(٢) تظهر نظرية « حق الملك الالهي » في التاريخ العربي جلية ايام معاوية ، ولكن على لسان ولاته ودعاته اكثر من ظهورها على لسانه الخاص ، فيقول زياد بن ابيسه ، في الخطبة البترا : لاهل العراق : « نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا » . على ان اجلى مظهر لهذه النظرية ، في التاريخ العربي ، جاء على لسان المنصور الخليفة العباسي الثاني : « ايها الناس ، انا انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوقيعه وتسديده ، وانا خازنه على فيته اعمل بشيئته ، واقسمه بارادته ، واعطيه باذنه . وقد جعلني الله عليه قفلاً اذا شاء ان يفتحني لاعطيائكم وقسم فينكم وارزاقكم فتحني ، واذا شاء ان يغلطني اغلطني ، فارغبوا الى الله ايها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله في كتابه الحق ... ان يوفيني للصواب ويسدني للرشاد ويلهيني الرأفة بكم والاحسان اليكم ، ويفتحني لاعطيائكم وقسم ارزاقكم بالعدل عليكم . انه سميع قريب ! » (خطبها في الحج) .

« دخل جارية بن قدامة على معاوية فقال له الخليفة الاموي الاول : ما كان
اهونك على قومك اذ سموك جارية . فاجابه : ما كان اهونك على قومك اذ سموك
معاوية (وهي الانثى من الكلاب) . فقال الخليفة : اسكت لا ام لك .
فاجابه : بلى ، ام لي ولدتي . اما والله ان القلوب التي ابغضناك بها لبين جوارحنا ،
والسيوف التي قاتلناك بها لفي ايدينا . وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة .
ولكنك اعطينتنا عهداً وميثاقاً ، واعطينناك سمعاً وطاعة . فان وفيت لنا وفينا لك ،
وان نزعنا الى غير ذلك ، فاننا تركنا ورامنا رجالاً شداداً واسنة حداداً . فقال
معاوية : لا اكثر الله في الناس مثلك يا جارية . فاجابه : قل معروفاً فان شر
الدعاء محيط باهله . »

أوليس من المعجب ان يستعمل المفكر الفرنسي روسو ، كلمتي جارية بن قدامة
« عهداً وميثاقاً » في جبين كتابه الذي كان إنجيل الثورة الفرنسية كما لقبوه ؟ أوليس
من المعجب ان يقول جارية للخليفة : اعطينتنا عهداً وميثاقاً ، واعطينناك سمعاً وطاعة .
فان وفيت لنا وفينا لك ، وان نزعنا الى غير ذلك ، فاننا تركنا ورامنا رجالاً
شداداً واسنة حداداً ؟ وفي هذه الكلمات المحدودات زبدة للفكر الثوري الذي
ارتكزت عليه الثورة الفرنسية ، وخلاصته ان ازمة السطة الحكومية امانة في ايدي
الحكام سلطتها اليهم الرعية ، فاذا اساؤوا التصرف بها عدوا غير أهل للامانة وحق
تجريدتها منهم ^(٢) .

(٣) وعلى اساس من هذا المبدأ اصدر شيخ الاسلام ، السيد محمد ضياء الدين ، فتواه بخلع
السلطان عبد الحميد وقد تليت في مجلس المبعوثان (النواب) وهذا نصها :
« اذا حذف (زيد) امير المؤمنين بعض مسائل شرعية مهمة من كتب الشرع المقدسة
ومنع ومزق واحرق الكتب المذكورة ، وبذر واسرف في بيت المال بدون مسوغ شرعي ،
وقتل وسجن ونفى رعاياه بدون سبب شرعي ، وتعود ارتكاب غير ذلك من المظالم الاخرى ،
ثم بعد ان اقسم بان يرجع الى الصلاح حثت يمينه واصر على احداث فتن عظيمة تخل
نظام الاخلاق بانتظام امور المسلمين واحوالهم وحرض على المذاج ، واذا كانت الاخبار تنوأل
من جميع انحاء البلاد الاسلامية طالبة خلعه تحاصراً من ذلك الجور ، وكان في بقائه ضرر محقق
وفي زواله صلاح ملحوظ ، فهل يجب اجراء ما يرجعه ارباب الحل والعقد واولياء الامور

وكذلك نستطيع ان نقف وقفة عند فرقة الخوارج التي كانت ترى ان الخلافة بالانتخاب ، وليست مقصورة على اسرة او قبيلة ، والقرآن ، كلام الله ، ينزل عندهم سياسياً منزلة الدستور في اللغة السياسية الحديثة ، وعلى الخليفة ان يتقيد به ، فاذا لم يفعل وجب الخروج على طاعته اذ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وقد اتخذ الخوارج هذه القاعدة شعاراً^(١) . ومن شعاراتهم ايضاً ما جاء على لسان ابي حمزة الخارجي : الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة : حاكماً جاء بغير ما اتول الله ، او متبعاً له ، او راضياً بعمله .

وفي وجوب الخروج على السلطان الجائر ومجاهدته بالسلاح ، يلتقي الخوارج بالمبدأ الشرعي الذي اعلنه المؤتمر الوطني « La Convention » ، وفيه يثبت حق الثورة على الحكومة الظالمة .

ولتراجع هنا خبر حادثة وقعت بين الخليفة عبد الملك بن مروان واحد الخوارج ، فانها تتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده .

روى الشياني عن الهيثم عن ابن عباس ، قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، اذ اتاه كتاب الحجاج يعظم فيه امر الخلافة ويؤمن ان ما قامت السموات والارض الا بها ، وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين ، وذلك ان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ، ثم امبطه الى الارض وجعله خليفته ، وجعل الملائكة رسلاً اليه . فاعجب عبد الملك بذلك ، وقال : لوددت ان عندي بعض الخوارج فاخاصمه بهذا الكتاب . فانصرف رجل من جلساء عبد الملك الى منزله فجلس مع ضيفائه وحدثهم الحديث . فقال له حوار بن زيد الضبي ، وكان هارباً من الحجاج : توثق لي منه ثم اعلمي به . فذكر الرجل ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال الخليفة : هو آمن على كل ما يخاف . فانصرف الرجل الى حوار فاخبره بذلك فقال : بالقدادة ان شاء الله . فلما اصبح حوار اغتسل

من الزامه بالتنازل عن السلطة والخلافة او خلعهم ؟ الجواب نعم ! - كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عني عنه . « (كتاب سمير الليالي لمحمد امين الصوفي السكري ، طبع طرابلس) » . كان الريحاني كثير الذكر للخوارج ، راجع مقالته في الريحانيات : حكومة المستقبل .

وليس ثوبين ثم تحنط وحضر باب عبد الملك ، فقال الخليفة : ادخله يا غلام . فدخل رجل عليه ثياب بيض يوجد عليه ربيع الخنوط . ثم قال : السلام عليكم . ثم جلس . فقال عبد الملك : ائت بكتاب ابي محمد يا غلام . فأتاه به ، فقال : اقرأ . فقرأ حتى اتى على آخره . فقال حوار : اراه قد جعلك في موضع ملكاً (ملاكاً) وفي موضع نبياً ، وفي موضع خليفة . فان كنت ملكاً فمن ائلك ؟ وان كنت نبياً فمن ارسلك ؟ وان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتزت الناس امورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك : قد ائلك ولا سبيل اليك ، والله لا تجاورني في بلد ابدأ ، فارحل حيث شئت . قال : فاني قد اخترت مصر . فلم يزل بها حتى مات عبد الملك . (العقد الفريد ، جزء ٣) .

واهم ما يعنيننا من هذا الحديث الطويل سؤال حوار الضبي لعبد الملك : ان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتزت الناس امورهم بالسيف ؟ فكان حواراً قال لعبد الملك : الخليفة الشرعي (او الدستوري) ليس الذي يبتز الناس امورهم بالسيف بل هو الذي يتولى منصبه عن مشورة منهم . الخليفة الشرعي هو الذي تصدر خلافته عن الشورى .

وانما نستطيع كذلك ان نعرض لذكر مشهد المنافرة الذي ألم به الكواكبي ، بين الوليد بن عبد الملك وقيس ، اذ خرج قيس مغضباً يقول للخليفة : « اتريد ان تكون جباراً ؟ والله ان نعال الصعاليك لا طول من سيفك . » ثم نستطيع ان نردد هذا البيت لابي العلاء المعري في الحكماء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وفيه يقرر ابو العلاء ان الحكماء ليسوا فوق الرعية ولكنهم مأجورون لها ، فوجبت عليهم خدمة مصالحها لا ظلمها وكيدها .

... كان اعلام مفكرينا وادباثنا يتجهون الى هذا كله ، في ثنانيا التراث القديم ، كما يتجهون الى الثورة الفرنسية ومفكرها والقواعد التي انبثقت عنها في اصول الحكم . فاذا قال الكواكبي : « ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف

الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها » ، نظر
اولاً الى التاريخ العربي فقال : « كما جرى في صدر الاسلام فيما نعلم على عثمان بن
عفان (رضي الله عنه) ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في
مسائل النياشين وبناما ودريفوس » .

واذا كتب الدكتور شبلي الشميل في الاجتماع البشري او العمران - وقد عرفنا
تقديره للشورة الفرنسية واثرها في ارتقاء الانسان واصلاح الاحكام - نظر ايضاً في
ثنايا التراث القديم فذكر كلمة منسوبة الى انوشروان يقول فيها الملك الفارسي :
« ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها
ولا تملكه » . ثم عارض الشميل هذا الرأي برأي سواه خلاصته ان انفراد الملك
بالسلطة دون ما محاسبة ، يؤدي به الى اساءة استعمالها ، فيفسد هو وتفسد بطانته ،
ويسري الفساد في الرعية جملة . ثم يعمد الشميل الى تلاوة اثر من التراث القديم ،
ساقه ابو الفداء في تاريخه ، وهو امر يبين كيف يفسد الحاكم اذا اعفى من المحاسبة
وكيف تفسد الرعية . ويبين ايضاً ان التراث القديم لم يخل من ذكر شجعان تعرضوا
- ولو فردياً - لمحاسبة الحكام المطلقين . ونكتفي هنا بآيات بعض هذا الاثر :

« بينا اخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول ، اللهم اني اشكو
اليك ظهور البني والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فخرج
المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فقال له : يا امير المؤمنين ، ان
امّنتني انباتك بالامور على جليتها واصولها ، فأمنتك فقال : ان الذي دخله الطمع حتى حال
بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين ! فقال المنصور : ويحك ! وكيف يدخلني
الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والخلو والحامض عندي ؟ فقال الرجل : لان الله
استراعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من
الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر
بإبصال المظلوم والمهوف ولا الجائع والغاري ولا الضعيف والفقير ، وما أحد الا وله
في هذا الامر حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على
رعيته تجبي الاموال فلا تعطيتها وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله تعالى

فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ، فاتفقوا على ان لا يصل اليك . من اخبار الناس
الا ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الا اقصوه ونفوه حتى تسقط
مزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم . فكان اول
من صانهم عمالك بالهدايا ليتقوا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة
والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً
وصار هؤلاء القوم شركاءك في ساطنك وانت غافل . فن جاء متظلم حيل بينه
وبين الدخول اليك ، فان اراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت
رجلاً ينظر في المظالم ، فلا يزال المظلوم يحتلف اليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك ،
فاذا صرح بين يديك ضرب ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره وانت تنظر ولا
تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ؟ »

هذا ، ولما كان الحاكم يفسد بتحرره من المحاسبة ، وكان فساد فساد الرعية
ايضاً ، كان نوع الحكم في المجتمع مفتاح التقدم او التأخر ، والسعادة او الشقاء ،
وكان الاهتمام بالسياسة امراً لا بد منه لكل انسان ، ولا سيما رجال الادب والفكر
والفلسفة . وفي ادوار التاريخ واعمار الامم عهود خاصة هي عهود الرجاء والانقلابات
تطرح فيها مسائل الحكم على بساط البحث طرْحاً لا مناص منه لاحد .

وكان اعلام ادبائنا ومفكرينا يستندون ايضاً الى التراث القديم في تقرير اهمية
الدور الذي تمثله السياسة في حياة الانسان . كانوا يقرأون قول الطرطوشي في كتابه
سراج الملوك : ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدراً واشرفها منزلة ، وبالسلطان
صلاح الانسان . ويقرأون ايضاً : ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كذلك ليس
دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة . وكانوا يقرأون ايضاً : اربعة اشياء ينبغي
ان تفسر للفهم كما تفسر للبليد ، ولا يتكل فيها على ذكاء احد : تأويل الدين
واخلاط الادوية وصفة الطريق الخوف والرأي في السلطان ، فيعزز ذلك مذهبهم في
ضرورة الاهتمام بالسياسة وبحث قضايا الحكم .
واننا نستطيع ان نمضي في هذا الكتاب الى غاية يمتد معها اجل الكلام في اثبات
التوفيق الذي ذهب اليه اعلامنا ومفكرونا بين الثورة الفرنسية ومبادئها والتراث القديم

وصفوة، مثله وقيمه . على اننا نكتفي بهذا الشاهد الشعري الاخير من احد كبار الشعراء في الفترة الاخيرة . دعي حافظ ابراهيم الى انشاء قصيدة في حفلة اقيمت بصر سنة ١٨٩٩ ابتهاجاً بعيد الدستور العثماني ، فقال :

فمن يطلب الدستور بالشر بعدما	حمته يد الفاروق فانه طالبه
اذا شوكت الفاروق قام نادياً	الى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى	وان هي لاقاها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت واقسمت	وقامت الى عبد الحميد تحاسبه
اذا الملك الجبار صعر خده	مشينا اليه بالسيوف نعائبه

فهذه الثقافة من الشاعر الى التراث القديم ، الى بشار ، وكان يتزع مزع الشورى في الحكم ، وقد رافقتها على الاثر الثقافة الى الثورة الفرنسية وعيد ١٤ تموز :

لك الله يا تموز انك بلم	لجرحى الاسى والدهر تعدو نوابه
فكم رعت جباراً وارهقت ظالماً	وانصفت مظلوماً قوالت مصائبه
ففي الغرب عيد ينظم الغرب حسنه	فتنه من وقع السرور جوانبه
وفي الشرق عيد لم ير الشرق مثله	تدق في دار السلام مواكبه

ومفهوم ان العيد الذي في الغرب ، كما يقول شارح ديوان حافظ ، هو عيد اخوية في فرنسا ، وهو في شهر تموز .

وليس بالغريب مطلقاً ان تتلاقى ، عند اعلام ادبائنا ومفكرينا ، صفوة من التراث القديم بصفوة الثورة الفرنسية ومبادئها . ليس من الغريب ان يقول الكواكبي مثلاً : « لما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يملوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية ، اي : الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضار كاتب ولا شهيد .

» وهذه الامم الموقفة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وفي كماله هذه الآية وهي « واولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل ماض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها، المعقودة طبعاً عند المستبد واعوانه .

ليس من الغريب ان يقول الكواكبي هذا القول وهو يعلم ان النتائج التي تستقر عندها افكار المتكلمين « في مسائل السياسة وطبائع الاستبداد خاصة » انما هي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانتظار في الباحثين .

« فيقول المادي : الداء القوة والدواء المقاومة . ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية . ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف . ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغلب الشريعة على السلطة . ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً . » هذه اقوال اهل النظر ، واما اهل الغرائم ، فيقول الاني : الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل . ويقول الشهم : الداء التعالي على الناس باطلاً والدواء تذليل المتكبرين . ويقول المتين : الداء وجود الرؤسا . بلا زمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال . ويقول المفادي : الداء حب الحياة والدواء حب الموت . »

فاذا تلاقت عند ادبائنا ومفكرينا صفوة من التراث القديم بصفوة من الثورة الفرنسية ومبادئها ، فذلك طبيعي ما دام التراث القديم قد استهدف عدل الحكومات وحرية الناس ورفقيهم ، وما دامت الثورة الفرنسية وادباؤها ومفكروها قد استهدفوا ايضاً عدل الحكومات وحرية الناس ورفقيهم .^{٥٠}

« انا الشرق قد جئتكم يا فتى الغرب رفيقاً ! » هي كلمة لامين الريحاني في مناسبة

(٥) في باب « نصوص مختارة » فصول اثبتناها للشيخ رشيد رضا ، وفيها يظهر ظهوراً جلياً قصد التوفيق والملازمة بين المذاهب والمبتكرات السياسية الحديثة من جهة ، والتفكير الاسلامي من جهة ثانية . ولا شك أن الانقلاب التركي الكبالي حتم السير بهذا التوفيق والملازمة الى مدى بعيد . ولكن فصول الشيخ رشيد رضا لا يزال فيها قليل أو كثير من التحفظ . أما الفصل الذي اثبتناه للاستاذ عزام في باب النصوص فقد حمل التوفيق والملازمة الى اقصى

الحدود .

ما ، وبالطبع ، انها رفقة على صعيد المساواة ، رفقة في سبيل عدل الحكومات وحرية
الناس ورقمهم . وهكذا يلتقي الشرق والغرب ويبقى شعر الشاعر كبلنغ سطرأ
في كتاب^(٦).

(٦) المقصود قوله : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

الجزء الثاني

القسم الثاني

نصوص مختارة

الامير حيدر الشهابي

١٧٦١ - ١٨٣٥

الثورة الفرنسية : انه في سنة ١٧٩٢ . مسيحية الموافقة ١٢٠٧ هجرية ، حدث في مدينة باريس بابل عظمية اذ هاج شعب هذه المملكة هاجاً عظيماً ، وتظاهر ظهوراً جسيماً ضد السلطان والامرا والاشراف في يوماً كان شديد الارتجاف . وبرزوا الكمين منذ اعوام وسنين . وطلبوا نظمات جديدة وترتيبات حديثة . وادعوا ان وجود السلطان بصوت منفرداً ، حدث خراباً عظيماً في المملكة ، وان اشرافها يتنعمون في خيراتها ، وباقي شعوبها يكابدون اتعابها ومشقاتها . فلجل ذلك نهضوا جميعهم سوياً ، تلك الشعوب الفرنسية ، ودخلوا على سراية الملك فخاف منهم خوفاً عظيماً مع ارباب دولته . وسألهم عن مرامهم والسبب الداعي الى قيامهم . فاعلوه انه من الآن وساعد (وساعداً) لا يعزز الملك امراً او بيت رأياً من تلقا ذاته . بل يكون بت الاحكام والترتيب والنظام بموجب ديوان عظيم ومحفل جسيم . ويكون الملك له الصوت الاول . ثم من بعده مشايخ الشعب الذي عليهم المعول فبذلك يهون الصعب ويرتفع الظلم عن الشعب .

فلما فهم الملك لويس قيام هذا الشعب المذكور . وما ابدوه من تلك الامور اجابهم انني وايضاً انا اود عمار هذه المملكة وخيرها وطيبع لما تروه مناسباً لرفع ضررها وضيورها .

فقالوا له : ان كنت كما زعمت اختم لنا الشروط التي تلامي اصلاح هذه المملكة وقيام المشيخة . فقبل ذلك خوفاً من الشعب . وختم لهم الشروط التي قدموها له . ثم بعد اياماً جهز الملك نفسه للهرب وخرج ليلاً من مدينة باريس وصحبته اخويه وبعض اصحابه قاصداً الانهراطور ملك النمسا لانه كان نسيه شقيق

زوجته .

وعندما بلغ مشايخ الشعب خروج هذا الملك ، جدوا في طلبه فوجدوه في إحدى الاوسطاريات التي في الطريق . فقبضوا عليه ورجعوا به الى المدينة ووضعوه في السجن مع امرأته وولده . واما اخيه فانه نجا منها . وسار الى بلاد النمسا . وبدأ جميع الشعب يصبح صارخاً فليقتل الملك بموجب الشريعة لانه نكث في عهده مع شعبه . وقد هرب لكي يلتجئ الى (ملك) النمسا الذي هو اخو زوجته ، الذي قد تسبب لنا هذا الخراب بسببها .

ثم ان بعد ما سجنوا الملك اربعة اشهر حكموا عليه في الموت ، وأحضروه امام الشعب في اليوم الاثنين الحادي والعشرون من كانون الثاني وقد ابرزوا عليه الموت . وقد طلب الملك لويس ان يخاطب عيلته والمتوكلون عليه احضروا امرأته وبنوه وشقيقته واستمروا معهم في المكان الذي كان يأكل به نحو ساعتين ونصف . وخاطب ابنته مريم انطونييتا قايلاً لها تعلمي من مصائب والدك ولا تجزعي من موته . وطلبوا منه عيلته ان ينظروه عند الصباح ، فلم يجيبهم الى ذلك . وفي الصباح اعلموه المتوكلون ان الجمهور قد حكم عليه بالموت . فطلب الملك لويس دقيقة لكي يتكلم مع معلم اعترافه فاذنوا له بذلك .

ثم اعرض مغلفاً على احد المتوكلين وتوسل اليه ان يرسله الى مجمع الجمهور . فاجابه اني لا استطيع هذا الامر لكوني متنفوس ان ارافقك الى منقع الدم . ثم اعطا ذلك المغلف الى شخص آخر . وواعده انه يوصله للجمعية وكان بذلك المغلف وصيته .

اعدام الملك لويس وظهور رأسه باليوم : وفي الساعتين ونصف بعد نصف الليل ضعد القايد العام نحو الملك لويس وعرفه بانه مزمع ان يذهب الى الموت ، فاجابه الملك انني مستعد لذلك واذا خرج من مكانه وضعد الكروسي حيث كان معلم اعترافه . وقد اصطفت العساكر في التبعية حيث كان مكان الموت . وقد كان صمت كلي . واما الملك لويس ، بعد ما قرأ صلاة المنازعين ، تعرا من ثيابه بشجاعة فريدة وقلب غير

مرتجف . وصرخ بصوت عال : ايها الفرنساويون انني اموت برياً واغفر الى كل اعدائي ، وارغب ان موقي يكون مفيداً الى الشعب . ثم امر القايد العام الى الجلاد ان يتم وظيفته وفي الحال قطع رأسه . وكان حزناً عظيماً عند الذي كانوا من حزب الملك . واما الشعب كان عنده سروراً عظيماً . وصنعوا في مثل ذلك اليوم عيداً في كل سنة تذكراً لقتل الملك وانتصار الشعب ^(١) . وكان ذلك في مبادي شهر كانون في الرومية ، وجمالوه بدو سنتهم ، ولقبوه تاريخياً للمشيخة ، وغيروا الاشهر النصرانية ورتبوها اشهر جديدة وسموها اسامي مختلفة . واما الاشهر بقيتها ثلاثين يوماً كمعادتها الاولى . وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة وكان خراب عظيم في تلك المملكة . واهوالاً متلفة مهلكة . وحدث عدة مواقع وحروب بينهم وبين حزب السلطان ولا زالت تردد وتنامى وتنمو الاحقاد وتتجدد الاجناد . وتهلك العباد . حتى ضعف حزب السلطان وقويت شوكة المشيخة قوة عظيمة . وبعد ان اعتدل ميزانها وتوطدت اركانها واهلكوا اخصامها ، فانفذوا كتابات لساير الملوك يعرفونهم عن تأييد مشيختهم وهدم ما تضمنته كتاباتهم ، ان كل من يقر بمشيختنا فهو حبيب لنا . ومن لم يقر بمشيختنا فهو عدو لنا . ويستعد الى محاربتنا لاننا قد استعدينا ان نحارب المسكونة بأسرها ! ثم كتبوا بثل ذلك الى الدولة العثمانية . وقد كانت هذه الدولة المذكورة منذ قيامها متحدة مع الدولة الفرنسية دائماً فقبلت كتابتهم ، وقرت بمشيختهم . واما الملوك الفرنسية حين وصلتهم كتابة الفرنسية نهضوا الجميع باتفاق ، على قدم وساق . وعزموا على محاربة ذلك الشعب الخارج عن الاسلوب لئلا تتشبه به بقية الشعوب . فاول من اشر عليهم بالحروب ملك النمسا الانبراطور . لانهم قد قتلوا شقيقته وزوجها ملكهم ثم نهضت ضدهم دولة الانكليز . ثم سلطان اسبانيا . ثم سلطان ايطاليا ثم البابا سلطان مدينة رومية العظيمة وجميع الممالك . ولكون ان شعب هذه المملكة هو اوفر عدداً من ساير الشعوب فاعتصبوا جميعهم عصبة واحدة واستعدوا لحرب جميع مضادديهم . وخرجوا من مدينة باريز الى قتال اعدائهم الواردين عليهم من كل ناحية . وابتدوا يحاصروا مدينة بعد مدينة ، ومملكة بعد مملكة . وهم في عساكر كالبهار الزاهرة

(١) لعل المؤلف خلط بين سقوط الباستيل في ١٤ تموز، وسقوط الملك .

بآلات الحرب الوافرة . والقوات القادرة . الى ان اشتهر باسمهم واقتدارهم . وانتشر
تلكهم وانتصارهم وتلكوا حصون وقلاع وبلدان وضيع . واستولوا على ممالك بلاد
ايطاليا وكانت حكمهم احد عشر سلطانا . وامتلكوا عدة قلاع من بلاد النمسا .
وكان ذلك الانتصار والتملك عن يد ذلك الايث الظاهر والاسد الكاسر الفرد الفريد
والبطل الصنديد . امير الجيوش يونابارته . وكان هذا من بعض كبار المشيخة
الفرنساوية . وكان قصير القامة رقيق الجسم اصفر اللون ، باعه اليمين اطول من اليسار
تملأ من الحكمة مشمولا بالسعد والنعمة . يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة . وهو
طلياني الاصل من جزيرة كورسيكا . وتربيته في مدينة باريز كرسى دولة فرنسا .

اول مشور لبونابرت اذاعه في مصر : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله
ولا ولدا له ولا شريك بملكه .

من طرف الجمهور الفرنسي المبني على اساس الحرية . والساري عسكر الكبير
يونابارته امير الجيوش الفرنسي . ونعرف اهالي مصر جميعهم . ان من زمان مديد
السنجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة
الفرنساوية . ويظلمون تجارها بانواع الباط والتعدي . فحضرت الآن ساعة عقوبتهم
وحسرة من مدت عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الالبازا
والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب
العالمين القادر على كل شي . فقد حتم في انقضاء دولتهم . يا ايها المصريين قد يقولوا
لكم انني . ازلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح
فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من
يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى . واحترم نبيه محمد
والقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساويين عند الله وان الشي . الذي
يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك . ما العقل والفضل
والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يملكون وحدهم كل ما يحلو به حبة
الدنيا . حيثما يوجد ارض مخصصة فهي مختصة للمماليك . والجواري الجمال والحلال

الحسان . والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فان كان الارض المصرية التزام للماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . فلكن رب العالمين هو رؤفاً وعادلاً على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يستثنى احداً من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية . وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلا والفضلا والعلماء بينهم سيدبروا الامور ، وبذلك يصلح حال (الامة) كلها . سابقا في الديار المصرية كانت المدن العظيمة واخلاجان الواسعة . والمتجر المتكاثر وما زال ذلك الا لطمع وظلم الممالك .

طوبى ثم الطوبى الى اهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير . وينصلح حالهم وتملا مراتبهم . طوبى ايضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مباينين من الفريقين المحاربين . فاذا يعرفونا بالاكثـر يسرعون اليـنا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع الممالك ويساعدوهم في الحرب علينا . فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم آثار .

المادة الاولى : جميع القرى القريبة ثلاثة ساعات عن المواضع الذي يمر بها العسكر الفرنسي ترسل للساري عسكر بعض وكلا لكي يعرفوا المشار اليه انهم ادسوا ونصبوا السنجق الفرنسي الذي هو ابيض وكحلي واحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقرم على العسكر الفرنسي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنسي الواجب عليهم نصب السنجق الفرنسي . وايضاً نصب سنجق السلطان العثماني محبنا دام بقاءه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختصوا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع الممالك . وعليهم الاجتهاد الزايد لكي لا يضيع ادنى شي . منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والائمة ان يلازموا وضايرتهم ، وعلى كل من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمئناً . وكذلك تكون الصلوة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقراض دولة الممالك قابلين بصوت عالي : ادام الله تعالى اجلال السلطان العثماني ! ادام الله اجلال العسكر الفرنسي ! لعن الله الممالك ! واصلح الله حال (الامة) المصرية !

تحريراً في عسكر اسكندرية ، في ثلاث عشر من شهر سيدور^(١) سنة ستة
من اضافة الجمهور الفرنسي اعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية . - (من تاريخ
الامير حيدر الشهابي الجزء الثاني) .

أحمد فارس الشدياق

١٨٠١ - ١٨٨٧

الوطني الزائف : من الناس من يبالي في مدح وطنه ويحن اليه حينئذ الى
سكنه ، فيصف مروجيه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعيه وتلاله
وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودوحه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ،
ويزعم ان فصوله كلها كالربيع حسناً وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا وان شهراً
فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ، ثم
يزفر زفير الهائم الحيران ويصرخ صراخ الوهان الا ان حب الوطن من الايمان ، لقد
جبت السهولة والحزون وركبت الذلول والامون وطأفت في الامصار وجوت في
الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من عليها مستفتياً
وسعت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم واسرارهم ، فلم اجد عيشاً هنئاً الا في
بلادي ولم يرقني شيء غير ما رأيته فيها من طاري وعادي ، فنعمت البلاد مشوى
وطابت مقاما ومأوى وانها لجديرة بان تكون مقاما للولك وما غياهم عنها الا من
النوك فمن اين يجدون لها مثيلاً ومن ذا الذي يعني عنها حوولا ؟ هي البلاد التي تغزلت
بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتا وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في

(١) سيدور : تحريف ميدور ، شهر من شهور السنة ، بحسب التسمية الجديدة بعد اعلان
الجمهورية الفرنسية الاولى ، وهو الشهر العاشر من السنة الجمهورية .

جداولها ونواعيرها وبلايلها وعصافيرها ونخائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وظبائنها ومراتعها وزكاتها ومواقعها وفي اريج آفاقها وبريج أشفاقها ونضرة حدائقها وبرجة شقائقها ، بل قد ذكرت ايضاً في بعض الكتب المذلة في عدة مواضع مفصلة قليل انها معدن الخير والكرم ومشوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدأ الصنائع والعلوم في كل معمول ومعلوم . فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عوناً وخذناً قال ويبي انه شر جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه ممن توالفه وتصافيه قال ويبي انه شر من اخيه . فكيف اهل الحارة طراً قال ويبي انهم كانوا كلهم عليّ شراً ولم اجد منهم الا ضراً . فكيف اهل البلد اجمعين قال ويبي ما منهم امين ولا معين فما كانوا خلقوا من ما . وطين . قال ويبي اني قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغنياء ينقادون لمن يأمرهم من الاغنياء فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يسألون الا بل . بطونهم ولو من الخشار . فكيف اهل المدن والامصار قال ويبي انهم اولو غبن وغش وتغرير واخفار ما تعامل منهم من احد الا ويمنيك بالكمد والتكد واخسار لانهم لما كانوا متقلبين في امور المعاش ومنهمكين في اتخاذ الاثاث والرياش ، ظنوا ان سائر الناس همج فاعليهم في غبنهم من حرج . فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صنت طويتهم وطلب منهم البال فتلك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل قطر ونعم الشان . قال ويلك ومن اين لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الآداب فكادوا ان يمحوا مع الذئاب فان احدهم ليقول اخاه على خبيرة يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويحرمه هجوعه ، هذه حالة سكان البلاد الحاضر منهم والباد فلا تكثرون من السؤال ولا يخطر ببالك غير هذه الحال . فان قلت له ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن واهلها على هذه المساوي . الشوائب ، قال ان اهلها الاولين كانوا من اخيرين فحراثوها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة . ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهدة ونصوصها عليه متساندة متعاضة ، ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً

ترى كل من سواك طالحاً، ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقاً يشين فلنا
 ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالاً (ومن يك ذا ثم مر مريض يجسد
 مرأً به الماء الزلالاً) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طمنك على جنسك الا مليح
 وان امرأً يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مفتونه ويذيعوا جنونه
 ويتجنبوا محضره وينكبوا منظره . فيا للعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه
 مع ذم قومه وجنسه ومن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كان ذاتة وصفاته محوراً
 للقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان وهو لاهله شأن وبذكر عيوبهم
 سكران وعن عيوب نفسه وسنان . هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه
 محبتهم للاوطان، وهي محبة كاذبة ودعوى عائبة . ومنهم من يغار على وطنه ويجتهد في نفع
 سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاد شيئاً فافا هو لتنبئهم لا لتشويهم ولحشم على
 الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لدى الاجيال ولكي يحملهم على عظام المساعي
 لا لان يقوم بالنعمي على افعالهم مقام النائب الناعي، فتراهم كلما سنحت فرصة لنفعهم
 انتهزها او لبانة خيبرهم تنجزها فثله كمثل المري الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن
 لحزن من يتعمده ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته وسرحه .
 لا جرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغبة حظ ونصيب فاما
 اذا اختص الانسان بنعمة ورأى غيره في كرب وغمة فلن يهنه ورود مشربها والتمتع بها .
 وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت بريرته ونيتته فهو يرى سعادة جاره
 داعية لبلوغ اوطاره وتشديد داره لا من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن
 السنان وينظر بعينه معايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان افقد عرفت ان بعض
 الناس يمدح ولا غيره له، وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا هو الاصلح . الا قل لمن
 يطرى نفسه ويذكرها ان انت بهذه التركيبة الا مذكيتها وان ما خفي عليك من
 شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين تهان فان كان قد
 استحوذ عليك الغفول لعلك رفيع الفاعل ونصب المفعول واستهواك الفرور لمعرفتك
 « بون جور » فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت، ولا فهمت معنى الا ما فهمت، فم
 تفتخر ومن الذي تحتقر ولم لا تتعبر فتزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجسا واست

ترى الا مفراحاً اشراً او جزءاً مبتسماً ، فاقن حياء . وليكن عرفانك بقدرتك اول ما تعرفه من الاشياء ، ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب . - (من مقالة « جل اديبة » تلاقى « مجالي الفرر لكتاب القرن التاسع عشر » القسم الاول) .

دفاعاً وافع الطهطاوي

١٢١٦ هـ - ١٢٩٠ هـ

هو الفرنسية المنصوب لهم^(١) : المادة الاولى : سائر الفرنسية مستون قدام الشريعة . المادة الثانية : يعطون من اموالهم ، بغير امتياز ، شيئاً معيناً لبيت المال ، كل انسان على حسب ثروته . المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لاخذ اي منصب كان واية رتبة كانت . المادة الرابعة : ذات^(٢) كل واحد منهم يستقل بها ويضمن له حريتها فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة في الشريعة وبالصورة المعينة التي يطبق بها الحاكم . المادة الخامسة : كل انسان موجود في بلاد الفرنسيين يتبع دينه كما يحب ، لا يشاركه احد في ذلك بل يمان على ذلك ويمنع من يتعرض له في عبادته . المادة السادسة : يشترط ان تكون الدولة على الملة القاثوليكية الحوارية الرومانية . المادة السابعة : تعمير كنائس القاثوليكية وغيرهم من النصرانية يدفع لها شيء من مال النصرانية ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين . المادة الثامنة :

(١) لما كانت « الشارت » التي اقراها لويس الثامن عشر تنطوي على كثير مما ورد في بيان حقوق الانسان كانت هذه القطعة من اول الاثار الدالة على « بيان حقوق الانسان » في اللغة العربية .

(٢) يعني شخصية .

لا يمنع انسان في فرنسا ان يظهر رأيه وان يكتبه ويطبعه بشرط ان لا يضر ما في القانون فاذا اضر ازيل . المادة التاسعة : سائر الاملاك والاراضي حرم فلا يتعدى احد على ملك آخر . المادة العاشرة : للدولة دون غيرها ان تكره انسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع بشرط ان تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء . المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفن يجب نسيانه . وكذلك ما وقع من المحكمة واهل البلاد . المادة الثانية عشرة : اخذ العساكر قد يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر .

عنوق الناس انني بضميرها المبروانه (البرطانه) : قوله في المادة الاولى :
سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بانه العظيم ، نظراً الى اجراء الاحكام . ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضارية وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على انسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي لا عدل كلي حقيقي فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان فانه كالايمان الكامل والحلال الصرف وامثال ذلك ونظائره فلا معنى لحصر المستحيل في القول والعنقاء والخل الوفي كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم خل وفي للشدائد اصطفي
 ايقنت ان المستحيل ثلاثة القول والعنقاء والحل الوفي

مع ان ذلك ممنوع في العنقاء فانها نوع من الطيور موجود الافراد ، يذكره
 ارباب علم الحشايش وذكر الثعلبي في قصص الانبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في
 تكذيبها بالقدر . نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والافرنج
 من انها من اعلاها عقاب ومن اسفلها اسد ، وعلى كل حال فلها في الجملة وجود . واما
 المادة الثانية فانها محض سياسية ويمكن ان يقال ان الفرد ^(١) ونحوها لو كانت مرتبة
 في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات
 والفي . والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال او كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها اصل
 في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم ^(٢) . ومن الحكم المقررة عند
 قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ، ومدة اقامتي بباريس لم اسمع احدا يشكو من
 المكوس والفرد والجبايات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي
 وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة
 الثالثة فلا ضرر فيها ابداً بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى
 يقرب من منصب اعلى من منصبه وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تقدمهم على حالة
 واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائماً
 حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا
 المنوال فان شريعة قدماء القبط كانت تعين لكل انسان صنعة ثم يجعلونها متوارثة عنه
 لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة فكانت
 هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع
 لان الابن يحسن عادة ما رأى ابيه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع في
 غيره فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضياً بصنعة لا يتمنى
 اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها

(١) يستعملها بمعنى الضرائب اطلاقاً .

(٢) يعني ابا حنيفة .

انتهى . ويردّ عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ايده فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا في هذه الصنعة والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله .
واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء ، فذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء .
واما المادة الثامنة فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يُحظر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات، الاولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية اي داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يخص الا انها قد تتضمن اخبارا تتشوف نفس الانسان الى العلم بها على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق او تنبيهات مفيدة او نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير لانه قد يُحظر ببال الحقير ما لا يُحظر ببال العظيم كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها .

وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيت فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس في انسان
ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما او رديئا وكان من الامور المهمة كتبه اهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر .
واما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعفاء وتعقيبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة .
وفي المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهي ان تدوير امر المعاملات لثلاثة مراتب : المرتبة الاولى الملك مع وزرائه ، والثانية مرتبة البيريه المحابية للملك ، والثالثة

مرتبة رسل العملات الذين هم وكلاء الرعية والمحابون عنهم حتى لا تظلم من احد وحيثما كانت رسل العملات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها وهي آمنة منه بالكلية ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد .

نور سنة ١٨٣٠ في ذكر التغييرات التي حصلت وما ترتب عليها من الفتن :
 قد سبق لنا من القوانين السالفة في الكلام على حقوق الفرنسية في المادة الثامنة ، انه لا يمنع انسان في فرنسا من ان يظهر رأيه ويطبعه ، بشرط ان لا يضر ما في القوانين ، فان اضر به ازيل . فما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد اظهر عدة اوامر منها النهي عن ان يظهر الانسان رأيه وان يكتبه او يطبعه بشروط معينة خصوصاً الكازيبرات اليومية ، فانه لا بد في طبعها من ان يطلع عليها احد من طرف الدولة فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره مع ان ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة : رأي الملك ورأي اهل ديواني المشورة يعني ديوان البيرية وديوان رسل العملات . فصنع وحده ما لا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره . وغير ايضاً في هذه الاوامر شيئاً في مجمع اختيار رسل العملات يعني في الذين يختارون رسل العملات ليعشوها في باريس ، وفتح ديوان العملات قبل ان يجتمع مع انه كان حقه ان لا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله في المرة السابقة . وهذا كله على خلاف القوانين . ثم ان الملك لما اظهر هذه الاوامر كأنه احس في نفسه بحصول مخالفة فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بانهم اعداء للحرية التي هي مقصد رعية الفرنسية . وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر ان الفرنسية كانوا غير مستعدين لها . وبجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات انه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب كما قال الشاعر :

ارى بين الرماد وميض جمر ويوشك ان يكون له اضطرام

فان النار بالعيدان تذكو وان الحرب اولها الكلام

ففي مساء اليوم الذي ظهرت فيه هذه الاوامر في الكازيطات ، اخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى باليزوايال يعني البرابية السلطانية التي سكنها عيلة اقارب الملك المسماة عيلة ارليان ، التي الملك الآن منها . وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس . وكان هذا اليوم السادس والعشرين في شهر يوليه ، وفي يوم السابع والعشرين لم يظهر غالب كازيطات الحرية لعدم رضائها بالشروط . فلذلك بلغت الاوامر جميع الناس وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات التي من عاداتها انها لا تقترع عن الظهور الا لمهم عظيم . فاغلقت الورشات والمعامل والنجاريات والمدارس فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك واخراج من طاعته ومعددة لمساويه ، وفترت على الناس من غير مقابل . وبهذه الديار بل وفي غيرها قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام ، خصوصا مادة الخطابات فانها قوية ، وخصوصا بلاغة الانشاء فلها مدخلة عظيمة كما قيل : ان ينزل الوحي على قوم بعد الانبياء نزل على بلغاء الكتاب ، خصوصا اذا كان ما يذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ومقصودا عند الخاصة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة فانها (اي البلاغة) ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة . فلما سمع بذلك ولاية الحسبة ^(٢) حضروا في المحال العامة ومنعوا الناس من قراءة هذه الكازيطات وحاصروا مطابعها وهما بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ، وحبسوا من اهتموه من الطباعةين وهدلوا كثيرا ، مما اظهر شيئا مخالفا لتقريب الملك من الرعية . وهذا ايضا مما قوى غضب الفرنسيات فكتب ادباب هذه الكازيطات يعني رؤساء الفرنسيات الذين هم يكتبون فيها آراءهم ، ورقة انكار واشهروها وعددوا نسخها ولصقوها بحدران المدينة وامروا فيها الرعية بالحرب وعينوا محله . وكان الميعاد في درب سراية باليزوايال ، فازدحم فيه كثير من الامم وفيما حوله من الخارات . فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحمت فعظم دوي الرعية وكثرت اصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والخارات فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين . فكانت الرعية تقاتل اولاً بالاحجار والعساكر

(٣) كلمة عربية لبوليس . شذذا في بعض النسخ .

باليوف وآلات الحرب . فكثرت القتال وعظمت المطاردة من الجانبين . ثم بحث
الرعية عن آلات الحرب وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس ، فكأننا
لسان حال فرنساوية الذي هو اصدق من لسان مقالهم جعل يقول : ان بني عمك
فيهم رماح . فعظم القتال وكان اكثر المقتول من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا
القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال واظهار عيوب العساكر . وقامت
انفس الناس على ملكهم لاعتقادهم انه امر بالقتال . فما مررت بهذا الوقت بحارة الا
وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! ادام الله الشرطة ، واهلك شدة الملك . فمن هذا
الوقت كثر سفك الدماء واخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشرا . او غصب واغلب
العملة والصناعية ، خصوصاً الطباعين هجموا على القرقولات وخانات العساكر واخذوا
منها السلاح والبارود وقتلوا من فيها من العساكر . وخلع الناس صورة علامة الملك
من الحوانيت والمحال العامة وعلامة ملك الفرنسيين هي صورة زهر الزنبق ، كما ان
علامة ملك الاسلام صورة هلال ، وملك الموسقوية صورة عقاب وكسروا قناديل
الحارات وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه في السكك المطروقة حتى يتعذر مشي الفرسان
عليه ، ونهبوا جيخانات البارود السلطانية . فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك ، وهو
خارج ، امر بجعل المدينة محاصرة حكماً وجعل قائد العسكر اميراً من اعداء فرنساوية
مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية . مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة .
فقد دهم هذا على ان الملك ليس جليل الرأي ، فانه لو كان كذلك لظهر امارات
العفو والسماح ، فان عفو الملك ابقى للملك ، ولما ولي على عساكره الاجاعة عقلاً .
اجاباً له وللرعية غير مبغضين ولا اعداء . ولكن اراد هلاك رعاياه حيث تولهم بمثالة
اعدائه ، مع ان استصلاح العدو احزم من استهلاكه ويحسن قول بعضهم :
عليك بالظلم وبالحباء . والرفق بالمدن والاعضاء .
ان لم تقل عثرة من يقال يوشك ان تصيبك الجهال
فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبمنظير ما نواه لاضداده . فلو انعم في اعطاء
الحرية لفرقة بهذه الصفة حرية ، لما وقع في مثل هذه الحيرة وتزل عن كرسيه في
هذه المحنة الاخيرة ، سيما وقد عهد فرنساوية بصفة الحرية والفوها واعتادوا عليها وصارت

عندهم من الصفات النفسية ، وما احسن قول الشاعر :

ولناس عادات وقد القوا بها لها سنن يرفعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفي اليوم الثامن والعشرين اخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة الذي هو محل شيخ مدينة باريس . فعند ذلك ظهر الخفر الجنسي ^(١) يعني ورديان الرعية وهم عساكر كانت سابقا تحفر الاهالي ، كما كان للملك عساكر ورديان تحفره . وقد كان عزلهم الملك شارل العاشر . فلما وقعت الفتنة ظهوروا ليعانوا عن الرعية فاشهروا اسلحتهم للقتال وطرردوا سائر العساكر من محلم وحرقوا كثير منها . وفي هذه الاوقات ارتفعت المحاكم وصار الحاكم هو الرعية ولم يكن للدولة عمل شي . .

فقد بذلت ما عندها من القوة لاختاد ذاك وتسكينه فلم تقدر عليه فكانت جميع القواصة متحركة والطبجية معينة لاني عشر الفاً من الورديان السلطاني وستة آلاف من عساكر الصب . فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر الف نفس غير الطبجية والقواصة . وكان من يحمل السلاح من الرعية اقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالاحجار ويعين المتسلح . وبعد اخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا الى محل يقال له لوفر ، والى قصر التوري وهو سراية الملك ، ووقع الحرب فيما بين العساكر واهل البلد . وبينما هم في الخرابة بهذا المحل ، اذ انتشر البيرق المثلث الالوان الذي هو علامة الحرية ، على الكنائس والهياكل العامة ودقت النواقيس الكبيرة لاعلام سائر الناس داخل وخارج باريس من اهل المدينة او غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر . فلما رأيت العساكر ان النصر للرعية وان ضرب السلاح على اهل بلادهم واقاربهم عليهم امتنع اغلبهم وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه . وفي اليوم التاسع والعشرين في الصباح ملكت اهل البلدة ثلاثة ارباع المدينة ووقع ايضاً في ايديهم قصر التوري واللوافر فلكوها ونشروا عليها بيرق الحرية . فلما سمع بذلك صاري عسكر المأمور بادخال اهل باريس في طاعة السلطان رجع ، فكان

هذا تمام نصرة اهل البلد . حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية . ومن هذا الوقت نصب حكم وقتي وديوان موقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم . وكان رئيس هذا الحكم الموقت صاري العسكر المسمى لفيته وهو الذي قاتل في الفتنة الاولى للحرية ايضاً . وهذا الرجل شهير بانه يحب الحرية ويحياي عنها ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البولييتيقية . وليس صاحب قريحة مستخرجاً للعلوم من حيز العدم كغالب رجال فرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصاً في العلوم العسكرية ، ولكن اعظم الناس مقاماً لا قريحة وفهماً ، وليس المراد القدر في معرفته بل في انتهاء الرياسة اليه . ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا ان التصدر ليس دائماً على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع . ومن الغريب ان مثل هذا الامر يقع ايضاً في البلاد الحسنة التمدن . واظن ان هذا كله مصداق الحديث الشريف الذي هو ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه . وكما قال الشاعر :

اذا ابصرت ذا فضل فقيراً فلا تعجب فقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق ذكاء المرء محسوب عليه
وما احسن قول الشاعر :

ولو ان السحاب همى بعقل لما اروى مع النخل القتادا
ولو اعطى على قدر المعالي سقى الهضبات واجتنب الوهادا
(من كتاب « تلخيص الابريز الى تلخيص باريز »)

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي

١٨٨٧ - ١٨١٢

منه اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر : خمسة اشخاص حازتهم فرانسا من مشاهير الكتبة بذلوا جهدهم في ايضاح طرق الفلسفة وتشديد مبانيها وهم فونتييل الذي انسجمت مكاتيبه فيها ، ويوفون الذي كان مشغلا بتأليف توارينه الطبيعية في عصر الملك لويس الخامس عشر الذي مر ذكره ويوصف بانه كان مشفع افلاطون وبلين الذي كسا علم الفلسفة رقة التعبير في كتابه الذي خلد ذكره واعرب عن رقة طبعه ودماثة اخلاقه ، ومونتسكيو الذي صرف همه في كتب السياسة وابانت تصانيفه عن غاية براعته فيها ، قال بعضهم وكفى شاهداً على ذلك ما كتبه في سبب ارتفاع والمخطاط الدولة الرومانية وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات راشقة ، وكتابه الآخر المسمى روح الشرائع الذي بين فيه الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة اقسام :

- اولها الحقوق المعتبرة بين الامم في خلطتها السياسية والمتجربة .
- وثانيها حقوق الدولة على رعاياها وبالعكس .
- وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حال الدول الى ثلاثة اقسام ايضاً :
- الاول الدول الوراثية خلفاً عن ساب ، المطلقة التصرف بلا قيد .
- الثاني الدول الوراثية المقيدة بالقوانين .
- الثالث الدول الجمهورية المقيدة بالقوانين ايضاً . (والجمهورية هي كناية عن انتخاب الامة رئيساً للدولة يتصرف في ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته او لمدة معلومة ثم ينتخب غيره) . وبين ما ينشأ عن هذه الاحوال الثلاثة من الخير والشر وهو معدود عند اهل اوربا قانوناً صحيحاً في الاحكام . ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد في احكامه بين يتوصل الى اجتناء الشجرة بقطع الشجرة من اصلها . وله غير ذلك عدة تأليف تلقاها الناس بالقبول من جملة المراسلات الفارسية وهي اشبه بميزان يشنع فيه

على عوائد الشرقيين والغربيين ليظهر مآذام كل منهم ومحامده . وكان ساح في بلاد أوروبا ليلاحظ في سياحته ما يلايم كل مملكة من الممالك ، فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرانس للسرة وطيب العيش . ثم ان رابع هؤلاء الخمسة اشخاص الذين نحن بصدد الكلام عليهم هو دلمير صاحب التأليف المحلى بقلائد القواعد ، الحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد . وخامسهم كندليك الذي بسط اشعة التحقيق على تأليف لوك الانكليزي في علم الفلسفة . وبلي هؤلاء الخمسة جان باتيست روسو صاحب الاشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التأليف البارع المعروف بجبل بلاس المحتوي على المقالة الفلسفية وهو احسن مما ألف في بابيه .

ومن مشاهير هذا القرن ايضاً وولتير . قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل هو ممن اخذ راية الكتابة باليمين وبالشمال واشتهر في فنونها شهرة بالغة ، ولو لم يحمله انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع به اعم . وقال آخرون ان الشيء اذا تجاوز الحد رجع الى الضد ، وكما ان الجهل مضر فكذلك مقابله اذا صاحبه اساءة الغير . وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان وفي كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرد عن وطنه وعن كل موضع اراد التزول به . مات في سنة ١٧٧٨ وله مؤلفات عديدة ترجم منها مؤلفان الى العربية وطبعوا في مصر . الاول يسمى مطالع شمس السير في وقائع كركلوس الثاني عشر . وهذا الملك هو ملك اسوج المشهور بالحروب الشديدة بينه وبين بطرس الاكبر امبراطور روسيا والثاني يسمى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامبراطور المشار اليه . ولكن قل من يثق بتأليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلموا اللغات الاجنبية في بلادنا يرون بان ما من فائدة مما تعلموه الا ان يطالعوا كتبه وامثالها بلذة ويقتفوا خطواته برغبة لينالوا حق التصدر بين صفوف المتمدنين .

ومنهم جانجك روسو وهو نظير وولتير المذكور في الشهرة . وله من حسن التعبير ما لا تستقر معه الاوهام . وهذا الرجل مع وولتير المذكور قبله هما اللذان انشأ الثورة التي اتت بالمصائب الآتي ذكرها الى فرانساً وهيأ اسبابها واستعجل وقوعها . - (زبدة الصحائف في سياحة المعارف ، بيروت ١٨٧٩) .

فرنسيس فتح الله المراس

١٨٣٦ - ١٨٧٣

بحث في الحرية : بينما كان الفيلسوف مواصلاً خطابه كان الملك والملكة شاخصين فيه بأعين يخامرهما الذكاء والاصفاة ، مستوعبين معانيه بكل اتضاع ودعة . وغب نهاية مقالته جعلت الملكة تقول له هكذا : اننا قد عرفنا عدم امكان وجود حرية للانسان بل ولا لسائر الانواع . وان جميع الاشياء لكونها مرتبطة بخدمة بعضها البعض فهي مقيدة ايضاً بعبودية بعضها البعض . ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة او مضره لصالح الامور فالاجتهاد بابطالها ضرب من اللازوم وقانون صواني . وبناء على ذلك عندما نظرننا دولة الاستعباد تتداخل مسا بين شعوبنا تحت طرق مختلفة حيث لا ينجم عن هذا التداخل سوى الاضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة ، نهضنا حالا ضدها وسطونا عليها سطوة اسكندر على داريوس وسجنائهم كما علمت .

اما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقة من كل حاكم وصافية من كل مكدر ، فهو امر لا يمكنه البتة ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي تصعب في الاجراء بقدر سهولتها في التصور حسب كل الاعمال الفلسفية ، لان التطبع لا ينقلب طبعاً ، وما كان هكذا فهو غير لذيز عند الطبيعة ويبعد عن السهولة . واذا امكن الانسان السلوك كما اشرت فلا يكون ذلك الا لمن وسعته العناية بسمة الانفراد ، وهذا شاذ وايس حكم الشاذ الا الحفظ وعدم القياس عليه .

وعلى كل حال ان الانسان اذا كان متعبداً لاحكام دولة التمدن والصالح يكون داخلاً في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الانسانية . على انه اذا كان ذلك التعبد لازماً فتلك الحرية ملزومة ، لان اعتناق الانسان واجباته لا يدعى عبودية ، ولكن اذا كان الشخص معتوقاً من رق تلك الدولة فهو يكون بالضرورة داخلاً في عبودية ضدها تبعاً لمقتضى الحال .

ولكون الدخول في احكام دولة الخشونة والبربرية يفسد احوال البشر وينثر عظام

جميعيتهم نازعا عنهم كل الصفات الحيدة والساوك السليم ، وذلك هو الامر الذي لا يوجد اضر منه لمملكة التمدن والصلاح ، وجب علينا دفعا لوقوع البلبال والوبال فيا بين رعايانا ان نشور على تلك الدولة الآبقة التي اذا لم نغح آثارها لم تقم حرية الانسان المطلوبة اصلا ، وهي الحرية التي لا يمكنك انكارها مها رذذت الهواجس والاوهم الفلسفية التي لا وجود لها الا في العقل الذي قد يخطر فيه ما لا حقيقة له في الظاهر .

فاردف الفيلسوف كلامه قائلا : انا لم امنع امكان احرية الادبية بل الطبيعية . ولا شك اننا اذا اطلقنا انظارنا الى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة نعين اقواما احرارا وآخرين عبيداً حسبما تقتضي احوالهم وكنفياتهم . وعلى كل حال ان الاجتهاد في عتق العبيد وهدم مباني العبودية هو امر ضروري وواجب .

فطرح الملك انظاره على الفيلسوف وقال :

- اذن مشروعتنا في محاربة مملكة العبودية واستنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق الملام .

- كلا . بل هو حسن وواجب يا ايها الملك المعظم ، لان الاستعباد مكروه عقلا وطبعاً ، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما سواها فحاربوا من ظلم واعتدى واعدوا له سلاسل واغلالا .

مادة الصالح العام : ان اهم دواعي السياسة واعظم بواعثها هو النظر الدائم الى الصالح العام وتواصل السهر عليه ، بحيث .هما اتقنت السياسة نظامها واحكمته ولم تلتفت الى هذا الصالح او تغافلت عنه فلا تعتبر الا كمساعد على نثر عقد الهيثة الاجتماعية الذي لا يمكن دوامه منظوما ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له ، اذ ان اهل ما يسبب العمار هو تسبب لوقوع الخراب ، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يؤول نفعه الى العامة اجمالا وافرادا ودفع ما يفضي الى الضرر .

وذلك يستريح على خمسة اركان ، وهي تمهيد سبل العلوم وتسهيل طرائق التجارة وتقوية وسائل الصنائع والاشغال ومساعدة الزراعة والفلاحة وقطع اسباب التعدي .

أما الركن الأول الذي يناط بتمهيد سبل العلوم ، فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لأجل كل من يرغب ، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق .

وأما الركن الثاني الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة ، فهو يتوقف أولا : على تقريب أبعاد الاسفار بواسطة اصلاح الطرقات . ثانيا : على ازالة مخاوف ومعاثر الطريق وإيقاع الامان والسهولة . ثالثا : على وضع حدود ونظمات تجري على كل ارباب هذه الحرفة بحيث لا يمكن احداً تجاوزها . رابعا ، وهو الاخير : على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وابطال كل عائق لسيورها .

والركن الثالث الذي يخص تقوية وسائط الصنائع والاشغال فهو يتأسس أولا : على اثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم وتشجيع ما به يمكنهم اقتطاف ثمرات انعامهم . ثانيا : على توسيع دوائر الادوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف . ثالثا : على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم الى معاناة الاشغال . اخيراً على المساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها .

وأما الركن الرابع الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح وفتح الطريق للزراع ، وتعجيل خطوات اخصاد ومنع حشر العشار واحتشاد اخطران ، وبإزالة كل موانع البذار وتسديد جميع مطالب الارض .

وأما الركن الخامس الذي يشمل رفع اسباب التعدي ، فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط وهي حماية المتاع وصيانة الاعمار ووقاية الارواح .

هالة السنوار : ان اعظم المقومات لصحة السياسة واقامة الحق هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون ادنى امتياز بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير . ولا مازدة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء . كيلا يقع خلل في نظام الحق لان كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليها . فكما ان العظماء والاغنياء هم القوة الواصلة

كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . فالولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير . ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ولم تحرس اموافهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة . لعل ذلك الغنى عندما يأتي من محل ملاهيه ومراسحه الى مسكنه الواسع ، ويضجع على فراشه المصنوع من ريش النعام وينظر الى رقوش حجرته ونقوشها لا يفكر في ذاك المسكين ، الذي بعد ان يكمد ويكدح طول النهار مقاسياً حر صيفه ومتكبداً برد شتائه لاجل تشييد ذاك المسكن وتنميق تلك الحجرة ، يذهب الى كوخه الحقير ويأكل خبزه اليابسة مع اولاده العراة الجائعين ثم يضجع على طراحته المتخرقة تحت لحاف الاعياء والوصب . فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب ايقاعه ايضاً في موقف الحق الذي يستوي عنده الجميع ؟ وهل يسوغ لارباب السياسة ان يقبلوا وقوع هذا التباين ويحفظوا بذلك المسكين الذي بدونهم لا تصل قوتهم الى مواقعها فلا يخافون من وثوب التسعة والنسعين وفرط عقد الجمعية ؟ ولماذا يوجد حق لاصوات الاغنياء فتن في قاعات السياسة ، ولا يوجد هذا الحق لاصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والاهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات ؟ فلا شك ان لسان السياسة نفسه ينادي بوجود حالة الاستواء ويصرخ ضد الضد .

تفكيك العنصر : انه اذا فحص الجوهر الانساني من حيث فطرته الاولى واصله الطبيعي انما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة والحصال البسيطة حسياً يتبين ذلك من كل انسان يقربى منفرداً عن ازدحامات عالم المحاطة . ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجه الى وقاية نفسه سبباً فعالاً لقبوله التأثير بكل صورة تلوح له ، والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاته ، كان انضمامه في سلك الجمعية اذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الادبية على ستائر قلبه وتطبعه باخلاق وطباع بها يمكنه ان يعارك ويذاحم امواج العالم البشري ويعيش تحت لواء حوادثه .

غير ان كثرة تقابلات الاحوال والاجيال تأدت به الى ان يفقد كل اطوار تلك الفطرة الاولى ويصير من أشبر المخلوقات وأوحشها . ومن ثم لم يعد الانسان قادراً على

الندخول في دائرة التمدن الذي يطلب سداجة الصفات وسلامة الطباع الا اذا كان متربنا بثقيف العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة بها يمكن لكل من البشر ان يسترجع الى طبيعته ما افقدها التوحش .

ولا يتم هذا الثقيف الا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والادبية . ومن المعلوم ان العلم يخلق في الانسان قلبا نقيا وروحا مستقيمة ويجعله ظافرا بكل الصفات الصافية ونافرا عن كل ما يشين الجوهر الانساني ، ولا يترك له سبيلا الى التفكير في الامور الدنية والاميال المنحرفة ، وهو الامر الذي تشتق منه كل افعال الشر وعليه تبنى كل دعائم التوحش . فكيف يفكر الانسان مثلا في دناءة السلوك عندما يكون الفلك حائرا به الى اعالي الاجرام السماوية حيث يرى الوف الوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شمس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سيارة مختلفة الابعاد والاشكال ، وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما ينجز بعظم اعمال الله . وكيف يأخذ بذهنه المتك بالقرب بينا تكون الطبيعة هاتكة له اسرارها ، ومبدية لديه غوامضها . فاذا نظر الى الارض يراها تدعوه الى تمييز تراكيب طبقاتها وتعدد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها الى غيره . واذا تأمل في الحيوان يراه باسطة انواعه لدى حكمه وطالبا منه فصل كل عن الآخر . واذا لحظ النباتات يراها كأنها تدعوه الى معاينة عجائب غورها وماهية جوهرها وكيفية تنذيتها وعملية انتاجها وتأثير خاصياتها وكأنها تكلفه احصاء كل من انواعها وتحديدده تكليفا فوق وسعه .

وكيف يرتضي بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمة له مشكلاتها وطارحة عليه مسائل غوامضها ، فما ينتهي من معرفة صفات عنصر منها وادراك نسبة اتحاده بغيره وكيفية قوامه الا ويعجز لديه عنصر آخر ويدعوه الى تفنيده ، فيذهب خابطا في عباب المشكلات حيثما يقابله مواد الغوامض بايقاده واثارتها ويطارحه مولد الما برشاقتة ولحييه ويناقشه حامل الانوار بلمنانه واضاءته ويدهشه الذهب بثباته وثقله وتذهله الفضة بوضاءتها ونقاوتها ويلطمه الحديد بكثافته وصداه ويجيره الزئبق بفراره ونفاره .

وكيف يسمح لأمياله ان تسرح في عالم الشرور والمعاصي حينما تكون الجغرافية سارحة به على ظهر هذه الكرة الارضية المملوءة من عجائب الخليقة وغرائب الحوادث ، فتارة تطير به الى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الاودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية فيفكر فيما سبب المرتفعات وما احدث المنخفضات وما جمع المياه . وحيناً تمر به على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والانهار المتدفقة ، فيقف متفكراً فيما جسد اليابسة وجمع السوائل الى مكان واحد . واوراقاً تسبح به في الاقاليم والاقطار فيستوقفه اختلاف الغرض والطول في ميدان التأمل لتباين المناخات والاهوية . وطوراً تترحل به الى بلاد لا عدد لها واماكن لا تحصى وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع فيقف متحيراً بما تحويه الارض من الامم والقبائل المختلفة بالمذاهب والمشارب والهيئات ، ومندهشاً لما يراه من احوال البلدان والسياسات والشرائع ، وممناً فيما يعاينه من الصنائع المتنوعة الاشكال والتجارات المتشكلة الاحوال ، وهكذا يطوف به هذا العلم الى اقاصي العالم بدون ان يترك له سبيلاً للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته غير مباح صديقاً ولا مفارق حبيباً .

وكيف لا يبدل الاعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الاجيال الغابرة ويطلع على كثيرين من البشر الذين كانت اعمالهم سبباً لآحوالهم ان رديئة فردية او صالحة فصاحة ؟ ويظهر له كثير من الناس الذين بواسطة سمو افعالهم قد بلغوا اسمى المراتب واعلى المنازل . وكهم وكهم من الناس الذين بواسطة دناءة افعالهم قد هبطوا الى الخضيض ، لا بل يظهر له ان كثيراً من الممالك العظيمة القوة والراسخة الازكان قد افضت بها قبائح السلوك الى الاضمحلال والملاشاة ، وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الاطوار الحميدة الى الاتساع والامتداد ورفعتها الى سما. المجد والكرامة . وخاصة يظهر له ان افعال اخشونة والتوحش ليس كانت تبعد الممالك وتستأصل الملوك فقط ، بل كانت ايضاً تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة وغنية . أفلا يشعر بحركة غامضة في اعماق قلبه تدعوه الى احتقار العظمت الانسانية والفضفضات الكاذبة الحالية وتجذبه الى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالاخلاق

الحميدة وذلك حينما تمتطي تأملاته السرية خيول التاريخ وتجري في برية سوريا مثلاً حينما يشاهد ان عظمة ذلك الاقليم القديم العهد والكريم القربة والاصل ، قد استجالت بفعل الاجيال الخشنة الى دمار مهول حيث لا يرى سوى خرابات تلقي الكآبة على الابصار وعدد قليل من الشعوب المتفجرة ، بدل تلك العظمت السابقة والمجد الزاهر والفنى الوافر . أفلا يطرق تأسفاً اذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال وقد صارت نسياً منسياً ولم يبق فيها سوى شبك الصيادين ؟ أفلا يرتعد لدى سطوة الحدائث حينما يرى اورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد اصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التي لم تحفظها سوى يد القداسة ؟ أفلا يضطرب بخافة من يوائق الزمان عندما يرى انطاكيه مدينة الله العظمى ذات الاسوار العالية والحصون المنيعه قد اضحت رمة مضجعة في قبر الوبال ؟ أفلا يرتجف لدى هيبة الايام اذ يرى مدينة تدمر التي هي مبنية بالصفاح والهدم قد صارت اطلالاً دارسة ورسوماً بالية حتى لا يشاهد فيها سوى عواميد هابطة وعضايد ساقطة وهاكل مهدومة ؟ أفلا يبجس كرباً اذ يعاين ان منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسك الذي لا صوت له ؟ أفلا يقف متحيراً عندما يصعد على رأس سمعان ويرى ان جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الحصنة والمزارع الناضرة والاديرة العامرة والكنائس الرحبة ، قد صار خراباً تماماً ودماراً لا مزيد عليه بحيث لم يبق سوى بعض رسوم واشكال ؟ وبعد هذا أفلا تسحقه صواعق الاستغزاز عندما يتأكد ان جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش ؟ فبالاجمال نقول : ان العلم هو الفاعل الاعظم لتثقيف العقل ، والمروض الاكبر لجلح الطبايع والسبب الاهم لتشييد التمدن والعمار ، اذ هو يرفع افكار الانسان الى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحققات الاشياء ويرسم في مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة فلا يعود هاذياً بجزئيات الامور فتتطفي من قلبه توقدات الحسد بنظره الى زوال المحسودات ، ويطرد من صدره ضواغط الطمع بادراكه حقيقة المطموعات ، وتتلشى من روحه بقية الاطوار المنتنة الرجسة الخراب كالتساوة التي غرقت مراكب مصر ، والاتطاع الذي هدم قصور آثور ، والتغفل الذي كسف شمس فارس ، والطمع الذي كسر صولجان

الفكر العربي الحديث

مكدونية ، والضعيفة التي مزقت احشاء فلسطين ، والكبرياء التي ثلت عرش الررم ، واخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين ، والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع اركان دمشق . ثم تنمو به الصفات الداعية الى جلاله العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والاحسان والوفاء والامنية ، اذ يعود خبيراً بفوائل تلك الاطوار الطالحة ، وعليها بنتائج هذه الصفات الصالحة .

فبدون تنقيف العقل اذن لا يعد الانسان الا مع البهائم التي لا عقل لها ، ولا يمكن ان يدعى متمدنا قط .

الطافوا الاموال من عقالها : لا يوجد ما يستحق نهوض العالم ضده نظير البخل ، لانه يجتهد على الدوام ان يحشد ارزاق البشر ويحشر قوت العباد احشاداً وحشراً يوجبان خلل النظام العام واستعباد الانام .

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم وهو قابض بيديه على ساعد دولاب المعاملات ومساعد قيام الحياة ، فلنوجه خطابنا اليه قائلين :

ها قد نهضت المسكونة عليك يا ايها الروح الخبيث قائد البخل والشح ، وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات ، فانت مستوجب ان يحكم عليك بالخذل والردل بدون تردد لانك تود ان ينمق كل باب لتقدم الخلائق وتفتح كل سبل التقهر . فتخزن الاموال ولا تدع لها منفذاً . اما تعلم ان العطاء ينهج طرق الخير ويسند اخاك الجائع ؟ وتكثر الدنانير والدرهم في اعماق الصناديق حذراً من ان يلامسها الهواء ويمسها الضياء . اما تدري ان الدرهم قد صارت الآن محوراً لمدار عالم المعاطة ، وان حجزها يضيق دائرة العلاقات البشرية ويعيق تبادل المعاملات ؟ وتطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس ، وتميل عن كل عمل كريم او سمة تقتضي بذل الورق . اما تعرف ان العضد الاعظم لترتيب حياتك يؤخذ من مثل السائلين والمحتاجين ؟ فهم يبنون دارك وحانوتك . وهم ينسجون ثوبك ورداك . وهم يجيزون كل ادوات طعامك وشرباك . وهم يتسارعون اليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات الختلس . ومجرات العدو . وهم يدون ايديهم ليرفعوك لتلا تعثر رجلك بحجر . واذا انتشبت

حريقة في مثل ذلك القوا ارواحهم لينقذوك واولادك ويحموا امتعتك . فلماذا تدوس في اعناقهم اذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون اسعافاً ؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتتهم اذا مدوا ايديهم اليك ليطلبوا سداد رمتهم ، حتى اذا امكن للاطاح ان يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة استشعرت بالم اقتلاع الضرس . ولماذا تعصي الامر باشباع الجائع وستر العريان ؟ اما تخشى وقوعك في ثورتي الدنيا والآخرة ؟ ولم تهجس على مضجعتك في امر التوفير وتتصل به الى حسابات وكميات تفوق طور الادراك مرتقياً في سلسلة التضعيف والنزب حيث تقول في ضميرك : اني من الغد سأشرع في تنقيص كمية الاعم والبقول والزيت وفي اجهاد الاولاد في تسييم الاعمال الخدمية استمناً بهم عن الخدم ، ولم ازل انقص مقدار الطعام واعود الاولاد على الخدمة حتى نصير اخيراً قابلين ان نعيش على التمر من الخبز والقليل من الجبن والزعر وقادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة . وبهذا العمل يمكنني ان اجمع كل مال العالم ، لان درهماً ودرهماً درهمان . ودرهمان درهمان اربعة دراهم . واربعة دراهم في اربعة دراهم ستة عشر درهماً . و $16 \times 16 = 256$ و $256 \times 256 = 65536$. وهكذا ترتقي من المضروب الى المضروب فيه الى ان تبلغ الحاصل الاعلى حيث لا يوجد رقم ولا يجري قلم . وحينئذ تأخذ نفسك وتقول : ها انا مزروع ان املك العالم بأسره واوقف كل دواليب الاشغال واجعل الناس عبيداً لي . ثم ستفعل هكذا يا هذا البخيل ولكن بعد الوف من السنين اذا لم تمت بداء التكميل . فليعيش رأسك الكريم ولينجز مقصدك العظيم . ولا عتب عليك اذا فكرت في نفسك هكذا لانك ترافق القمر في مشروعه ، فكما ان هذا الجرم يزال انه سيوقف دوران الارض بعد عدد من الوف من السنين لا يحصى ، وذلك بتأخير جاذبيته لحركتها بت ثوان في كل جيل ، هكذا تحال انت ايضاً انك ستوقف حركة الاشغال يجذبك كل الاموال من ابدي الناس ، وتعود منفرداً بالسطوة والنفى بعد العمر الطويل .

فلا عتب على العالم اذا اثار عليك الفتى يا قسائد البخل ، وارتفعت اصواته ضدك ، وتبادرت قواته الى الفتك بك ، لانك انت العدو المبين له ولكل صراحه ، وانت المصير على هتك ستار هيئته واستعباد قلوب ابنائه بشرك اهم ادوات مداره ، ومع كل

هذا فلا بأس من ترك ظفر لك في جسد التمدن لتكون مانعاً لهجوم التبذير الكثير
النصر ، ولكن يجب ان تكون ملجواً باوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة
ما بين التبذير والبخل . - (عن كتاب « غابة الحق ») .

جمال الدين الافغانى

١٨٣٩ - ١٨٩٧

جمال الدين الافغانى ونوفىس باشا خديو مصر : قال الخديوي توفيق باشا
لجمال الدين ما معناه : « انني احب كل خير للمصريين ، ويسرني ان ارى بلادي
وابنائها في اعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل
جاهل ، لا يصلح ان يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المبهجة ، فيلقون
انفسهم والبلاد في تهلكة . »

قال جمال الدين مجاباً : « ليسمح لي سمو امير البلاد ان اقول بحرية واخلص
ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افرادة ،
ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب
المصري وافراده ، ينظرون به لسموكم . وان قبلتم نصيح هذا المخلص واسرعت في
اشراك الامة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن
الامة تسن القوانين وتنفذ باسحكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم
لسطانكم . » هذا اهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راض
واسر في نفسه البطش بجمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك .

جمال الدين وفكرة مجلس نيابي تسلكه الحكومة : « ان القوة النيابية لاي
امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة ، واي

مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محرقة لها ، فاعلموا ان حياة تلك القوة ، النيابية الموهومة ، موقوفة على ارادة من احدثها .

» فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة مالكة او اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكا اسما ، وامته هي المالكه فعلا ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى . واعظم اماني الشعوب المملوكه التخلص من ربقة الاجنبي وتحكمه .

» سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري (أنه) سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابها للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب حزب للشمال وحزب لليمين ، وسوف ترون اذا تشكل مجلسكم ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس لان اقل مبادئه ان يكون معارضا للحكومة ، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها .

» تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيت المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيت كل عضو يفر من ان يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد الى حزب اليمين ، اذ ذاك تقولون صدق جمال الدين .

» نعم ، اكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي ادنى فضيلة ، اذا رجعت وعلتم ان المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة .

» فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثه له خارجه عن محيط الامة ، والمحدث له قوة خارجه عن الامة ومجلسها ، يعارضها منافع متضاده ، وهدفان مختلفان ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلا كذلك لا يفني عن الامة فتिला .

» سترون ان الذي سيكون نائباً عن شعب لا اعدد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء . بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه .

« تعرفونه اذا شتم ان تفكروا قليلا ، وان شتم وحنه فانا اقول لكم :
 نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم في زمانكم هو ذلك الوجيه
 الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين
 هم اسقط منه همه ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لا يراد الحجة تجاه الحاكم الظالم
 معنى ولو كانت من الحجة الساطعة ، ذاك الرجل الذي يرى في ارادة القوة الجائرة
 كل « خير وحكمة » ، ويرى في كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، « قلة
 ادب » ، و « سوء تدبير » !! و « عدم حنكة » !! و « تهور » !! وبالتالي يرى
 ان كل صفات الغرة النفسية والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والشبور .
 « وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الامة ،
 هو من مجالي حكمته المصرية !!

« هذا مع الاسف الذي اراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم - اذا صحت
 الاحلام - والذي سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفية اقرت على ان الوجود خير من
 العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده . »

جمال الدين وبصير روسيا : سأل القيصر جمال الدين عن سبب اختلافه
 مع الشاه ، فذكر له رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وان الشاه ينفر
 من ذلك ، ولا يجب ان يقر به .
 قال القيصر : « اني ارى الحق في جانب الشاه ، اذ كيف يرضى ملك من
 الملوك ان يحكم به فلاحو مملكته ؟ »

فاجاب جمال الدين بجراحة وفصاحة : اعتقد يا جلالة القيصر ان عرش الملك ، اذا
 كانت الملايين من الرعية اصدقا له ، خير من ان تكون اعداء . يترقبون الفرص ،
 ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام . فعلت عند ذلك وجهه القيصر
 علامة غضب ، فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قام
 من مجلسه ، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، اذ كان وداعاً بارداً .
 ثم اوعز القيصر الى اكبر رجال بلاطه ، ان يسرعوا متلطفين باخراجه من روسيا .

جمال الدين وشاه ابراه : صادف وجود جمال الدين متجولاً في أوروبا فتح معرض باريس سنة ١٨٨٩ م ف شخص اليها ، والتقى بالشاه في (مينيخ) عاصمة (باواريا) عائداً من باريس . فاستأذنه ، واعتذر له عما فرط ، وغتب عليه بعدم عودته الى طهران . وأخيراً دعاه الى مرافقته . فاجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه الى بلاد فارس ، فلم يصل الى طهران حتى عاد الناس ، وفي مقدمتهم الامراء والعلماء ، الى الاجتماع به ، والانتفاع بعلمه ، والشاه لا يرتاب من امره . واول ما كلفه به ، ان يسن ما يراه موافقاً لروح العصر من القوانين ، (ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في أوروبا) فعمل جمال الدين بهمة المهودة فسن القانون الاساسي لمملكة فارس ، لتكون حكومة ملكية شورية ، فاما قواعد الدستور الكلية ، ومواده ، واطلع عليه الشاه ناصر الدين إلا وأعظم الامر ، اذ رأى ان حكمه سيكون مقيداً ، وان اهل فارس سيكونون اوسع سلطة من الشاه يجلسهم النيابي . فقال لجمال الدين :

- أصبح ان اكون يا حضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس « شهنشاه » ، كأحد افراد الفلاحين ؟

- اعلم يا حضرة الشاه ان تاجك وعظمتك سلطانك وقواصم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري اعظم وانفذ واثبت مما هم الآن .

« والفلاح ، والعامل ، والصانع في المملكة يا حضرة الشاه انفع من عظمتك ، ومن امرائك ، واسمح لاخلاصي ان اؤذيه ، صريحاً قبل فوات وقته .

« لا شك يا عظمتك الشاه انك رأيت ، وقرأت عن امة استطاعت ان تعيش بدون ان يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون امة ورعية ؟ »

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصداً لما وشى به الصدر الاعظم ، وخوف الشاه منه بقوله : « ان ما يسنة جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئاً ، ولكنه يقرع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوق » ونفر نفوراً بيناً من جمال الدين ، واعرض عنه فأحس بهذا التغيير والنفور ، فاستأذن بالذهاب الى

بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلومتراً من طهران ، فاذن له فساد اليها وتبعه جم غفير من العظماء والعلماء والوجهاء ، الذين كان يخطب فيهم ، ويستحثهم على اصلاح حكومتهم ، وما منهم الا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح في البلاد طويلاً وعرضاً وذاع فيها عزم جمال الدين على اصلاح ايران . فخاف ناصر الدين الشام عاقبة ذلك ، فانفذ الى بلدة شاه عبد العظيم خمائة فارس ، قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه على برذون ، بصورة فضيحة وعليه دور من الحمى ، درجة حرارتها اربعون ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق حتى اوصلوه الى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة .

جمال الدين والسلطان عبد الحميد : خرج جمال الدين على عادته ، من حضرة السلطان الى حجرة رئيس القراء ، فقال له بلطف : يا حضرة السيد ، ان ابلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة ، وانت تلب في السبحة في حضرته .

فقال جمال الدين : « سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بتقدرات الملايين من الامة على هواه ، وليس من يعترضه منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق ان يلعب في سبخته كيف يشاء ؟ » اما رئيس القراء فتك حجرتة مهرولاً خائفاً ، يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة ، ان يوشى به الى السلطان .

رأس بهر نايج او نايج بهر رأس : « لا يسلم ، على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر كلما صادمه مجلس الامة بإرادته ، أو غلبه على هواه . » لذلك قلت : اذا اتاح الله رجلاً قوياً عادلاً باصر وللشرق ، يحكمه بأهله ، ذلك الرجل اما ان يكون موجوداً أو تأتي به الامة ، فتملكه على شرط الامانة والخضوع لقانونها الاساسي وتتوجه على هذا القام ، وتعلنه أنه يبقى التاج على رأسه ، ما بقي هو محافظاً اميناً على صون الدستور ، وانه اذا حث بقسه وخان دستور الامة ، اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، أو تلجه بلا رأس .

« هذا ما يحسن بالامة فعله اذا هي خشيت من امرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالباً . »

الامانة بقدرة الانسان : « نعم ، ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون ، وسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من اسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل الى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكناً ، وما صورته جموده وتوقف عقله عنده بائنه خيال قد اصبحت حقيقة . »

شكل الحكم مسألة اساسية : « وانظروا اذ ذاك الى نهضة الشرق ، خصوصاً متى تغير شكل الحكم في اهلها ، ففتروا الشرق قد عاد مشرقاً بالعلماء ، زاهراً ببقائهم العلوم مثبتاً ، مقرراً لكل ما هو نافع ويصلح ان يبقى اثرأ . »

الاستعمار لكل شيء له عمر ينتهي عنده : « ولما كان حياة الامم والدول ادوار وآجال ، ولحلوها وتكررها ، وتعاليلها ثم توقفها ، وانحطاطها اسباب وعوامل ، هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية ، بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم . وانقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهلها من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع لهم . - (عن كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني » للسخرومي) .

الدكتور شاكر الخوري

١٨٤٧ - ١٩١١

الحرية السياسية التي نلناها هي : خلاصتنا من الجاسوسية والمراقبة . فالاولى تخربتنا وتجعلنا محتالين غشاشين قاتلين ، وتجعل حياتنا بيد مفسد دني . يبيعنا حسب شهواته ، والثانية تجعلنا في جهل وتأخر بحيث نرى انفسنا ادنى من الحيوانات . فالمراقبة هي

التي جعلت صاحب مطبعة كتابي أن يقول طبع في مصر ، مع انه طبعه في بيروت .
والذي علمه الكذب هي (؟) المراقبة ، فلا ظلم امر من الجاسوسية ، ولا ضعف
اذل من المراقبة التي تفتكر ان بمجرد كتاب ، او حرف في كلمة ، او كلمة في
جملة تحرب المملكة وتتغير افكار الرعايا ، فاي كتاب لحد الآن عمل هذا العمل ؟
والسبب لانتشار مبدأ هو جعل الناس مستعدة لقبوله . فالظلم السابق يجعل الانسان
يتغير بسهولة ، وينتقل الى مبدأ ضده . فهذه هي الاسباب التي تغير الافكار .
فالدستور الذي هو الكتاب السياسي المقدس للمملكة العثمانية لا يمكن حفظه ما لم
تحفظه الجندية وتحم عنه . فيلزم ، عند دخول الجندي في العسكرية ، ان يخلف يميناً
بالمحافظة عليه . وكذلك كل مستخدم . والامل من (المبعوثان) تعديله ولا يكون
اجتماعهم كجرج بابل قبل بل فيه اللغات لكثرتها ، ويتقادون الخطباء الاقدمين بخطاباتهم
ويخرجون عن موضوع الاصلاح الحالي ، وان يسن لكل ولاية بعض قوانين مخصوصة
حسب عوائدها ، ومناخها ، وعلمها وجهلها ، ليكون الاتحاد اعظم . . . لان مملكتنا
مكونة من ولايات فيها اعظم تمدن ، ومن اخرى متوحشة جداً ، فلا يمكن تكلم
الاثنين بلغة واحدة ، فحكمة (المبعوثان) ترتب ذلك . . .

عَبْدُ اللَّهِ نَدِيمُ

١٢٦١ هـ - ١٣١٤ هـ

فضل السورى : نحن معاشر الشرقيين في حاجة الى نقد الافكار وتبشيش
الآراء حتى فيما يصدر منا في الشؤون الاهلية ، لتبذ الضار والاخذ بالنافع . فقد
يصدر الرأي من انسان عن الاخلاص ويكون قد تلوت عليه المطالب ، فيخرج الرأي
فطيراً يضرنا الاخذ به وان كان صاحبه لم يقصد الضرر . ولا ينبغي الاعتماد على

ذوي المظاهر العلمية والادارية قبل ان نمرض افكارهم على المبادئ والخواتيم ، فان الحائر ثقة الناس به كثيراً ما تدعوه العجلة للسقوط في وهدة الارتباك فيقول من غير تروء ويعمل بغير تدبير لعله بانه لا يُعارض قوله ولا يقبح عمله . وقد درست الامم الغربية هذه المقدمات وعلمت ما وراء الاقتصاد بالذلا . واهل الشهرة من الانحطاط ، فاعتمدت على مجالس شوراها لتستخلص من تضارب الافكار واختلاف الاحزاب قواعد لا تنقضها الحوادث وقوانين تلائم التابع والمتبوع وتبقى بهادعائم الدولة قائمة على اساس متين . ولم تتوصل لهذا المقصد الحسن الا باعتادها على من يخوض لحج المنايا في حفظ وطنه من طامع في امتلاكه او عادٍ على اهل ، وبهذا التمهيد نجحت اعمالهم وقويت شوكتهم ونفذت سلطتهم ونحطت سطوتهم اوطانهم الى غيرها فتحاً واستعماراً .

وقد توالت الاعوام والجرائد تنقل لنا ، معاشر الشرقيين ، اخبار اولئك الفاترين وكسرح لنا من اعمالهم التي حيرت الافكار وادهشت العقول ما ساعدتهم عليه تمحيص الرأي وتوحيد الكلمة وتمحيص المشاورين . ونحن قعود على قارعة الكسل والتهاون نكتفي بالتفرج على الامم العاملة ونفرح بما نراه من فوزها ونغضب اذا تأخر فريق منها . وقد انصرفنا عن مصالح اوطاننا وعميننا عن طريق تقدمنا وحيل بيننا وبين مجازاة هؤلاء العقلاء بسور الانفة من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء ، وان كانوا قد امتلأوا علماً وكسبوا نباهة ، فاذا عرلنا على التشاور يوماً جمعنا ارباب الاموال واهل الوجاهة من غير تحير العقلاء . منهم ولا تميز الاغبياء من الاذكياء وحشرنا هذا الشيت في قاعة حبس لا يراهم فاضل ولا يسمهم خبير ، فيحيصون حيصة تنجلي عن نكبات نجاب في صور مضار تدفع او منافع تصنع ، وليس وراء هذا التقصير غير التدمير . ولئن قيل ان التجارب دللتنا على ان الشورى لا تنجح في الشرق ، او ان الشرقيين غير عقلاء . كما يزعم محبو الاثرة والانفراد بالتسلط ، قلنا : ان اتحاد الشرقي مع الغربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة ، وانما ثابر الغربيون على السمل بالشورى واخذوا يصححون الاغاليط ويراجعون الخطأ ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة حتى تربت الملكات وتصورت المطالب امامهم بصور الواقعيات ، وما اوصلهم لهذه الغاية الا

اعتادهم على الفضل والاذكيا . منهم ، حتى اضطر الاغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في اندية الشورى . وما زالوا يزاولون ويبحثون في الامم والدول حتى قبضوا على ازمة الملك بعصية قوية ووقفوا امام ماوكلهم حصوناً تقيهم الفتن الداخلية والفوائد الخارجية . فاذاً على الشرقيين لو جاروهم في هذه الطريق وهي سهلة لا حزن فيها ولا وعورة ، ولا يلزم للدخول فيها اكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ اهل الذاتيات لتخرج من مضيق هذه المصيبة التي اصاب بها بعض نهباء الثمرق من خدمة الاجنبي ولو بيع الوطن اليه ، وما وضعهم في هذه النقطة الذميمة الا التربية الاجنبية من جهة وتناقل الملوك عنهم من جهة اخرى . وهم (الملوك) قادرون على تربية ابنا بلادهم على حب الوطن والملة والدولة وتدريبهم على الاعمال الادارية والحربية والصناعية وترقيتهم بقدر استحقاقهم ، وسد باب الاجنبي امامهم باعطائهم الحقوق الوطنية والملكية وتسليمهم الاعمال العالية التي ترشحوا لها واستعدوا للقيام باعبائها ، فانهم ان فعلوا ذلك ملأوا صدور الامم بحبة لهم واستألوهم اليهم ، فكانوا اسهل انقياداً اليهم من رجال الاستبداد . فان المستعبد يقاد اضطراراً ، وهذا يخدم اختياراً ، وستان بين الحالتين . وسنعود لهذا الموضوع ان شاء الله تعالى معتمدين على الشواهد القرآنية والاعمال النبوية . مؤيدين ذلك بما كان ايام الخلفاء الراشدين ليتحقق الشرقي ان السلامة والنجاح في الشورى واخذ آراء المحنكين العارفين بالامم واحوالها . - (من مآل له) .

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٦ - ١٩٠٢

تعريف الاستبداد : الاستبداد لغة هو اقتدار المرء على رأي نفسه فيما ينبغي الاششارة فيه ، وبعبارة اخرى الاستبداد ان يحكم الحاكم بامرءه حسب هواه واميله .

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي اقوى العوامل التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة ولو انصفت لجعلته اسعد اخلاق . واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً او مع الاضافة لان ضرره يقتصر على البعض دون الكل .

والاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف افراد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعه او احترام شريعة آلهية او قانون بشري .

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة « استبداد » كلمات استعباد واعساف وتسلط وتحكم . في مقابلتها كلمات شرع مصون ، وحقوق محترمة ، وحسن مشترك ، وحياة طيبة .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد » كلمات حاكم بامر . وحاكم مطلق . وظالم . وجبار . يقابلها حاكم بالشورى . وحاكم مقيد بقوانين . وعادل . ووديع . وفي مقابلة حكومات مستبدة كلمات عادلة . ومسئولة . ومقيدة . ودستورية .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد عليهم » كلمات اسرى . واذلاء . ومستضعفين . ومستنبتين . وفي مقابلتها محسوبون . وابادة . واحرار . واحياء .

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات . واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء . بلا خشية حساب ولا عقاب محققين .

ومنشأ الاستبداد اما هو من كون الحكومة غير مكلنة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة التي تخلصت من قيود القوانين بجهل رعاياها ، واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة . والصحيح ان الانسان لم يتوفق حتى الآن لايجاد حكومة دستورية تحكم بشورة الامة بمعنى الشورى الحقيقي .

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم

بالغلبة أو الوراثة، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث، أو المنتخب متى كان غير محاسب. وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يعدله نوعاً وقد يكون احكام واضر من استبداد الفرد. ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لأن ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا ينفه ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب، وهذه افضل الحكومات لو وجدت^(١).

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نعلم على عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودرينفوس.

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمواخذة بسبب من اسباب غفلة الأمة او اغفالها لها، الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شي. من القوتين الهائلتين الموهنتين: جهالة الأمة والجنود المنظمة.

الاستبداد والعلم: ما اشبه المستبد في نسبه الى رعيته بالوصي الخائن القوي على ايتام اغنياء. يتصرف في نموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين. فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الالتماس رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد ان تنور الرعية بالعلم.

لا يخفى على المستبد ان لا استبداد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حقماً. تحبب في ظلامه جهل وتيه عماء. فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل. ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الخواضر في غشاء الليل.

(١) سبق لنا ان نهينا الى مقابلة هذا الرأي برأي مونتسكيو في فصل السلطات واستقلال بعضها عن بعض.

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولأدأ للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة .
المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حامية
تعقد الالوية او سحر بيان يحل الجيوش . لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلك الامهات
كثيراً من امثال الكميت وحسان او مونتسكيو وشيلار .

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع
غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهم بها المتهوسون للعلم . فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا
شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره بنحو سد افواههم
بمقاي من فتات مائدة الاستبداد .

ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق
الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم
المبتقة الشمس المحرقة الرؤوس .

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العوام كلها بل من التي توسع العقول
وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون ، وكيف الطلب وكيف
النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع
والعلماء منهبون محذرون ، والمستبد اعمال وصالح لا يفسدها عليه الا العلماء .

المستبد كما يرغب العلم لنتائجه يبعثه لذاته ، لان للعالم سلطاناً اقوى من كل سلطان ،
فلا بد للمستبد من ان يحتقر نفسه كلها وقمت عينه على من هو ارقى منه علماً . ولذلك
لا يحب المستبد ان يرى وجهه عالم ذكي ، فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار
المتصاغر المتساق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : فاز المتسلقون ، بل هذه
طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبني ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا
يرجى خير ولا شر .

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً : يسعى العلماء
في نشر العلم ويحتد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم
العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى

علموا قالوا ومتى قالوا فعلموا .

العوام هم قوت المستبد وقوته ، بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . بأسرهم فيتهاللون لشوكتهم ، ويعصب اموالهم فيحصدونه على ابقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفقته ، ويفري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، واذا اسرف باموالهم يقولون عنه انه كريم ، واذا قتل ولم يثمل بعتبرونه رحيماً ، ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وان نقم عليه منهم بعض الالباء قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذنبون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشئ . عن الجهل ، فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، اي : انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام واب حليم يتلذذ بالتعجب .

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخا . وغنا . حياة عز وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس المخطوط بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد لانه كان على الدوام محاطاً بالاعداء . ملحوظاً بالبعضاء . غير امين على حياته طرفة عين .

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من خوفهم بأسه ، لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشئ . عن جهل ، وخوفه من انتقام يحق وخوفهم عن توهم التخاذل ، وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيات من النسات وعلى وطن يألفون غيره في ايام .

وكما زاد المستبد ظمأً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته . وحتى من هواجسه وخيالاته . وكثيراً ما تحتم حياة المستبدن الضعيفي القلوب منهم بالجنون .

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدن كثيرين وتيسر مثلاً يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التعذر والتعطف . واذا اراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصالح الدين يوازن مرتبتي امنهما في قومهما .

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدئي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأيت بعض الامم الغابرة ان اضر شي . على الانسان هو الجهل واضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلًا مخصصًا للخوف يعبد اتقاء لشره .

قل احد المحررين السياسيين : اني ارى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه ، فالملك الجبار هو المعبود واعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون القرابين . ويقول اهل النظر في احوال البشر : ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شتآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريف . يقولون انه كذلك يستدل على عراقية الامة في الاستبداد او الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلاً ام فقيرة في هذا الباب كالعربية .

واخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالكة الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين يبنون في مضائق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكولون بهم ، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره . وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقبلوا في البلاد وماتوا غرباً .

قال المدققون : ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة . وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمتها والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هي لذاتها .

اما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافندتهم هوا . ترتجف من صولة العلم وكأن اجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة « لا اله الا الله » ، ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام ؟ بني الاسلام بل وكافة الاديان على : لا اله الا الله ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه اي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع . فيكون معنى لا اله الا الله : لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله . فهل والحالة هذه يناسب المستبد ان

يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه ؟ كلا ثم كلا .
حتى ان هذا العلم لا يناسب صفار المستبددين كخدمة الاديان الاقوياء او الانبياء
والآباء الجهلاء والازواج الحقاء ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور
التوحيد في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ، ولكن قتل الانسان ما اكفره
بنعم مولاه وما اظلمه لنفسه وجنسه !

الاستبداد والافساد : تفصل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انشاء
الشجر . فالاقوام كالأجام ان تركت مهجلة تراحت اشجارها وسقم اكثرها وتقلب قويا
على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة . وان صادفت بستانياً يهجم بقاؤها
وزهرها فدبرها حسباً تطلبه طباعها ، قويت واينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة
العادلة . واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب افسدها وخربها وهذا مثل
الحكومة المستبدة . ومتى كان البستاني او الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار
وليس له فيها فخر ولا بلحمه منها عار انما هم الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع
الاصول فهناك الطامة وهناك البوار . فبنا على هذا المثال يكون مقام الاستبداد
بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد .

لا تكون الاخلاق اخلاقاً ما لم تكن مطردة على قانون وهذا ما يسمى عند
الناس بالناموس . ومن اين لاسير الاستبداد ان يكون صاحب ناموس وهو كالحیوان
المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالریش يهب حيث تهب الريح لا نظام ولا
ارادة . وما هي الارادة ؟ هي ام ناموس الاخلاق . هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها :
لو جازت عبادة غير الله لاختار العقل . عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفصل
الحیوان عن النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة . فاسير الاستبداد الفاقد الارادة
هو مساوب حق الحيوانية فضلاً عن الانسانية لانه يعمل بامر غيره لا بارادته . ولهذا
قال النعمان : لا نية للرقيق في كثير من احواله انما هو تابع لنية مولاه .

اسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً ويمسي
فقيراً فيبيت جباناً خسيفاً ، وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها

بلا وجهة . فالاسير لا يبعي على الاسير فيزجر او لا يزجر ويبغى عليه فينصر او لا ينصر . ويجوع يوماً فيضوى . ويخصب يوماً فيتخم . يريد اشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداءً ، فكيف لا يفسد ؟

اقل ما يؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم على الفقة الرياء والنفاق ولبس السيئات ، ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان اكثر اعمالهم تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداً خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبى ذكر الفاجر بها فيه .

اقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الفيرة وقليل ما هم ، وقليل ما يفعلون وقليل ما يفيد نهيهم لانه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من انفسهم شيئاً ، وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على احد . اما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقاً ولا اقول غالباً من المتسلقين المرائين . وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصيح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت . اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بامان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والاقوياء سواء . ويفوق سهام قوارصه على ذوي الشوكه والزعماء ويجوز في مواضع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصيح الذي يغدي ويجدي .

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور ، اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات . مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة القوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقيد سلسلة من حديد يخنفون بها عدوتهم الطبيعية اي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضار كاتب ولا شهيد .

وهذه الامم الموقفة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبقاً تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وفي كماله هذه الآية وهي : « واولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل ماض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها ، المعقودة طبعا عند المستبد واعوانه . - (نقل عن كتاب « طبائع الاستبداد ») .

شَبَلِي الشَّمِيل

١٨٥٣ - ١٩١٧

دفاع عن حرية العلم : ان الآلات التي يخترعها الانسان (ومنها القلم) ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائه الطبيعية ، فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها ، فكما انه لا يشترط على الانسان لاستعمال رجله خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر ، او يديه خوفاً من ان يجني بهما ، لا يجوز ان يشترط عليه كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنائات الاعضاء الطبيعية ، وهو القانون العام ، يجب ان يتكفل بمعاقبة جنائات الاعضاء الاضافية ايضاً .

المنفل لسيادة الامم : ومن يوم خطت اوربا خطاها في سبيل العلم الحقيقي ، واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول ، صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء . (ارتقاء نواميس الاجتماع) . ولا يزيد بهذا القول انها (اي اوربا) على وشك بلوغ النضج القصوى فيه ، وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية . ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة ، وسيكون شأنها شأن المنارة التي يستضيء العميران بها في العالم اجمع ، لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة . واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم

سيادة حقيقية وسقوط سيادة الملوك .

نظام الحكم وعامله الاساسي في رقي الامم وانحطاطها : ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد . فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك . وان تعدات الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلهما الا صورة لا معنى . فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم ، فأما حكوماتهم من الامة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجبر اليه الاستبداد وقوت فيه كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخدت من قوى العقل باطفائها نور العلم .

الحكومة والامة : الحكومات مظهر من مظاهر الامة ، وهي تختلف باختلاف الامم . فكلما ارتقت امة في العادة ارتقت حكومتها كذلك ، وهو معنى قوله « وكما تكونون يولى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لا تلام الحكومة اذا داست باخسها رقاب الرعية ، وهل تداس رقاب تأبى ان تداس ؟ وان من ينتظر الاصلاح عفواً من اية حكومة كانت يجهل ولا شك تاريخ نشوء الامم والعمران . وما ان التاريخ اماننا يعلمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يذعن للاصلاح اذا لم تقم العقبات في سبيله . وهل بلغت امم اوروبا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها ؟ لا لعمرى . انما بلغت ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور المقوسة ، والمشي على الاقدام ، لا الزحف على الركب ، وربط حكوماتها كما تربط القرنا . واتلاها كما تتل السائمة وجرها وراها قوة واقتداراً . والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر اسباب القوة فيها عفاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبق لها الا آثاراً ، او لم يبق لها اثرأ وتركها خيراً مسطوراً . - (سنة ١٨٩٨) .

أديب إسحاق

١٨٨٥ - ١٨٥٦

أديب اسحق بربط الانتفاضات الشرفية بثورة فرنسا :

أرى خلل الرمد وميض نار
ويوشك ان يكون لها ضرام
بل هي شعلة اصلاح كانت في كمن الدهر في عالم الضياء والنور ، فساقتها يد
الحكمة بمعدات الحركة الى عالم الظهور ، وسرت في اوربا من جانب الغرب الاقصى ،
وكننت في ما وراء المانش اياماً واعواماً متنقلة من صورة الى صورة ومن كيفية الى
كيفية ، حتى اعدت لها طريق العوز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء وانبعثت منها جرائيم
الضياء ، فغيرت هيئة الارض وحالة الناس ، وظهرت ذلك الجانب من الارجاس : تلك
ثورة الفرنسيين ! برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها
ودفعت سطوة التقليد فضمضتها ورفعت عن العيون نقابها وعن النفوس حجابها فأنت
من جانبها الحرية وخلعت جلايب الرق والعبودية واجتمعت على ولائها وتأملت تحت
لوائها لتدفع عنها من رام اطفاء نورها وافساد امورها فتصدى لها اعوان الرق
وانصار العبودية ، وما آلوا في قتالها جهداً فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ،
والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ورسخت في عالم الوجود قدمها وكثر الملا
من حولها ، وادهشت الدنيا بشدة حولها . ثم مرت عليها الشهور والاحوال وتقلبت
الامور والاحوال ورأى العدو منها غفلة فدهم ، واغتتم من الزمان فرصة فهجم ، وغلب
امره وتأيد واستقام ملكه وتوطد الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ما جر اليه
واليها البلا . الاليم ^(١) ، فتسنى لها ان تدفع عنها شره ورب شر يحيي . بالخير العظيم ،
ثم عادت الى سابق عزمها والعود احمد فانفتحت في بلادها ، نعني فرنسا ، كنوز الثروة
وتوفرت اسباب القوة والسطوة وصفت موارد السعادة والهناء ، وانتفتت اسباب
المتاب والشقاء ، وهي الآن على ما نرى من العز والمناعة والتقدم في الزراعة والتجارة

(١) يشير الى نابليون الثالث وحرب السبعين مع الالمان .

والصناعة .

ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحنت اليه ، ولا غرو ان يحن الغريب الى وطنه ، نعني الشرق ، مقر جراثيم الحركات الدينية والسياسية التي غيرت هيئته الارض ، واحوال الانسان ، فسرت اليه تنبه غافله ، وتفقّه جاهله ، وظهّرت في بلاد « اخورا ما زدا » بين ابنا « زرادشت » تحت سماء التقاليد ، زيد بسلاد الفرس . فان مذهب البابين نسبة الى السيد علي محمد الملقب « باب المهدي » قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو من ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس فتمذهب به جمع كثير منهم واتاروا الفتنة على الحكومة وبرزوا من الجسارة والاقدام ما لم يسمع بمثله . وبعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص ، ولم يصب . وقد كان من اعمالهم الاخيرة ان جماعة منهم تشبهوا بالجند وقصدوا الشاه وهو سائر الى مدفن شاه زاده عبد العظيم للزيارة ، ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ ، وقالوا له اذا من جندك وقد طال علينا زمن الخدمة ونزوم الانصراف الى منازلنا ، فوعدهم ان ينظر في امرهم بعد الرجوع الى القصر . ثم انهم هجموا على عربته ورموه بالحجارة الكبيرة وجرحوا جماعة من رجال حرسه . وكان على مقربة من مكان الحادثة طائفة من الجند ، فطير الشاه اليهم الخبر ، فجاؤوا مسرعين وقبضوا على جماعة من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من البابين . وما افضنا في الكلام على آثار تلك الحركات الفكرية التي سرت في اوربا من جانب غربها الاقصى ، الا لاننا نحسب الحركة التي ظهرت اخيراً في الاستانة ، حلقة من سلسلتها وهي الحركة التي ظهر اثرها الاول في عزل محمود نديم باشا اثر فتنة البلغار ، وخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد ^(٢) ، وقد كثر عدد الداعين اليها في الاستانة واجتهدت الدولة في خفض منارها واهماد نارها بابعاد زعمائها ، ونفي رؤسائها مع كثرة الشواغل وتواتر النوازل . وقد جاءنا بالتلغراف وارداً من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ، ان جماعة من العامة قد هجموا على سراي جراغان ^(٣) مقر حضرة السلطان السابق ، فحاول رجال الحرس صدهم وابعاهم ذلك

(٢) تعرف هذه الحركة في التاريخ العثماني بحركة الدستور الاول ، ابرز اعلامها مدحت باشا .

(٣) تعرف هذه بحركة السماوي ، وهو تركي هاجر امدا الى اوربا فرارا من الظلم ،

فاطلقوا عليهم الرصاص ، وقتلوا منهم نفراً ، وجرحوا طائفة فاجسنا من ذلك اخبر شراً
ونحن ان يكون نتيجة ما سبق من المقدمات في عهد ساكن اللجنة عبد العزيز . ثم
جاءنا في غد ذلك اليوم بيان ازال ذلك الخوف وابعد اليجاس . وهو ان الذين
هجموا على السراي كانوا من المهاجرين . فترددنا بين تصديق الاول والثاني ، ورجعنا
جانب الثاني بدليل ما جاء بعده من ان جماعة من اولئك المهاجرين قد ساروا الى
الباب العالي يطلبون الاعانة وحملنا فتنتهم على الحاجة والفاقة . ثم ما لبثنا ان جاءنا
بالتلغراف ما افسد الظن واعاد اليجاس من ان علي سعاوي افندي احد زعماء تركيا
الجديدة كان في مقدمة المهاجرين على السراي ، وان رجال الحرس قد قتلوه فايقنا ان
هذه الفتنة هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغير لا
محال عاجلا او آجلا هيئة الكرة الارضية ، ونظام الجمعية الانسانية .

الامم : الامة والجيل من كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة
الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد . وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق
بين الانساب لتعذر ذلك فيها ، ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضر من المفاصد
الكثيرة ناشئة عن تحالط اقوام مختلفة انسابهم ، وتوالي الحروب والغارات ، وتوطن
بعض الفاتحين فتوحهم ، وتزوجهم في اهلها ، الى غير ذلك مما جهلت به الانساب
وخفيت به الاحساب الا ما حفظ ببناءة اهلهم عن ان يدانيهم فاتح غريب وهو قليل
لا يقاس عليه . وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتراف الى جنس واحد
بتوالدون فيه ، ويتسمون به ، كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية
سواء كانوا انكليزاً او فرنسيين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً ، والعثماني لسكان
البلاد العثمانية في اوربا وآسيا سواء كانوا تركاً او عرباً او تترأ اصلاً ، والاورستري
لسكان سلطنة اورستريا سواء كانوا الماناً او صقالبة او ايطاليين اصلاً ، وهلم جرا .
وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما

ثم عاد الى وطنه وسلكت ثورته مسلكتاً مشافهاً ، ولكنه كان من المهديين لانقلاب سنة

ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولا ، فان كان الاول فهو فاسد ، لانه قد يولد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم ، وهو بعيد عنهم نسباً . ولان ما ذكرنا من تحالط الاقوام ، واغتراب الفاتحين ، قد احدث في لغات كثير من جماعات الناس فساداً ، بحيث صارت مزيجاً يعجز ابرع الكيماويين عن تحليله ، كما في لغة اهل العلة مثلاً . فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس . وان كان الثاني فهو من قبيل الحجاب ما ليس بواجب ، ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لأحسنوا (١) .

فقد ثبت : ان الاممة هي الجماعة من الناس تتجنس جنساً واحداً ، اي تنسب بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها ، وتتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه .

حد الوطن : اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان ، وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها ، ولا يشترط فيه مساحة بدرجات معينة ، واقليم واحد بتخوم معروفة ، وانما تعريفه ما ذكر من توطد معظم الامة به . وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه ، وهي اما ان تكون فتوحاً ضمت اليه عنوة ، واما ان تنضم اليه برضى اهلها . فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلها فتثبت الملكية ، واما ان لا تكون هذا ولا ذاك ، فلا تثبت ، وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام .

... لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ، ويحتمون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وان الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والتزعاج فيه .

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى ان تقول : استوطن القوم

(٢) سبق لنا ان ذكرنا ان اديب اسحق كان يكتب ابام الامبراطورية العثمانية ، ولذلك وقف هذا الموقف من وحدة اللغة في الامة ، والصحيح ان لامة بلا لغة واحدة .

هذه الارض وتوطنوها اي : اتخذوها سكناً . وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك . وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن اقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية . وقال لابرويير الحكيم الفرنسي : لا وطن في حالة الاستبداد . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية .

وهذا الحد الروماني الاخير لا يتقضى قولهم : لا وطن الا مع الحرية ، بل هما شيان . فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق ، وهما شعار الاوطان التي تفتدى بالاموال والابدان ، وتقدم على الاهل والخلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيان .

اما السكن الذي لا حق فيه للسكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا .

الوطني : وقد اختلف في سبب حب الوطن ، ف قيل ان السبب فيه اللفة ، فان الانسان اذا الف شيئاً احبه . واجيب بانه يخرج الانسان من وطنه صغيراً فينبت في آخر ، ولا ينسى مع ذلك حب وطنه . وقيل ان حب السكان يورث حب المكان ، كما قيل :

وما حب الديار يهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه ، بمعظم اهله واصدقائه ، ولا ينفك مؤثراً وطنه بالحب . وعندنا ان يا . الاضافة في قولي وطني هي السبب في حيي لوطني ، كما ان يا . النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسي لأمته فتأمله . فله من يامين يا . نسبة ويا . اضافة تدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن .

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة ، الاتانية (حب الذات) وهي نقیصة ، فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها ؟ وجوابه ان الفضيلة هي الدرجة الرفیعة في الفضل ، والفضل ضد النقص . اما الاتانية فهي نسبة لضمير المتكلم

على غير قياس ، وهي في عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره خيراً أم شراً ، وليس في حب الوطن او الامة شي . من ذلك كما ترى .

اما وجه كونها فضيلة ، اي : درجة رفيعة في الفضل ، فهو لانها يقضيان على صاحبها بخدمة الارض التي يقتنذي بخيراتها ، والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه يعينونه على استحصال حاجاته ، ويدفعون عنه اذى سائر الانواع . ولعلك لا ترضى بهذا تعليلاً فتقول : ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان ، او في جهة من الارض ، وانما يجب ان تكون عامة فيهما . والجواب انه لما رأى الانسان من نفسه عجزاً عن القيسام بجميع حاجاته الطبيعية ، ودفع اذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعاً ، وهذا حاصداً ، وذلك طاحناً ، وذلك عاجناً ، والآخر خائزاً ، وكل منهم في شأنه ساع . فلما كبرت هذه الجماعة عن ان يسما قسم واحد من الارض تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حساباً ، مع تواصلها بالنوعية . واقبات كل جماعة منها على العمل في الارض التي اختارتها مقاماً استحصالاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها يعمل في ما ارتضاه لنفسه من الصناعات ، ليعين بمصنوعه رفيقه مستعيناً بما يصنعه ذلك الرفيق ، ولو حاول الانسان الاهتمام في جميع الارضين بجميع المهن والمشاغل لفتني عمره ولم يأت بفائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على العمل بتهنته ، في جماعته ، اذ تيسر له اسباب الاعانة والاستعانة ، فتحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية . وهذا وجه الفضيلة في حب الامة ، وحب الوطن ، فليحسن اسمها على صفحات كل قاص وليلهجن بذكرهما لسان كل انسان ، فلما المرء باصفريه القلب واللسان .

... ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة باهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وان كان سي . الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنسوي على فرنسا

والانكليزي على انكسرتا ، فانكر ذلك بعض الناس وكان الامر لا شك سوء فهم او سوء افهام .

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً : الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقا والاهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويمر او يسفل ويسفل ، وهو معنوي محضاً . - (عن كتاب « الدرر ») .

الثورة : قد رأيتهم شهداء طاعة عمياء ينجرهم خبثا النفوس على مذابح الجور ، ترلفاً لطواغيت الفجور . فوقفت بربع العدل منادياً باهل الانسانية : يا لثارات الضعفاء ! فاجابني هاتف العصور ، من اغوار القبور : لقد انتجعت بوراً واتبع غروراً ، فاذنا ملائنا من قبلك الارض نداء وزفيراً ، فلم نجد من الناس نصيراً فعلمنا انهم لا يسخون بالنجدة لمن ضن بنفسه وتوكل على بني جنسه فاقنصمنا الاوجال في طلب الآمال ، فلم تكن الا جولة ولت الحرب اولادها ، وصولة سلبت السيوف اغمارها ، حتى سقيننا غروس الاماني بالدم المهرق ، فتمت باسقة الفروع مخضرة العود يانعة الثمار ، فقلنا في ظلالها آمنين تحسبنا امواتاً وتخالنا رفاتاً ، ونحن في نعيم جنتها خالدون ، فاقنصموا بنا ان رمم النجاح ، وانشطوا للسعي بالغدو والرواح .

فلما رجل الدنيا وواحدنا من لا يعول في الدنيا على رجل فعدت الى بقايا الضحايا احرك في عروقهم دم الغيرة ، وابث في صدورهم روح العزم ، وانشروا من همهم ما طوت الايام في قبور الاوهام ، بما اذكروا من اخبار الامم وما اظهروا من آثار ذوي الهمم لعلهم يستنجزون موعود الحق ببراغمة اعدائه الذين تمردوا وسعوا في الارض مفسدين ، ولعلهم يفلحون .

ولقد جعلت خبر الثورة ثورة الفرنسيين تمهيداً للخطاب وتعييناً للقذوة فظهرت كيف تسنى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضائق الظلم ، وما آرق العبودية ، اذ انفصل نوابهم عن المعتسفين من النبلاء واهل الكهنوت وجهروا بما كان يخفيه السكوت ،

حتى انتقطع الجور بحبله المبتوت ، وكيف توافقوا على الاتحاد في خدمة الحق ليفوزوا فيشكروا او يبيدوا فيذكروا واقسموا : اذا لا نفترق وفيينا رمق حتى نؤيد في بلادنا امر الحرية . فاغلق الملك باب مجلسهم فاجتمعوا في ملعب القرية متوازين متألفة قلوبهم يرومون القسم بالسوية والعدل في الرعية ويدعون الى الحق والى طريق مستقيم ^(٥) .

فكبر ذلك على عبيد الطمع وحلفاء الجزع ^(٦) فاغروا الامير بفض مجلس النواب فاصدر الامر بذلك في الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة تسع وثمانين ، فتلقاه النبلاء ورؤساء الكهنوت بالطاعة والقبول . اما وكلاء الامة فقالوا : لا نطيع الامراء بما نعصي به الحق والعدل وانما

نطيعهم ما اصبح العدل فيهم ولا طاعة للمرء والمرء ظلم

فاتاهم وزير الملك يذكرهم امره ويدعوهم لطاعته ويحذرهم عاقبة الفتنة ، فاجابه خطيبهم ميرابو : عد الى هؤلاء وقل اذا مجتمعون في هذا المقام بامر الامة ، فلا نفرق الا بقوة النصال !

فعاد الوزير باخيبة والفشل يغالب عامل الفيض ، ويقاوم فاعل الوجل . فعظم هذا الامر على رجال القصر وصنائع النبلاء ، وانصار الامتياز ، فحملوا الامير على مقاومة النواب ، واخذهم بالعنف ، فعزل من كان مستورا من وسط الناس أي من غير الشرفاء ، وبث الجند في ارجاء العاصمة فاهتر لذلك اهلهما اضطرابا ، وخرجوا على الدولة ثائرين يرومون وقاية النواب ، ويلتمسون الحرية والمساواة ، واندفعوا كالسيل على قلعة المدينة فاقتلعوها من ايدي الجند منشدين :

الا هيا بني الاوطان هيا فوقت فخاركم لكم تها

اقيموا الراية العليا سوريا وشنوا غارة الهيجا مليا

(٥ ، ٦) في هذين السطرين كلمات من خطبة لابي حمزة الخارجي القاها في المدينة . نقل ادب اسحق هذه الكلمات ولم ينه اليها .

عليكم بالصوارم يا اهالي ونظم صفوفكم مثل اللاكي
فاما مات كهل في التال فان الارض تنبت به صيبا
منيتهم بالمقيم من العنا فكان وجودكم عين الفناء
فموتوا ان طمعتم في البقا فمن اودى شهيد اعاد حيا^(٧)

فانخلع بذلك قلب الامير جزءاً ، ورام الفرار التأس النجاة فقبض عليه في
فارين واعيد الى العاصمة اسيراً . ثم كان من امر محاكمته واهدار دمه ما يخرج بيانته
عن حد مطلبنا ، فاذاً لم نجعله تاريخاً لثورة الفرنسيين وانما اتينا بذكرها مثلاً وعبرة
لقوم يذكرون . وليعلم الصابرون على العنف ، الطامعون في النجاة من الخسف ،
كيف ادرك الناس من قبلهم هذه الغاية ، فانتقلوا من الضعف الى القوة ، ومن الذل
الى العز ، ومن الرق الى الحرية ، فارتفعت رؤوسهم وانبسطت نفوسهم وصارت
اوطانهم بغية المرجحي وعقوة الملتحي لا يخاف تريلها ضيماً ، ولا يخشى دركا اذ الشرقيون
عموماً ، والمصريون خصوصاً بين انياب الطامعين ومخالب الظالمين .
واني لا اطمع الآن للمصريين في مثل هذه الحال وان خاضوا لها غمار الاخطار
واقتمعوا اليها الاهوال فان الطفرة محال . ولا احثهم على الفتنة وان كانوا كما تصور
المتنبى حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً وحسب المنيا ان يكن امانيا
وانما ابين لهم ان النعمة لا تملك من غير تعب ، وان الغاية لا تدرك من غير
طلب ، وان النجاة وقف على سبيل الهمة ، وان النجاح بارادة الامة لتظهر عليهم
علام القصد فتكون طليعة لجيوش العزم ، فيعلم المستخفون بهم انهم لا يزالون احياء ،

(٧) ظاهر ان هذه الايات تعرب لبعض مقاطع من المارسيلاز ، النشيد الوطني الفرنسي . وواضح
من سياق الكلام ان اديب اسحق يضع هذا النشيد في افواه الهاجمين على الباسيل ، وهو
غير صحيح . فللمارسيلاز انشدها اول مرة في باريس ، المارسيليون القادمون لثجدة محاصري
قصر التويلري ، وذلك بعد هرب الملك والقبض عليه في فارين .

وان كانوا من ظلمهم في ظلمات القبور ، فيقبضون عنهم ايدي الظلم ، ولا يطعمون
في بيع اولادهم من الاجني عبيداً يحفرون المعدن ويفلحون الارض ويطرون الشرع ،
ولا يطعمون كراعاً ولا يطعمون في باع .
اقول قولي هذا واسأل الله ان يرفع من شأن اوطاننا ما وضع السفهاء ، وان
يحفظ من حقوق اهلها ما ضيع الخائنون . - (عن كتاب « الدرر » وهي خاتمة رسالته
الاربع التي وجهها من باريس الى الشرق بعنوان « نفثة مصدور ») .

حُسَيْنُ بَاشَا

سأله الرقيق والفقراء : الى مسيو اموس بيرى قنصل جنرال العصبة الاميريكانية
باجاضرة تونس .

اما بعد فانه شرفني مكتوبكم الذي مضمونه انكم حيث كنتم بارض كانت
الحرية والعبودية بها متجاورتين وناميتين منذ مدة مديدة وصارتا الآن مشبكتين في
حرب شديدة لغاية قهر احدهما الاخرى ووجدتم في تاريخ تونس حوادث مهمة متعلقة
بهذين المبدأين المتضادين ، اردتم ان تعرفوا تأثير العبودية في بلادنا وهل اعقت تأسفاً من
الاهلين على فقدها او اثسراحاً بذلك فطلبتم منا شرح ذلك وبيان ما اثبتت التجربة
اصلحيته هل هو الخدمة الجبرية ، اي خدمة العبيد بدون اجر ، ام الخدمة الاختيارية
باجر معلوم وايها اوفق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية ؟ اما الجواب عما وجدتم في
تاريخ بلادنا من تحرير العبيد ومنعنا لملك الآدمي في المستقبل بعد ان كان مباحاً فاسب

(كتب المستر اموس بيرى قنصل الولايات المتحدة الى حسين باشا ناظر المعارف
التونسية يسأله عن اثر إلغاء الرقيق في تونس ، وذلك ابان الحرب الاهلية الاميريكانية بين
ولايات الشمال والجنوب لاعتاق العبيد ، فاجابه ، في جمادى الاولى سنة ١٢٨١هـ ، بالرسالة المنشورة اعلاه .

ذلك هو : ان دولتنا كسائر الدول الاسلامية كما تسونها دولة تيوكراتيك في المعنى ، اي : احكامها جامعة بين الديانة والسياسة . والشريعة الاسلامية وان اقرت الملكية (وقلنا اقرت لان ملك الآدمي متقدم على الشرائع الثلاث فقد كان حكم السارق في شرع يعقوب اسرائيل الله ان يسترق سنة بدل القطع في الشريعة المحمدية) انما اباحتها بعد حصول سبب الملك بشروط وواجبات يعمر القيام بها ، فان منها عدم الاضرار بالمملوك حتى جعل الشارع الاضرار موجبا للعقوبة كما قال : اي مملوك مثل به فهو حر . ومع ذلك فلم تل الشريعة تؤكد الوصاية بالعبيد حتى كان آخر كلام نبينا صلى الله عليه وسلم : الصلاة وما ملكت ايمانكم . وكان يقول : اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه فوق طاقته . وكان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني يذهب كل يوم الى الموالي فكل عبد وجده في عمل لا يطيقه وضع عنه منه ، وكذلك كان يخرج كل يوم سبت يتفقد الدواب فاذا وجد دابة في عمل شاق خفف عنها . ثم ان من القواعد الشرعية تشوف الشارع الى الحرية حتى ان من اعتق جزء عبد لزمه عتق باقيه . وكان من مصارف الزكاة المحصورة في الاصناف الثمانية بنص القرآن فك الرقاب قالوا بان يشتري من مال الزكاة عبيد فيعتقون كما ان من لزمته كفارة يمين او قتل او فطار او اظهار فله التكفير بعتق رقبة . فلولا ان تحرير العبيد من المصالح المهمة لما ضيقت الشريعة به على الفقراء والمساكين . ومن آثار التشوف المذكورة كثرة ترغيب الشارع في العتق كقوله : ايما امرئ مسلم اعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار . وتلك الشروط والواجبات حيث كان القيام بها عسيراً في زمن عنفوان شباب الدين فما ظنك به في زمن هرمه لاسيما مع صنف السودان المباينين للبيض في الطبيعة الفريزية ، فكثيراً ما يقع بين العبيد ومواليهم المشاجرة التي لا منشأ لها الا التنافر الطبيعي وذلك مما يفضي الى مزيد الاضرار بالعبيد وتجاوز الحدود الشرعية في حقهم . ولم يزل ذلك الامر يتزايد حتى اقتضى نظر الدولة تحجير الاسترقاق من اصله لانه لما تعذر الرفق بهم والاحسان اليهم على الوجه المطلوب شرعاً لم يبق الا الامر ببيعها او بعتقها ، والاول لا يحصل به الغرض المقصود لما فيه من التماسل وعود الضرر مع المشتري فتعين الوجه

الثاني ومن ذلك الوقت بطلت ملكية العبيد عندنا دفعة وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٦٢ في مدة المرحوم المشير احمد باشا باي . واول ما خاطب به المجلس الشرعي في هذا الشأن قوله : اما بعد فقد ثبت عندنا ثبوتاً لا ريب فيه ان غالب اهل اياتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء المالك السودان ، ولذلك اقتضى نظراً والحالة هذه رفقاء بولئك المساكين ان نمنع الناس من هذا المباح وعندنا في ذلك مصالح سياسية الخ . والمصالح المشار لها هنا يمكن شرحها بامور كثيرة منها ما يقوله اهل الاقتصاد السياسي في ايماننا ان البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية اعمر من غيرها بالاستقرار . وقد رأيت خطبة لبعض الافاضل من اهل القلم بملكنا كتبها في ذلك الوقت بحث بها اهل المملكة على اجابة رئيس الدولة بالقلب والقلب يقول فيها : « فيا للنفوس الزكية والقلوب التي بالشفقة حرية شرعكم متشوف للحرية ورق الآدمي بلية والرب يقدر على عكس القضية . »

واما الجواب عن تأثير العبودية وما اعقب فقدها في الاهلين فهو ان ملك الآدمي لما لم يكن من الامور الضرورية ولا الحاجية في المعيشة لم يصعب العدول عنه ولم تجزع لفقده نفوس اهل مملكتنا . وكيف يتأسف المعني بشؤون الترف والكمال في الاحوال والعوائد على تحرير عبده وهو قادر على استرقاق الاحرار بالدرهم والدينار مع اعتقادهم الديني انهم ينالون بعقبي عبيدهم ثواباً من الله في الدار الآخرة ؟ على ان ذلك وان صعب في اول الامر على بعض من الناس لرؤيتهم استخدام العبيد بدون اجر ايسر لهم واربح من استخدام غيرهم باجر او لشح نفوسهم بالعتق ايثاراً للعاجل على الآجل . الا ان هؤلاء تسالوا من قريب لما اثبتت لهم التجربة اصلحية الخدمة الاختيارية دون الجبرية كما اثبتها العقل ايضاً ، ورأى من عجز عن استخدام الحر بالاجر ممن كانوا يستخدمون العبيد رجوعه الى الامر الطبيعي والسيرة المستحسنة وهو ان يباشر الانسان قضاء اوطاره اللازمة بنفسه ويقلل احتياجه الى ابنا جنسه ، فان النفس اذا تعودت باستخدام الغير قد يفضي بها ذلك الى العجز عن ادنى الضروريات . والانسان ابن عوائده ومألفاته لا ابن طبيعته ومزاجه وبذلك التعود تكثر شروط الفكر العربي الحديث

استمرار حياته وما كثرت شروطه عز وجوده . وبالجمله فالناس في باب الخدمة على اربعة اصناف : انسان يخدم نفسه بنفسه ولا شك ان هذا يعمل ما يستطيعه في يومه ويجهد نفسه ، والثاني يؤجر نفسه لغيره طوعاً وهذا دون الاول في نتيجة العمل حيث لا يجهد نفسه ، والثالث يعمل لغيره بلا اجر وهو مجبور فذاك هو العبد المملوك ولا غرو ان تكون نتيجة عمله دون الثاني بمراحل ، والرابع الذي لا يعمل لنفسه ولا لغيره وهو العبد البطل الذي يبنضه الله تعالى ، ومن هذا الصنف الاخير الناس الذين يترفعون عن خدمة انفسهم وقضاء اوطارهم استنكافاً عن مزاحمة العبيد في اشغالهم ، وقد ينفع في هذا القسم العلاج اذا رأوا من كان ارفع منهم يتعاطى تلك الاشغال التي انكروا . باشرتها ، وايضاً ربما نفع هذا التعاضد الكسالى اذا رأوا مع ذلك التفاتاً وترغيباً وترهيباً من رعاتهم اذ لا يجدون محيصاً عن المسير اقتداءً بمن سار . والانسان اقرب الى الخير منه الى الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر اذا جاءه من قبل القوة الحيوانية المركبة فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب ، فاذا وجد طبيياً ماهراً وداوى ما طرأ عليه من المرض فانه يرجعه الى احسن تقويم وتجتمع الايدي ويكثر التعاون وتتوفر بذلك اسباب العمران . ومن هذا يتبين لكم السر في كون البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية اعمر من غيرها كما أشرنا الى ذلك آنفاً ، ولا سبب لذلك الا كون نتيجة فعل الانسان المختار اربح وابرک من نتيجة فعل العبد المجبور . وعندى ان عموم الحرية وانتفاء الملكية كما يؤثر في غو العمران يؤثر ايضاً في تهذيب خلق الانسان . اما تأثيره في غو العمران فظاهر اذ لا عمران الا بعدل والحرية نتيجة العدل فاذا انعدمت جاء الظلم المؤذن بخراب العمران ونقصه بنقصها . واما تأثيره في تهذيب الانسان فان تعميم الحرية يبعده عن الاخلاق الرديئة من الشراسة والتكبر والتجبر ونحوها التي لا تنفك في الغالب عن تلك العبيد لما تعودوا به من الامرة والترفع وربما رأيتهم ينظرون الناس بالعين التي ينظرون بها عبيدهم لاسيما اذا رأوا انساناً اسود فلا يرونه الا كسائر الحيوانات العجم . وكنت حضرت مرة في ايام الكرنفال سنة ١٨٥٦ بالابور الكبيره بباريس ومعي غلام اسود فمارعني الا ان رأيت رجلاً اميريكانياً

وثب عليه وثوب القطة على الفأرة واراد ان يأخذ بثيابه قائلاً لسانه يتلجلج . من سطوة النشوتين : ما يفعل هذا العبد السوداني بصالون ؟ اي بيت نحن فيه ومتى ممكن العبيد من مجالسة السادات ؟ فاخذت الفتى السوداني البهتة اذ لم يكن يدري ما يقول ولا علم لماذا يجول ذلك الرجل ويصول ، فدنوت منهما وقلت للرجل : يا حبيبي هون على نفسك فلما نحن بباريس ولسنا بريشموند . وبيننا هما كذلك اذ وافاها احد حفظة المحل وعرفه بان لا فرق في حكمهم بين الجلود الا بالجوذة واتقان الدبغ . فالحاصل ان ذلك الاسود المسكين لم تخلصه من اظفار ذلك الرجل محرمته البيضاء . ولا فوائتواته الصفراء (اشار بالمحرمة والفوائتوات الى ما اعتادته الافرنج من التزين بذلك عند الذهاب الى المحافل) وانما خلاصه بياض الحق وعدل الحرية . وبالجملة فالالوفيق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية هو عدم الملكية ، ولا التقات لما عسى ان يستند اليه الخفاف من ان بعض العبيد ندموا على خروجهم من بيوت سادتهم وطلبوا الرجوع اليها على شروط العبودية اذ

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم على ان ذلك انما كان في اول الامر حين خرجوا جافلين كما تخرج الدواب اذا انفطت من مرابطها قبل الاستعداد الى لوازم المعيشة والحرية . اما الآن بعد الاستعداد فهل ترى لهم ادنى ميل الى العبودية ؟ ندع هذا الاعتراض الساقط وزجع الى ما هو اهم منه فنقول : انتم ايها الامة الامريكانية اخوان الامة التي قال فيها عمرو بن العاص صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم انهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مضيئة واوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويقيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وامنعهم من ظلم الملوك . ولعمري لأنتم كما قال امينع الناس من ظلم الملوك حيث انعم الله عليكم بتأم الحرية في انفسكم وجعل سائر امورك السياسية والمدنية بايديكم والبعض من غيركم يقنع بالحقوق المدنية لحماية النفس والعرض والمال فلا يجدها فما ضرركم لو تفضلتم على عبيدكم بما لا يؤثر وهنا في شوكتكم شكراً لوبكم على ما خولكم من تلك النعم الجليلة ، ثم انتم من التمدن والحضارة براحل عن ان تقدوا بمن يدورون وعيونهم مكتنبة على دائرة اذا وجدنا آباءنا على امة . واعلموا ان الشفقة والحنانة البشرية

تدعوكم لان تنبذوا من حريبتكم الزيادات التي تسوؤها وتكدرها وتلقوا بها البشر على شفاة اولئك العبيد المساكين . والله يحب من عباده الرحاء فارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . هذا وارجوكم ايها القنصل الجنرال ان تعتقدوا غاية تكدرنا من حروبكم هذه الواقعة بينكم توجعاً على النوع الانساني وغاية شفقتنا على اولئك العبيد المساكين كما ارجوكم ان تعتقدوا خلوص مودتي لكم .
كتبه بيده الفانية الفقير الى ربه تعالى حسين رئيس المجلس البلدي ، تحريراً في
اواخر جمادى الاولى سنة ١٢٨١ هجرية ، الموافق لاواخر اكتوبر سنة ١٨٦٣
مسيحية ٠٠٠ - (عن كثر الرغائب في منتخبات الجواب ، الجزء السادس) .

روح الخيال الديني

١٨٦٤ - ١١٩

فيكتور هوغو : نبغ فيكتور هوغو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان تقويمه الحظ الاوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن بأسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طراً عليها وغير حكومتها من ملكية مطلقية الى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديمقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل او بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيئت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل بشعاره في نوادي السمر الادبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث اهل العاصمة بأمر سارت الركبان بحديثهم الى الولايات

(١) لما طبع كتابه الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ كان لا يزال حياً .

واطراف المملكة ثم فشا في الممالك المجاورة وجسمه البعد في الخيالات فاصبح صدهاء في الخارج اشد من صوته في الداخل . وبعد ان استبد نابليون الثالث بالحكم مال لابهة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه على السمعة في البلاد الاجنبية . وانتشرت اللغة الفرنسية على عهده في اكثر الممالك المتحدنة وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الدبلوماسية وفي الاجتماعات السياسية والادبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى مؤائد ضيافتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل الى يومنا هذا . فلما اقترن اسم فيكتور هوغو باسم نابليون بسبب مدحه نابليون الاول وهجوه نابليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الادب فلم يدع باباً من ابواب الشعر الا طرقة ولا مسألة الا بحث فيها . ثم ساعدته الظروف بالانتصار على نابليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعره وبالع رجاء الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور . اما السبب الثاني لشهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة . فظهر شعره فرحاً وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقات . ورأى في امنا الدنيا بقرة حلوباً تدر على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوهما . وحض على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقدم نوع الانسان في الحضارة وبتحسن الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . . . فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للاولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها الا بخل ام دفر على بنيتها بالحقوق

ومبادرتهم لها بالعقوق - ولا يرى بقرة فيكتور هوغو تجود الا بسم قطيب اي ممزوج
بجلاوة - ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشي . من زينة الحياة الدنيا
وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية
والرياض النضرة - وحيث كان لفكتور هوغو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في
حسن المستقبل وارتقاء الانسان الى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبين ما يقترب عليه
وعلى كل عاقل مفكر في الامر من نشر الحقائق بين قومه وابناء . لسانه وزعم ان
الشاعر ينبغي ان يكون رسولا للامة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم .
وفيلكتور هوغو موحد اعترف في كثير من اشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه
باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار
كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « واذا قال ابراهيم لانيه آزر
أتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت
السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا
ربي فلما أفل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال
لئن لم يهديني ربي لآكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي
هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بري . مما تسمعون . اني وجهت وجهي للذي
فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين . »

وهكذا قال فيكتور هوغو لقومه اني بري . مما تعبدون . فلم يكن مشركاً
بالله ولا كان منكراً جاحداً انكار الشاعر فولتير وجعوده ^(١) بل ربما كان حنيفاً .
والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم الناس في
جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره . فاذا أمعنا النظر في كلام
فيكتور هوغو نراه من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والارض . ونراه ايضاً كثير البغض في الجباة المستبدين ويدعو الناس الى

(١) رأينا انه لا يصح نعت فولتير بالجاحد . ومن الغريب ان يجمع على هذا الاعتقاد
كثيرون من الكتاب العرب في مطلع النهضة ، حتى لقد ألف الدكتور ميخائيل مشافه كتاباً
في الرد على الفولتيريين الجاحدين .

عدم اتخاذ ارباب من دون الله . قال الحكميم الفيلسوف ارنست رينان عن فيكتور هوغو وعن فولتير بانهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا الا على محبة العدل والانسانية .
والبأثر الثالث على شهرة فيكتور هوغو هو كثرة عمله وغزارة معارفه ، عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنسية ، وبعلم القوافي والعروض والموسيقى ، وما يلزم للشعر ، وكان حكيماً فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قالبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلاجات . واذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يعرض لها من الصور والاشكال والالوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . واذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة الا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافياً او طبيعياً او تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها او لما ينبت في ارضها او لمرآها الطبيعي ومنظرها الخارجي ، وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا واطاليا .
... وكان له ولع بالامور العظيمة والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فحرف لبح البحر الذي لا يرى ساحله وبعده الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد اصوات الاشياء ووصف الجمادات وصفاً يخال منه للقارى . انها حية تنطق . ولذا قالوا ان فيكتور هوغو انطق الجماد ونفخ فيه باساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بدعية وتشابيه ظريفة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبديع امثالاً كثيرة في الشعر العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسلكهما من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوغو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقوالهم في الدائرة الذين (؟) هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية

والسياسية ونادى بأخوية والمساواة بين افراد البشر وبين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية وظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه الا بالموت . فهو متحير في هذه العقدة التي اضلت الادباء في حلها .

ثم ان اهل النقد الادبي من بلغاء الافرنج يقولون : نعم ان فيكتور هوغو انطلق الجداد وتوصل بأساليبه الشعرية الى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والمهينة الاجتماعية باحسن تصوير وابدع وصف . فهذا لا ينكر ولكن لم يتوصل الى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد اوصاف تلمة ولا حياة طبيعية للأشخاص الذين اختلقهم على مسرح التمثيل . ولذا لم يكن اوجد الادباء في تأليف روايات الدراما . فهو وان انطق الجداد لكنه اخس البليغ .

نعم ان شارلكنين في رواية ارناني Hernanie هو بيت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي ارانا اياها الشاعر على مسرح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف اي نفس فيكتور هوغو وليست نفس المشبه به وهو شارلكنين ، فالحماسة التي اظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية اي من عنسد الشاعر ولم تبين على الحجج والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماها اميل زولا « دوكيان » . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يولمون فيكتور هوغو على تعظيمه الامور ويشبهون قريحته براءة مكبرة تكبر التي المعكوس فيها وتجسمه تجسماً خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوغو ادخاؤه الغنان للقوة الواهمة والخيالية ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب الف ليلة وليلة وما كان على نسقه .

ومما اذنتقد فيه على فيكتور هوغو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبه فيه ذات اليمين الى ذات الشمال ومن حزب الملكية الى حزب الجمهورية . ورأينا جوابه على هذا الاعتراض بقوله : ان مدحنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة

• مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وإنما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا أياه على الماء الجاري • والجواب الصحيح على هذا الاعتراض أن فيكتور هوغو مع ظهور معجزاته في المعاني • ما هو إلا بشر غير معصوم تميل نفسه إلى شهواتها التي منها التقرب من الملوك وأولي الأمر ، ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في أمر الشهوات النفسية صبوراً متجلبداً عند الحاجة • وبينما نرى أمثاله وأقرانه من أدباء باريس لا يقنع أحدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم أولاده ، والمثلة البارة جوليث • ومن غريب أمر هذا الشاعر أنه خالف القاعدة المطردة في عظماء الرجال • فكان في شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقلاب والارتقاء شديد العداوة للاستبداد والمستبدين • وهذا خلاف المطرد في اخلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد ولانقلاب والحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة • - (عن كتاب تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب) .

المطران يوسف الدبس

١٨٣٣ - ١٩٠٧

• منه حوادث سوريا ابام السلطان عبد الحميد الاول : إن السلطان مصطفى الثالث توفي سنة ١٧٧٤ وخلفه اخوه السلطان عبد الحميد الاول • ومما كان في ايامه بسوريا انه لما كان الجزائر قد نصب والياً على صيدا سنة ١٧٧٦ ، خاف الامير يوسف حاكم لبنان لما كان بينها من العداوة ، واسر بالامر لحسن باشا المكلف باصلاح شؤون سوريا فاجابه : كن آمناً فاذا رجعت الى الاستانة عزلته • وطلب منه ان يدفع له مائة الف قرش كانت باقية عليه من المال الاميري • فوضع الامير يوسف

يده على ربيع عقارات تخص الحكومة كانت بيد اقربائه ، فثار الامراء عليه ونهضوا الى البقاع . فحشد الامير رجالا سار بهم ففروا من وجهه . واسترضاه الامير اسماعيل حاكم حاصبيا عنهم وبقي اخواه الاميران ، سيد احمد ، وافندي ^(١) يحزبان عليه . فاضطر الامير ان يرد عليهما اقطاعهما .

وسافر حسن باشا الى الاستانة ، ونهض الجزار بعسكر من صيدا الى بيروت فاستحوذ عليها وضبط املاك الشهابيين بها ، وشدد على الامير يوسف بطلب الاموال عن ثلاث سنين ماضية . فكتب الامير الى حسن باشا وكان قد بلغ الى قبرص ، فعاد واخرج الجزار من بيروت وطيب قلب الامير . وبينما كان فرسان الجزار راجعين الى صيدا امكن لهم المشايخ النكدي في السعديات بقرب الدامور ، فاندفع الفرسان عليهم وقتلوا منهم كثيرين واسروا شيخين منهم . وكتب الامير يوسف الى الجزار معتذراً بان ذلك لم يكن بعلمه والتمس اطلاق الشيخين وجعل له فدية عن ذلك مائة الف قرش . فاجابه الجزار الى ذلك . ووزع الامير المبلغ على البلاد فابى الامراء اللعيون دفع ما نابهم منه ، فالتمس الامير من الجزار ارغامهم على الدفع فارسل عسكرياً على المتن فاحرق المكلس والدكواني والجديدة وقتل جماعة . ثم دهم الشويقات فصده رجالها ، فقفل الى بيروت ، ثم سار الى صيدا وخرج منها بعسكر الى البقاع وضبط كل ما بها للبنانيين من الغلات . فاتفق حينئذ الامير يوسف مع الامراء اللعيون وجمع منهم عسكرياً زحف بهم الى المغيشة وكان بين الفريقين وقعت كان النصر فيها لعساكر الجزار .

وفي سنة ١٧٨٢ احدث الامير يوسف ^(٢) ضريبة على التوت سموها البرية . فانثار اخواه ^(٣) الجنبلاطية عليه وجمعوا حشداً وساروا به الى قرب دير القمر قاصدين طرده وقتل مدبره سعد الحوري . فوعد الامير بإبطال الضريبة ، فانفض الحشد ، واستمر

(١) افندي هنا اسم علم .

(٢) هو سلف الامير بشير في اماره لبنان . وكانت بينه وبين الامير بشير مناوشة وتناوب على كرسي الامارة ، مثل فيها الجزار والي عكا دوراً عظيماً .

(٣) هما سيد احمد وافندي .

الاميران والجنبلاتية على عزهم . وفي سنة ١٧٨٣ اجتمعوا في دار الامير افندي ليلاً ليمضوا الى كنيسة التلة ليقسموا على اتفاقهم على طرد الامير وقتل مدبره . وعرف الامير ذلك فاكمن لهم المغاربة في طريقهم فقبضوا على الامير افندي وفر الامير سيد احمد . ولما رأى الامير يوسف اخاه (افندي) حملته سورة غضب فقتل اخاه بيده .

واما الامير سيد احمد فاتفق مع الشيخ حسن جنبلات والشيخ عبد السلام العماد على خلع الامير يوسف ، فخاف الامير يوسف واسرع الى الجزائر ووعد به ثلاثماية الف قرش ، فولاه وارسل معه تسكراً قام به الى اقليم الخروب ، وحشد الامير سيد احمد عسكرياً وارسله مع ابن اخيه الامير قعدان ، والتقى الجيشان بعانوت فانكسر عسكر الامير قعدان وهو نجا منهزماً . وارتاع الامير سيد احمد ففر ومعه الشيخ قاسم جنبلات الى صليبا عند الامير اسماعيل اللامي . فضبط الامير يوسف املاكهم وهدم مساكنهم . والتجأ الامير سيد احمد الى محمد باشا العظم والي دمشق فولاه على وادي التيم والبقاع واصحبه بعسكر ، واتى معه الجنبلاتية الى قب الياس . والتفاهم الامير فكانت الحرب بينهم ثلاثة ايام . فانهزم الامير سيد احمد والجنبلاتية الى الزبداني وعاد الامير يوسف الى دير القمر واخذ يصادر محازبي اخيه ، ثم تدخل الامير اسماعيل خال الامير يوسف بالصلح بينهم وبين ابن اخيه ، فرضي الامير يوسف عنهم بشرط ان يدفعوا مائة وخمسين الف قرش فدفعوها . وعادوا الى وطنهم وامر الامير يوسف الامير سيد احمد ان يسكن بالشويفات فاطاعه .

الثورة على الامير بئر والجزائر سنة ١٧٩٠ - ١٧٩١ : توفي السلطان

عبد الحميد الاول سنة ١٧٨٩ وخلفه السلطان سليم الثالث . ومما كان في ايامه بسوريا ان الامير يوسف كتب الى الجزائر يستأذنه بالحضور الى عكا ، فاذنه ، فدخل عليه وفي عنقه منديل الخضوع فأمنه واكرمه واقام عنده خمسة اشهر . وفي سنة ١٧٩٠ خلع عليه خلع الولاية على لبنان بعد ان تعهد له بدفع ستماية الف قرش ، ورهن عنده على ذلك ابنه الامير حسيناً ومدبره الشيخ غندور

الخوري^(١) واتخذ فارس الشدياق مديراً عوضاً عن غندور . فقام الامير بشير^(٢) الى نيهام الى عكا وتعهّد للجزار بدفع زيادة على ١٠ دفع الامير يوسف ، فانعم عليه بخلعة الولاية على لبنان وامر أن يلقى الامير يوسف بالسجن ومعه عشرة من خدمه من بيت الدحداح وسمعان البيطار وفارس الشدياق . وامر الامير بشير ان يسرع الى دير القمر ويأخذ معه الامير حسيناً ابن الامير يوسف . ولما وصل الى دير القمر قبض على كل من وجده من محازبي الامير يوسف وادعهم السجن ووجه جباة يجمعون المال فاجتمع الامراء اللعيون ووجوه المتن في مأتم الامير محمد اللامي واتمروا على الامير بشير واختاروا مكانه الاميرين حيدر ملحم وابن اخيه قعدان وبشوا الى وجوه البلاد ما عزموا عليه ، وطرّدوا جباة المال . فجمع الامير بشير رجاله وسار الى عين داره واجتمع المنتية في حمانا وسار الامير حيدر ملحم الى عبيه واتفق مع ابن اخيه الامير قعدان وضوى اليهما بعض المشايخ النكدية والعلادية ، وخاف الامير بشير ان يسبقاه الى دير القمر فاسرع اليها وارسل الجزار الفأ من الارناؤوط الى حرش بيروت . فخاف الامير حيدر ملحم وقام الى العبادية واتفق مع المنتية وارسل الامير بشير رجالا لمساعدة عسكر الجزار فكانت بينهم وبين المنتيين وقعت انهزم بها المنتيون وقتل منهم خلق كثير ، وكتب الامير بشير الى الجزار يخبره وينسب هذه الثورة الى الامير يوسف . وكان الجزار في طريق الحج فغضب وكتب الى نائبه في عكا ان يشق الامير يوسف ومديره غندور الخوري . ثم حمد غضبه وكتب الى نائبه ان يتوقف عن شنقها . وبلغ الامر الثاني قبل الاول فاخفاه النائب بلشارة ابن السكرج لانه كان عدواً للشيخ غندور واخذها الى المشنقة ، فشق الامير يوسف واما الشيخ غندور فمات خوفاً وقيل شنقاً .

ان قتل الامير يوسف والشيخ غندور لم يخمّد الثورة التي ابتدأت في المتن على الامير بشير . وعند رجوع الجزار من الحج اسف على قتل الامير يوسف وامر بقتل

(١) كان مدير الامير يوسف الشيخ سعد الخوري ، ثم اصبح غندور الخوري ، ثم اصبح فارس الشدياق .

(٢) كان الجزار قد ولي الامير بشيرا امانة لبنان مكان الامير يوسف ، ثم راح يعمل الامارة مزايده بين المتراجمين .

ابن السكروج والتمس الأمير بشير منه اطلاق المسجونين من أتباع الأمير يوسف وكفاهم ، فاطلقوا . وكتب الجزار الى والي دمشق ان يرسل عسكرياً لمساعدة الأمير بشير وارسل هو عسكرياً الى البقاع وامر الارناؤوط الذين كانوا في حرش بيروت ان يحضروا الى صيدا . ولما شعر النكدية بمرورهم بالتعهديات وقتلوا منهم نحو مائتي رجل . فكتب الجزار الى قائد عسكريه في صيدا والبقاع ان ينهض بالمعسكر الى المتن . وسار الأمير بشير بعسكر من صيدا وظهر حينئذ العصيان اهل الغرب والشجار والجرد واهل دير القمر ايضاً وتجمعوا واكفوا للأمير عند صحراء الشوفات . لكنهم اندحروا وقتل منهم نحو عشرين رجلاً .

وكانت بعد ذلك اي سنة ١٧٩٠ وسنة ١٧٩١ سلسلة حروب متصلة في ساحل بيروت والبقاع وحاصبيا واقليم الخروب والشوف ، وكانت النهاية ان الجزار لما رأى أن عساكره لا تستطيع ان تكفه اللبنانيين على طاعته كتب للأمير بشير ان يرجع بالمعسكر الى عكا فرجعوا وامر الأمير ان يقيم بصيدا وجعل له نفقة كافية ، وكان الاميران حيدر ولحم وقعدان اقاما في دير القمر حاكمين فصرفا اهل البلاد كلاً الى محله لكنهم بطروا وتمردوا وسطا بعضهم على اهل الساحل وبيروت فاقتل المسلمون ابواب المدينة على من كان فيها من الجبل وقتلوا ستين رجلاً ورفع اعيان البلاد عريضة للجزار التمسوا فيها الصفح وان يولي عليهم الاميرين حيدر وقعدان وتمهدوا بدفع الاموال مع زيادة اربعة آلاف كيس عليها ، وبعد التوثق على ذلك ارسل اليهما الخلع وأمر بجيز الأمير بشير بصيداً واخاه الأمير حسناً ببيروت .

الثورة على اولاد الأمير يوسف سنة ١٨٠٠ : كان ابنا الأمير يوسف قد عجزا عن جمع المال المطلوب للجزار فانفذ الف فارس لجباية المال من البقاع والحب بطلب المال كاملاً مع مطالب اخرى فارسل الاميران محصلين لجمعها فباج اهل البلاد وطرد المثنيون المحصلين وارسل الجزار الارناؤوط اليهم فاستعدوا لقتالهم واجمعوا على اعادة الأمير بشير الى الولاية ووافقهم اكثر اعيان البلاد فارسلوا ثلاثمائة رجل الى الحصن يستدعون الأمير بشير فعاد معهم الى لبنان . فاضطرب الاميران واسرع جرجس باز

الى الجزائر فجهز الفتي مقاتل من الارتاؤوط ووعد به ارسال عسكر من الفرسان . وقام الامير بشير الى حمانا فالتقاء الجميع بالسروور واتخذ معه اكثر الامراء اللامعين فنهض الى الباروك ثم كفرنبرخ ، ووصل جرجس باز بالارتاؤوط الى دير القمر وقل اصحاب اولاد الامير يوسف فاقنع بعضهم جرجس باز بعقد الصلح على ان يتولى الاميران بلاد جبيل ويتولى الامير بشير باقي البلاد ، فرضي بذلك وقام الامير حسين بعسكر الجزائر الى ساحل بيروت ودخل الامير بشير دير القمر .

على ان جرجس باز عدل عن الصلح وجرت وقعات كان النصر في آخرها للامير ، فاذعن جرجس باز وعقد الصلح بشروطه المار ذكرها . ولما علم الجزائر بما كان ترق غيظاً ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ .

عامية انطلياس سنة ١٨٢٠ : وفي سنة ١٨٢٠ طلب الوزير ^(٦) مبلغاً لم يتيسر للامير دفعه للحال . ووجه المعلم بطرس كرامة يعتذر له . فحنق الوزير وامر بتوجيه عسكر الى حدود ولاية الامير وامر متسلمي صيدا وبيروت ان يقبضا على من يجدانه من اللبنانيين . فقبض متسلم بيروت على مائة وثلاثين لبنانياً ، ومتسلم صيدا على اربعين منهم . فارسل الامير يعتذر للبasha ويستعطفه . فامر بان يتعهد الامير بالنفي كريس يدفعها بعد مضي شريين . فتعهد بذلك وامر الوزير باطلاق اللبنانيين ، وارسل الى الامير خلع الولاية .

وارسل الامير جباة لجمع المال فهاج اهل المتن وابوا دفع المطلوب وكاتبوا اهل كسروان ان يخذوا حذوهم فاجابوهم الى ذلك . واجتمع الفريقان بانطلياس واقسموا ان لا يدفعوا الا بحسب العادة . واتاهم الشيخ فضل الحازن فجعلوه شيخاً للعامية المعروفة بعامية انطلياس . وكتبوا الى عبد الله باشا ان ظلم الامير بشير انما هو الذي اوجد الهياج في البلاد ، فاجابهم ان لا يدفعوا الا بحسب عادتهم . وارسل الامير يخذوهم وينذرهم فلم يردوهم . فكتب الى الوزير : اني عجزت عن الولاية وتركتم بلادني

(٦) هو عبد الله باشا الوالي العثماني الذي خلف سليمان باشا على عكا ، وسليمان باشا هو الذي خلف الجزائر المتوفى سنة ١٨٠٦ .

منتظراً ان يصفو خاطرهم علي . فوجه الوزير بعض مشايخ الدروز واصحبهم بسبع مائة مقاتل وارسل معهم خلعة الولاية الى الامير حسن علي والامير سلمان سيد احمد الشهابيين .

فنهض الامير بشير باولاده وخدمه الى حسانا فاقم له الامراء اللامعيون انهم لا يقبلون والياً غيره . ثم نهض الى قب الياس ثم الى وادي التيم . وسار الامير سلمان بالسكر الى وادي التيم مصحوباً بامر من عبدالله باشا الى امراء حاصبيا وراشيا ان لا يقبلوا الامير بشير . فنهض الامير الى حوران وضبط الامير سلمان املاك الامير بشير واصحابه . فكتب الامير بشير الى عبدالله باشا يستعطفه فاجابه : لو لم تترك الولاية لما وليت غيرك ، فاسرع الآن الى عكا . فاجابه الامير : ارجو ان تأذن لي بالاقامة ببلاد جبيل ، وكنت اود ان اشرف الآن برحابك ولكن لم اتكفن من ترك أتباعي ولا من احضارهم معي . فاذن له بالاقامة ببلاد جبيل وطلبه ان يحضر الى عكا بنفسه . وكان الاميران حسن وسلمان قد تعهدا لعبد الله باشا بدفع الفين ومائتي كيس .

ولما وصل الامير بشير الى شفا عمرو استأذن الوزير ان يحضر لديه ، فاجابه ان حضوره الى عكا وقتئذ يؤخر دفع ما تعهد به الاميران وخيره بكان اقامته . فاختر جزين وحضر اليها . فالتقاء الناس بالتجلة وارسل الاميران يجيبان المال الذي تعهدا به فطرد الجباة من المتن وكسروان وبلاد جبيل ، وتقاطر مشايخ البلاد واعيانها الى الامير بشير . فطلب الاميران من مشايخ العقل ان يتوسطوا لاصلاح بينهم وبين الامير بشير فقم الاتفاق ان الاميرين يتزلان عن الولاية وان الامير بشير يأخذها . فعهد الوزير اليه بها مدة حياته فتليت الاوامر بها بكل احتفاء .

عاصمة لحكم سنة ١٨٢١ : ان الاميرين حسن وسلمان رفعوا عريضة الى عبد الله باشا يبديان خوفهما من الامير ، فامر بشنق رسولهما ثم سار الامير بشير الى بلاد جبيل وطلب الامير سلمان ان يكون بخدمته ، فابى . فكتب الامير حسن الى الامير سلمان واستغواه ان ياتيا الجبيليين الثائرين على

الامير بشير . فانقاد لرأيه ، وقام الامير الى غرفين احدى قرى جبيل . وكان اهل تلك الجهة مجتمعين بشاوات . فبقي الامير سائراً الى لحفد . فاجتمع في حافل اهل بلاد جبيل والبترون وبعض من كسروان واتى رجال جبة بشري الى احمج وجمهر المتاوله في رام مشمش وارسلوا يقولون للامير انهم لا يدفعون الا مالا واحداً وجزية واحدة . وكان الاميران حسن وسلمان يجسرانهم . فارسل يقول لهم : ارتضي بال واحد ، وهم يجمعون المال ويوردونه له . وقبل عود الرسول ظهر نحو التي رجل من جهة ميفوق وظهر امامهم من الجنوب جماعة من المتاوله واخذوا يطلقون الرصاص ، والامير لا يسمح بالقتال الى ان اصاب احد رجاله ، فثار بعض العسكر واقتحموا اولئك الرجال وتبعهم الفرسان واطبقوا عليهم واعملوا فيهم السلاح وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً فانهمزمو والقى بعضهم انفسهم من شاطئ الى اسفل ، واسر منهم كثيرون . فعفا الامير عنهم وقتل من عسكر الامير تسعة رجال . وقام هو في اليوم التالي الى عمشيت فتعرضوا له في غرفين فارسل اليهم شرين فارساً يناوشونهم القتال وانكسروا امامهم ليلحقوهم ، فلم يجسروا ان يلحقوهم ، فسار الامير الى عمشيت ثم جبيل (عن كتاب موجز تاريخ سوريا ، الجزء الثاني) .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ - ١٩٣١

الببل « بطل الحرب » : وفيما ذكر ان يفكر ، اذا صوت تسامى اليه في سكون الليل متنقلاً على اثناء الظلم ، احسن ايقاع باشجي ترجيع . فكان الببل الببل والربيع ، كالمغني والمهرجان . وانما يشتد تلازمهما في آلاف لا يتعدياتها الى

غيرها . وأحب تلك المآلف اليها هي فروق .

إذا ترامت الربي في مجاسد الحُصْب وبدت لقاطها وحواشيها . طارزة ومعلمة ، منمقة
بحسن الزهر في اختلاف أشكاله والوانه وارتفعت التلاع في منخفض الوهاد
كالضارب ، وصفت قبالتها طوائف السرح والسرور كالحواشي والجنود ، اقبلت لتحشد
عند ملك عظيم ، وانسلت الانهار في الاودية كالزئبق وسرت النسيم بين الصدور
والارحاء . بزفير او اريج ، انطلق البلبل من عشه ، وملأ الفضاء . تطريباً .

بالعشيات او بالبكور . في الروضة الغناء او الوادي الممرع . على الاثلاث او تحت
الشبائك . عند اعتلاق الانداء بالفضاء بين السماء والارض .

جناحه في سفوق وسكون . وريشه في تجعد واستواء . يتنقل بين الاوراق
الحضر والاعصان الهيف راقصاً معربداً . كلما طرب لنغمة جاوبها بحارة وكلما استنكر
صوتاً صمت عنه مداراة . وهو مع كل حالاته شاعر الطبيعة . بديهاته طوعه وخواطره
مه . لا يتصنع ولا يتكلف . يقيم الاوزان ويسدد القوافي بغير كد وبغير تعنت .
يترفع عن غليلق الملوكة والزلفة عند الكرام . ينسب ويتشبه . ويبكي ويستبكي .
غناؤه انين وشعره روح .

ريب الجمال وتبيعه . يزوي بآاء المزن ويشمل بشذا . ما تشر الحائل . شجي
معنى . تهيج الذكريات وقيته الحشرات . حليف الوجد وهو ابعد المخلوقات عن حمله .
يربك لساناً كريشة الكاتب . يقطر لوعة . ويتحرك حزناً . وعينين مروعتين
بحوادث الليالي تلمعان على احسن رأس ركب على احسن عنق الى حشان كالقلب بل
هو اصفر واوهن .

ليت شعري ما تضمنت تلك الضاوع الضاعف . وما يهيج تلك الروح المروعة .
أكاف بالحرية ؟ أجل كلف بالحرية . هو مجنونها ومعذبها ومدللها بل هو على ضعفه
وصغره بطلها . ما اودع قفصاً الا ومات فيه غماً او انتحر يأساً . يزنو الى ملك الله
في سعتة ويتملى من محاسنه . بعيداً عنها ، محجوزاً دون الجولان بينها ، فيفنيه ذلك
أسى ولا يستشفي عنه بصبر ولا جلد . آه من البلبل وآه على البلبل .

فَرَحْ أَنْطُونْ

١٨٧٤ - ١٩٢٢

منه مذكرات مفكر مر ابام عبد الحميد : علمت في زمن الصبي وانا في سوريا بان اسكندر ديباس الاكبر كتب رواية في الثورة الفرنسية ، فاهتديت اليها . وما شرعت في مطالعتها حتى سباني موضوعها واسلوبها لا لامر ما سوى شي . من المشاركة بين بعض حوادثها وحوادث السياسة في البلاد العثمانية في ذلك الزمن . وكانت سكيينة كسكيينة المقابر تحميم يومئذ على البلاد والعباد ، والجرائد السورية لا تنشر شيئاً (يخدم الاذهان) لان المراقبة كانت لها بالمرصاد والصحافة المصرية على قتلها يومئذ قليلة الانتشار في سوريا . فقلما كان للمطالع مصادر يستقي منها غير المصادر التي يمتارها ويسعى اليها . ففي وسط هدوء كذلك الهدوء ، ونحو ذلك الخمول ، احسست بان عبارات ديباس في روايته هذه كانت كهروق تسطع وتشق جو الفكر ، او اسواط تفرع الاذان وتنبه الغرائم والاذهان . وقد يكون اليوم لعبارات كذلك العبارات تأثير كذلك التأثير في نفوس الرجال الذين اشتدت سواعدهم وقويت الواهم حتى بعد زوال الضغط القديم ومشاهدتهم حوادث يومية كحوادث تلك الرواية ، فكيف بتأثيرها في فتي صغير السن قليل الخبرة والاطلاع .

ولذلك اولعت بهذه الرواية ولعاً شديداً دون سائر روايات ديباس . ولا انذكر انني قرأت رواية له غيرها قراءة جدية . ولم من مرة قضيت في مطالعتها الليل حتى الساعة الثالثة او الرابعة صباحاً ثم انحدت بها من فراشي الى حفرة في الحديقة كنت ادفن فيها صندوقاً صغيراً يحتوي الكتب والاوراق التي اخشى عليها من عمال الحكومة خوفاً من التفتيش الفجائي الذي كان شائعاً . فكنت اضعاها في الصندوق بين تلك الكتب والاوراق واعيد التراب على الصندوق ثم انام مطمئناً .

وقد تكون هذه التفاصيل تافهة في ذاتها ولكنني لم اذكرها الا لسبب سترد الاشارة اليه . على ان ولوع المرء بكتاب او رواية سبب كاف في حمله على اشراك

قرائه في ما احبه منها ، حينما يتخذ الكتابة صناعة له ، وهذا ما جعلني افكر في تعريب هذه الرواية والحاقها بـ « الجامعة » ^(١) حين رأيت الحاقها برواية . وهناك ايضاً سببان آخران ، الاول : تلذذي يومئذ (بمضايقة) مراقبي الجرائد والمجلات في البلاد العثمانية جزاء لهم على ما عانيت به بسببهم من الحذر والاعتناء والاحتراس في اثناء مطالعاتي الاولى . والثاني ، وهو السبب الوجيه : رغبتني في ايقاد تصورات ابناؤنا الشرق بهذه الرواية ، كما اتقنت تصوراتي بها في صباي . وقد خيل اليّ انني بتعريبها في اثناء ذلك السكون التام والحول الشامل افتح ، في ذلك البناء القديم ، نوافذ مطلّة على سماء الحرية ليرد منها النور والهواء ، وانصب امام قرائها مثالا يحتذونه ، فته تحيط بها زرقة السماء وقاعدته مغموسة في الدماء . وقد يكون هنالك سبب اوجه من جميع تلك الاسباب التي تقدمت وهو الداء الذي يقع فيه كثيرون من الصحافيين والكتّاب ، واعني به الرغبة في اجتذاب القراء بالمواضيع الجذابة . ولكن ليس من مصلحة الكتّاب ان يعترف مثل هذا الاعتراف ويسجل هذا الكلام على نفسه لان صناعة الكتّاب كصناعة الكهنوت فيها كثير من الاسرار .

وقد شرفت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد هذه الرواية حين الشروع في نشرها في « الجامعة » بوضع تلافيفات كانت تبث بها الى الولايات السورية كلها صدر جزء من الجامعة وفيه جزء من الرواية . ولما كانت اجزاء الجامعة يبعث بها (مضمونة) في البريد الفرنسي فقد كان البريد الفرنسي يعيد الى ادارة الجامعة الاجزاء المرسلة الى داخلية البلاد العثمانية والتي تسبقها الى الثغور السورية تلافيفات الاستانة ، بينما كانت الاجزاء التي تسبق تلك التلافيفات الى الثغور تمر وتصل الى اصحابها في الداخلية دون ممانع . ولما تحققت ان كل الضرر وارد من اطلاق قلم المطبوعات بالاستانة على « الجامعة » قطعت الجامعة عن قلم المطبوعات في الاستانة والنظارات ، قطعاً مطلقاً ، حتى عن مشتركها في الاستانة ، فبطل ارسال التلافيفات مدة من الزمن . وقد ظننت انني بقطعي « الجامعة » عن الاستانة قد وجدت دواء للداء ، وما كنت ادري ان داء الاستانة يومئذ داء لم يكن له دواء قبل قيام شوكت

(١) اسم المجلة التي انشأها فرح انطون .

باشا وجيشه . فان حكومة الاستانة لم تلبث ان امرت بمنع دخول مجلة الجامعة الى البلاد العثمانية بسبب نشرها هذه الرواية على الاخص .

وقد انقضى الآن عشر سنوات على نشري هذه الرواية قضيت منها ٤ سنوات في جهات اوروبا والولايات المتحدة وكندا . وعند وصولي الى باريس ، لأول مرة في حياتي ، كان اول ما عملته انني زرت اشهر الاماكن التي وقعت فيها وقائع هذه الرواية كالتويلري والمجلس البلدي وفرسايل وساحة الباستيل التي ليس فيها اليوم من آثار الباستيل شي . سوى تذكاري نُصِب في وسط ذلك المكان يذكر الناس بهجوم الشعب على الباستيل ، واطواره لأول مرة قوته على قوة الملكية . والمكان اليوم ساحة متسعة تحيط بها القهاوي ، وكان ارضه في ظلام الليل ونور النهار لهدونها وقلة الزحام فيها كائن تعب لحمله ثقلاً هائلاً عدة قرون جلس يستريح ويتنفس الصعداء . خلاصه من ذلك الثقل الهائل الذي كان فوقه كصخرة هائلة ملقاة على قلبه ، او « كوحش هائل رابض على قارعة الطريق يفتس الناس » كما قال ديماس . وقد وقفت غير مرة في ذلك المكان واخذت اقول وانا اجول في انحاء تلك الساحة الهادئة : هنا كان سجن الفكر والقلم والعقل . هنا كان مدفن الكتاب والفلاسفة والساسة من معارضي الحكومة ، دفنوا فيه احياء ولكنهم ما لبثوا ان تغطوا وهم في مدفنهم فرفعوا عنهم بقوة الفكر الذي لا يسجن حجارة القبر ونبذوا الاكفان وفتحوا جميع قبور الاستعباد لجميع المدفونين واخرجوهم الى نور السماء ! هنا كان اول ما سطع نور الله على الارض وانشأ طريق الشعوب وفتح السبل في وجهها بعد ان كانت مسدودة ! هنا كانت اول واقعة فاصلة بين حق الشعب وحق الملك فصرع الاول الثاني ! هنا كان مولد الديموقراطية ومدفن الاوتوقراطية والارستقراطية ! هنا كان مهبط رسالة جديدة للبشر كرسالة احمد يصونها سيف ماض كسيفه ! هنا كان مزود بيت لحم الثاني الذي ولد فيه المسيح الثاني ولكنه (عمّد) بالسيف والناز والدماء لا بماء الاردن ! هنا ظهر الله يوماً ظهوراً اجلى من ظهوره على جبل سينا او عليقة موسى ! هذه هي الافكار الشائعة بين الجمهور في شأن الثورة الفرنسية ومبادئها . وقد تغذى في صباي لحيي ودمي من هذه المبادئ ، وقرأت تاريخ تييرس وميشله وشيشا من

تاريخ كارليل في شأنها حتى أصبحت احرم على نفسي رشتي لها ولو بوردة حتى في المبادئ التي بطل اعتقادي بها ٠٠٠ - (مقطع من مقدمة فرح انطون لرواية ديماس التي عر بها عن الثورة)

مُصْطَفَى كَامِل بَاشَا

١٨٧٤ - ١٩٠٨

اشراك الشعب في حكم نفسه سبب الرقي : من الشعوب من يسلم زمام اموره الى حكومته ويجري طوع ارادتها ، ومنها من يجعل للحكومة حداً في السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة ، ان احسنت كافأها وان اساءت قضى عليها . فشعوب الشرق من النوع الاول ، وشعوب الغرب من النوع الثاني . ولذلك كان الشرق في تأخر وانحطاط وكان الغرب في تقدم وارتقاء . لان الشعب هو في الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الاخطار . وما الحكومة الا وكيل عنه تختار من نخبة ابنائه ومن اشدّهم حرصاً على مصالحهم .

انه الشعب هو القوة الوهيدة الحقيقية : على اننا لو تأملنا قليلاً الى ما اقيم في هذه البلاد من عظام الاعمال ، لو جدنا ان الشعب هو المشي له والموجد لكيانه . فهؤلاء الافراد الصغار الذين لا يعبأ بهم الكبراء والعظماء هم في الحقيقة قوام مصر ومصدر نعمتها ولولاهم ما عرفنا العيش ابداً . من المؤلف للجيش ؟ افراد الشعب . ومن المكون للشرطة وحفظ النظام ؟ افراد الشعب . ومن الموجد لمصولات مصر وخيراتها ؟ افراد الشعب . ومن يُعيش العظماء والكبراء والامراء ؟ افراد الشعب . فهم دون غيرهم قوام الوطن ومصدر خيره ومجده وسعادته . فكيف يحجب بحقوقهم ؟ وكيف يهانون ؟ الا ترى ان العظماء انما هم كذلك ، لان افراد

الشعب يحملونهم فوق رؤوسهم ويطيعون أوامرهم ؟ والا فلو تحول الشعب ضدكم فإذا يفعلون ؟ وهل يستطيعون مقاومته أو يقدرّون على الوقوف أمامه ؟ كلا ثم كلا ! ان الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية ، وهو السلطان الذي يخضع لارادته اكبر العظماء واعظم الاقوياء

المساواة امام الوطن : ان الناس سواء امام الوطن في الحقوق والواجبات .

المواطنون منطافلون منضامنون : اذا ظلمت الحكومة احدنا ولم نعمل لرد هذه المظلمة ، كان ظلم الحكومة واقعاً لا محالة على الجميع - (مقاطع من خطاب الزعيم الوطني المصري ومقالته نقلاً عن كتاب « مصطفى كامل باشا في ٣٢ ربيعاً ») .

أمين البستاني

١٨٥٤ - ١٩٣٧

الديموقراطية^(١) : الديموقراطية لفظ يونانية تركبت من كلمتين : ديموس ومعناها الامة او الشعب وكراموس ومعناها السلطة : اي سلطة الشعب ويقابلها الاوتوقراطية . واللفظة يونانية ايضاً ومعناها سلطة الفرد او الملك المطلق لا الدستوري المقيد . هذه انكلترا « ديموقراطية » على رأسها ملك الا انه دستوري مقيد يسوس الامة ولكن على يد الامة فهو ملك جمهوري .

قلت ولم تزل الحرب مستعرة بين الديموقراطية والاوتوقراطية منذ تبليج فجر المدنية ، دلنا على هذا تاريخ اثينا ورومية في القدم وتاريخ فرنسا وانكلترا وغيرهما في الطارى .

(١) نقلاً عن كتاب « مختارات امين البستاني » ، مصر .

الحديث ، فمن اوتوقراطية الى ديوقراطية ومن ديوقراطية الى اوتوقراطية حتى ظفرت
الديموقراطية ، الا الولايات المتحدة الاميركانية فانها استمرت من الاصل على الديموقراطية
لا تنصرف عنها ابد الايام وذلك لتمكن المذهب الديموقراطي منها واشرا به نفوس
قومها . ولا غرو ان تسود الديموقراطية آخر الامر لانها حكومة الامة والحكومة للامة
لا للملك الذي هو رجل منها اختارته ان يكون رأس دولتها او اغتصب هو هذا الملك
اغتناباً وغلاباً في حرب وقعت او فتنة فرقت بين الامة ادرك بها طالب العرش منه .
لما قبض الملوك على صوالة عروشهم انتحلوا حق السماء وقالوا ان ملوكهم من
الله لا من عباد الله . ومن هذا قيل لامبراطور الصين ابن السماء ولسلطان العثمانيين
ظل الله على الارض . ثم ظلت الامم تلقي على ملوكها مثل هذه النعوت الضخمة
حتى هروا من تلك العروش الا الملوك الذين دانوا لسنة الديموقراطية فاستقروا على
عروشهم وهم اشباه رؤساء الجمهوريات لا ابناء السماء ولا ظلال الله على الارض . على
ان تبدل طريقة الحكم من سنن اوتوقراطي اي من سنن التحكم والاستبداد الى سنن
الحرية والدستورية فجأة وبيرة واحدة افضى الى فتن سالت فيها الدماء وتناولت رؤوس
الملوك انفسهم فلم تلم من سيوف الفتنة ان تجزها وتجزمها . والشواهد كثيرة في
التاريخ القديم والجديد اذ لا بد للملوك من احزاب تنصرهم وتنفر معهم للذود عن
عروشهم فتقتل الرعية ولم تزل بالاقتيال حتى يظفر فريق بآخر ، وغلب ان يظفر فريق
الحرية ان لم يكن عاجلاً فبعد حين . لانه متى عصفت فتنة الحرية بأمة واذقتها
شيثاً من حلاوة الديموقراطية فلا تنكص عنها حتى تبلغ امانيتها . الا ان حكماء الامم
اجمعوا على ان التدرج والتدرب على طريقة الديموقراطية هما اسلم عاقبة واثبت اثرأ من
الطفور ، فقد جاز ان تلتوي امانى الاحرار بمثل هذا التسرع وتقوم الفتنة ويفسد القصد
على طالبيه .

قد غلبت الديموقراطية وعتت بسيط هذه الارض فمن غالبها من ذوي التيجان فقد
غلب على امره وهوى من عمل . وان تسأل من له اليد البيضاء في اعزاز هذه
الديموقراطية المباركة اجبتك جمهورية قدماء اليونان وقنصلية الرومان اللتان وان باتتا في
خدمة التاريخ الا انها لم تبرحا مثالين صادقين واستاذين كريمين لأمم أوروبا . فهبت

ثورة الانكليز اولا في طلب الديمقراطية وعقبها ثورة الفرنسيين عام ١٧٨٩ وكانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . ثم ان سنة الانصاف لتدعونا ايضاً ان نذكر للولايات المتحدة الاميركانية بدءاً جميلة على الديمقراطية في هذا العصر ، وحق لفرنسا نصيب من هذا الشكر لانها نصرت الاميركان في حرب الاستقلال وبعثت اليهم قوادحها الذين قادوها مع واشنطن للنصر والاستقلال .

امين الريحاني

١٨٧٦ - ١٩٤٠

الثورة الافرنسية : لو قصد المؤرخ ان يطالع كل ما كتب عن الثورة الافرنسية في اللغتين الافرنسية والانكليزية فقط اصرف زمانه كله في المطالعة . بل انه يموت دون ان يتم هذا العمل الخطير غير المفيد . وقد انقم مؤرخو الثورة الى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحيز وتحيز ومنهم من ألحق بكل حادثة نتفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فنسد بحزب ونصر آخر وكان اما ملكياً او جمهورياً .

اما كارليل الكاتب الانكليزي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الافرنسية » فهو لا يطري الجمهوريين كهوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتعامل على الملكية بانتقاده اكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل اراد في تاريخه هذا ان يكون خالي الغرض غير متحيز لحزب من الاحزاب ، ولكن نيته هذه الحميدة اوقعت في الفتور الذي لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والشك . ومن كلف نفسه قراءة شيء من تأليف كارليل العديدة بيان له بعد قليل من التفكير ان الرجل عصبي المزاج اسير السويداء والتخمة ، وقد كان مصاباً بداء آخر اهم من الاثنين

لا فائدة من ذكره في هذا الصدد ، وان نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً في كتاباته في شكل من التهكم فظيع ، والكتاب الذي نحن بصدده الآن مفعم بثقل هذا الازدراء والسخرية . ومعلوم عند الناقدين ان هذا الاسلوب لا يليق في سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لا يستطيع القارى فهمها دون ان يجردها من ثوبها المزخرف الكثير الالوان . ليس من العدل اذاً ان يدعى هذا التأليف تاريخياً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأي في الحوادث التي يسبرها ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التي تروقنا في بقية مؤلفاته وترعجنا في كتاب دعاه تاريخياً .

كتاب يفتقر الى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات الى طبقة العقليات . ولا نقدر ان ندعو الكتاب رواية لان فصوله غير متصلة بعضها ببعض اذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب اذاً مجموع مقالات متفرقة في حوادث الثورة الافرنسية ورجالها مسطرة على قرطاس الفتور والشك ببراعة التهكم والازدراء . ولا رأي خصوصي له في تلك الحوادث واولئك الزعماء سوى انه ينصر قارة الكل وطوراً يقاوم الكل ، وهذه هي المزية التي خدعت الناقدين في زمن كارليل فانزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ في الوقت الذي يجب ان يعد في كتب الخلقيات والوصف . كيف لا ومزاج المؤلف العصبي ظاهر في كل صفحة من الكتاب ، فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة في هذه الفتنة الهائلة بمقتضى هذا المزاج المركب من السويداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم في بض الاحايين اذ اننا نعتقد بصلاحيه هذا الاسلوب ونعده من الظرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بها الكاتب كل سخي فقيم . اما تهكم كارليل فحاد اذا خف وفظ اذا اشتد . وبينما نحن نطالع هذا الكتاب لم نتألم ان اعدنا الفكرة الى ما كنا نطالعه من نفثات فواتر فاننا نرى بين مؤلفين نابغتين الواحد منهما لاتيني والآخر سكسوني شهماً عظيماً من حيث اسلوب الكتابة السخري الذي استخدماه في مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن اين تهكم الانكليزي الكالح الجاف من تهكم الافرنسي الواضح المنير ، فهذا شبيه

بهر كان وذلك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذلك يدخل جسم الفساد واخرافة فيضعفه ويلاشيه تدريجاً . فضلاً عن ان تهكم كارليل خال من الذكاء الذي يزين تهكم فولتر . كان كارليل يردد اذا غضب ويمطر واما فولتر فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء الى غايته المطلوبة .

لنعد الآن الى الكتاب الذي نحن بصدده . اراد المؤلف ألا يتحيز في تاريخه وان يكون مع الحق ايها وجد سواء . كان في جانب زعماء الثورة او حول عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته هذه ادت به الى القصور وعدم الاكتراث . والحق يقال ان من لا يكثر حادثة ما لا يستطيع ان يكتب عنها بدقة واصابة واخلاص . وكارليل يبحث عن اكبر حادثة في العالم كما تبحث صحف الاخبار عن جريمة بيتية او حادثة خصوصية يزول اثرها بعد ان يقرأ خبرها . فهو ابدأ يفتش عن الحوادث الطفيفة التي كان الاخرى بها ان تدون في الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية فظيعة يسأم هو منها في النهاية ويرفع يديه الى السماء صارخاً : « اممكن ان تخلق ربي مثل هذا الشعب ؟ »

وهل دعوة الافرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بذاتها نهضة فاسدة مضللة ؟ وكيف يتخلص الكاتب القاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة او نصروها وبعض بنينهم واحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها . فلو كانت فاسدة على الاطلاق لامحت آثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قالوا بعدم الاكتراث في بعض المسائل الدينية التي لا تولد الا السقاع والشقاق ، ولكن الوقت لم يحن لنبذ الحماسة السياسية والغيرة القومية ، فالمرء الذي لا يكثرث لامور حكومته بعد خاملاً ، والكاتب الذي لا يجد خيراً في اي نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

ان الحقيقة التي انفصلها عن اخواتها - عن اسبابها ونتائجها - وندونها معتلة مستتلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الاصلية التي ينبغي ان تظل نصب عينيه . اما الثورة في رأي كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هي فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة . هي ضربة من ضربات الله . هي مصيبة من مصائب الزمان . هي بنت الاتفاق

الذي نشأت عنه وماتت فيه . هي حادثة معتزلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . ان عدداً من الناس ينتسبون الى بلاد تدعى فرنسا قاموا في وقت من الزمن فهاجوا وهاجوا وحدث بينهم شغب عظيم وقتل من اجل قوانين ونظمات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الاساسي . ومن ثم اهلك بعضهم بعضا وختموا القانون بدمائهم وعادت الاشياء الى عالم النسيان ، الى ظلمات الزوال . هذا كل ما يراه كارليل في الثورة الفرنسية ، فهو لا يكلف نفسه النظر في البواث التي من اجلها سفكت دماء الالوف من الناس . ومع ذلك هو يحاول اظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الكاتب ان يحكم على احوال امة في عصر لم يكن هو منه بعد ان اهمل التنقيب في تاريخ الامة الماضي وفي اخلاق الشعب واحواله السياسية والزراعية والتجارية .

قد اوجب الاقدمون على المؤرخين ابداء الحكم في كل قضية يدونونها واقاموهم مقام القضاة . وبعد ان يدون المؤرخ الحوادث بدقة واخلاص يحص الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من ذلك نتيجة تسوغ له وضع قاعدة ادبية فيها نور وهدى للاجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب في تدوين الحوادث غير انه اغفل امراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسي الذي نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملاً واحداً يستحق الشكر اذا ذكر ولكن حادثة واحدة فظيعة لا تقدر في نهضة عمومية خطيرة وان تعددت هذه الحوادث المرعبة فالنظر اليها والى اسبابها الاولى معاً لامر واجب على المؤرخ .

ان صلب المسيح بالنظر الى مصلحة الشعب الاسرائيلي عادل في الظاهر وبالنسبة الى البشرية هو جائر فظيع ، اما الحادث هذا وحده فلا معنى له ولا اهمية . وان من يقرأ سجلات الحكومة الفرنسية ومعلومات السياسيين والكتّاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك في التعنيف والتنديد بما يدعى « دور الهول » اذا اغفل الغاية الرئيسية التي بسببها ومن اجلها تأسس .

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المراس حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ، ولذلك لا نرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورثاء . قلت مجموعة قصائد لان في اسلوب

نثره جمال الشعر وزخرفته فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المهزومين . يرفع اليوم قوس نصر للقوة المادية ويبني في الغد مذبحاً للشفقة والحنان . وبين هذه المتناقضات يصبح القارىء حائراً تأثراً . كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ أكثر مما يتوقعه من الشاعر . يزيد ان نعرف كيف تخنض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف نندب هذا الشقاء ونزثيه .

ان في حياة الاجيال الماضية امثولة للاجيال الحاضرة والمقبلة ، والمؤرخ الذي لا يظهر هذه الامثولة فيأبى عنها في وصف البؤس والشقاء لا يخفف شقاناً ولا يعلمنا شيئاً . ان في اعمالنا اليوم امثولة ثمينة لابناء الغد هي الكثرة الوحيدة الدائمة الذي يرثه عنا الخلف بواسطة التاريخ . ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكثرة الثمين بعد الوقوف عليه ، واذا كان ضائعاً بين انقراض الثورات والحروب او مختفياً في بحار الازهار والتعصب فعمله ان يفتش عنه بصبر وعناء وينيره في الناس مصباح هدى وسلام .

ان الحلقة التي تصل الماضي بالمستقبل هي حلقة الترقى الدائم مما كان الى ما سيكون ، والحوادث التي تتخللها هي حلقات بعضها يشترك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليل ، والمؤرخ الذي يكمل سلسلة الترقى او بالحري يزيد في توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية . ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة ، حياة روحية دائمة يتصل آخرها بالاولا^(١) ، بل هو شديد الاعتقاد بالتفرد والافراد وقد قال راراً ان تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس . على ان الفرد اذا هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم اذا هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال ، هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقى الدائم الازلي بل هو صنعة هذا الناموس وخادمه ، الخاضع علم ذلك او جهله . فلو ولد نابليون في بلاد الصين مثلاً وعاش فيها لما كنا نعرفه الان . ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصان فرنسا على المجد الذي اكسبها اياه ؟ اجيب بالايجاب اذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعطني شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقى الدائم الذي يقضي بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه .

(١) الكتاب الاول الفصل الثاني والكتاب الثالث الفصل الثاني من تاريخ الثورة .

ان القنوط والشك واليأس والفتور كلها طبائع تظهر في كل صفحة من هذا التاريخ وفي اسلوب انشائه الجميل الفخيم . وقد قلت ان كارليل هو اشبه بالشاعر مما هو بالمؤرخ ، والشاعر لا يكون استاذاً في الاقتصاد السياسي ولا فيلسوفاً في العمران ، فهو اذا قرأ سجلات الحكومة الفرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يشور ثأره الشعري فيحصل فيه انفجار اشبه بالبركان ويدهمنا بحمم تحرق ولا تنير ، فتسود منها آفاق البصيرة وتظهر اشباح ابطال الثورة التي يصفها وهي تنهادر في الظلمة غير المتناهية . ولكن ما هي غاية هذه الاشباح وما هو غرضها ولماذا اشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين ؟ ألا أنها كانت تندب وتنوح عبثاً وتقاتل وتحارب باطلاً وتصبح وتنادي دون غاية ودون مرمى ؟ ماذا فعلت هذه الاشباح ؟ اكلمها الزمان فتلاشت من ذاكرة الانسان . بلعتها الظلمات فامحت من لوح الحياة . هذا جواب كارليل وزبدة فلسفته المختبئة في اكلم الفصاحة واشواك البيان . وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه ان يدعى تاريخياً ، وانما هو ملحق تصويري لتاريخ الثورة الفرنسية وان فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة . صور تساعدنا على الدخول الى تاريخ الثورة الجدي ولكن لا تنبئنا به كثيراً ، فهي من هذا القبيل اشبه بالصور التي تزين بها الروايات التاريخية تحملنا الى بعض ما يقصده الكتاب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها .

ومن جهة فلسفية يمكننا ان نقول ان المؤرخين اثنان : الاول يعتقد بالنشوء والارتقاء الاجتماعي بالترقي الدائم بالصعود المستمر . والثاني لا يعتقد بشي . من هذا . فلسفة ذاك في العمران شبيهة بخط مستقيم عمودي وفلسفة هذا بالدائرة صعود . البشر في رأي الاول دائم مستمر وفي رأي الثاني محدود تصل الشعوب فيه الى نقطة لا يستطيعون ان يتجاوزوها فيهبطون عائدين الى الهوة التي خرجوا منها . وهم في هذا يشبهون الحية التي تأكل ذنبها . ومثل هذا المؤرخ الذي لا يكثر بالاشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر الى ما وراء الحوادث مجرد على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير . ومثال ذلك ان كارليل يشغل فكرته وقرينته غالباً بطيف الحوادث وتافهها شأن القصصي او الكاتب الاخلاقي ^(٢) فضلاً عن انه لا يعتقد

(٣) الكتاب الاول الفصل الثاني من تاريخ الثورة .

في تاريخه هذا بغير الزوال الدائم :

كل بيت للهدم ما قبطني الورقا . والسيد الوفيع المراد
واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مديده للفساد
والمؤرخ الدهري يختلف عن الفيلسوف الدهري في ان هذا يعتقد على الاقل بأزلية
المادة وخلودها وذلك لا يعتقد بخلود شيء . انما حياة الاشياء والمخلوقات الى اجل
مسمى . بل هي خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . في مثل هذه الاقوال
يبرهن كارليل على ان الثورة الافرنسية لا تؤثر ابداً في تزيين الشعوب والعمران ولن
تؤثر حتى في احوال اوروبا السياسية والاجتماعية .

وفي الفصل الثاني من الكتاب الاول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية
الدهرية ، ومن يقرأه مفكراً تنجلي له النتائج التي استخلصها منه وهي ان تعظيم
الصغار يلزم . متى كان النافع في فقايعها كاتب عظيم ككارليل ، ولكن الحفول في
الصغار يبعدنا عن الجوهر الحقيقي . وان الفكر الروحي الداخلي زائل لا اذلي هو
ولا خالد بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان او فلسفاً . وان النهضات
الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقاً لا بعد ان تنضج في خفايا الزمان . وان الفلاسفة
مخطئون على الاطلاق في مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفي بقية الفصول
دليل واضح على كل هذا . وفي ما كتبه عن ميرابو بالاخص وعن ليلة رابع آب
دليل انصع واوضح . ومعلوم ان مجلس النواب النقي في تلك الليلة الشهيرة في مدة ساعتين
من الزمن نصف شرائع الحكومة القديمة وقوانينها . واذا اراد القارى ان يطلع على
مثال جلي من تهكمه اللفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التي يصف فيها
فرار الملك والمخالفة الوطنية في شأن ديار والمشاعب التي نجمت عن قلة الخطاة
واحتكارها . وكل مرة ردد في كتابه عن مجلس الامة الذي نشل فرنسا من الهوة
التي كادت تبتلعها قوله ان « قد اجتمع اعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الافعال الشاذة »
قد لا يحترم كارليل الا القوة المادية وكثيراً ما يكبر نزوات الانسان واهواءه . ويجدها .
فهو لا يرى في نهضة الافرنسيس على ارباب الظلم والظلام سوى معدة فارغة وخمسة
وعشرين مليوناً من الاسنة الملتبهة حماساً المتتوية جنوناً في عالم من الفساد مضطرب

مدلهم . فالخبز في مذهب كارليل هو سبب الثورة ونتيجتها ، هو الاول وهو الآخر .
واما المؤرخ الذي يعتد بالصعود المتواصل بالتقدم الدائم فهو لا شك يرى ان ليس
بالخبز فقط يحيا الانسان .

ان بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقي في حياتنا الاجتماعية علاقة خفية
تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تتجلى دقائق الحكمة فيها الا لمن خستهم الطبيعة
بشيء من البصيرة والذكا . وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الاشياء انعكاساً
تاماً جلياً صحيحاً . ولا شك ان بين ما هو كائن في تصوراتنا وما هو حادث في
حياتنا فرناً ظاهراً ومع ذلك فان هذا الا انعكاس ضعيف مختلف لذلك . كأن العقل
البشري اليوم اشبه بمرآة مكسرة لا تنعكس فيها الاشياء كما ينبغي . والا يجوز لنا
مع ذلك ان نمنع في الحوادث روح الكمالات النفسية فتبقى مدفونة فيها الى ان
ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد الوفاة من السنين بظهر من الحياة سامر نقي جميل . « الا
نستطيع ان نزرع القليل مما هو كائن في تصوراتنا بما هو كائن حادث في حياتنا ؟ الا
نستطيع بكلمة اوضح ان نزرع فيها نقص وفسد من الاعمال بذور ما تعالى من الآمال
لتنبت وتنور ولو في جيل بعيد بل آت من الاجيال ؟ »

هذه سؤالات يضحك منها كارليل الساخر بآمال الناس المستخف بتشوقات الروح
الكمالية . فهو لا يمنحنا شيئاً ولا يدعونا الى شيء . ولا يؤمننا بشيء . القوة الحيوية
المادية التي تظهر في عظام الرجال وابطال التاريخ انا هذه في مذهبه كل شيء .

انا آكلك وآخر يأكلني . برافو ! والاخير من البشر فريسة من يكون ؟
ولا نظن ان المؤاف حاول ان يضع تعالماً جديداً في الثورة الافرنسية ، فالمؤرخون
كما سبق القول ينصرون الثورة او يقاومونها ، اما كارليل فشاء ان ينصرها ويقاومها
معاً . ولكن هي التخصة وعرض بل مرض آخر وأدا فيه السويداء فاصيب بالفقر
والشك واصبح لا معها ولا عليها . ولا نظنه ولو شاء . يستطيع ان يؤسس حزباً ثالثاً
غير متحيز لانه في كل ما كتبه عن الثورة لم يبد قط رأياً وضعياً ثابتاً يتخذه الحزب
دستوراً لاعماله بل كان كبرشة في مهب الريح طوع تأثراته واسير وساوسه .
هل الملكية لازمة نافعة للناس ؟ كلا ، انها مبنية على اساس فاسد . هل الجمهورية

اصلح منها؟ كلا ، فهي قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث الملايين من العباد .
 علينا اذاً بالفوضى ، هذي هي نتيجة فلسفة غير المتحيزين من المؤرخين .
 وقد علمنا التاريخ حقيقة نود لو لم تكن وهي ان من اراد تأسيس حزب او
 وضع تعليم او انشاء ديانة ينبغي له ان ينظر الى وجه واحد من المسألة فقط .
 اذا شاء ان يكون صريحاً في رأيه حازماً في قوله ثابتاً في عقيدته ، وبكلمة اخرى اذا
 شاء ان يكون مؤسساً لحزب او تعليم او دين ما عليه ان يكون متحزباً متعصباً
 مأخوذاً بدعوته مها كانت . عليه ان يكون اعمى اصم في ما سوى ذلك . فالنفي
 والشك والتردد وعدم الاكتراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك واحزاباً وديانات .
 وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد احب الا يكون متعصباً لا مع الثورة
 ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصي لا يضر بالحقيقة الجهورية ولا ينمها وقد يلذ
 لمن تنوق نفسه الى الجديد من الاشياء والآراء . وبنا انه ترسع في الصفائر والتوافه
 التي تتعلق في الثورة ولذ له سردها بل نظمها في نثره الفخيم فهو اشبه بنور تضععت
 اشعته المرسلة في كل الجهات ولم تتعدها الى ما وراها من الجوهريات . وانه لو
 صوب نور مصباحه الى غرض واحد في جهة واحدة لارانا في الزوايا شيئاً من الحقيقة
 الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لفاز بوضع تعليم جديد او تأسيس حزب ثالث ينظر
 في شؤون الثورة نظر الغريب عن هذه الارض وبقيس منافعها واضرارها بغير مقاييس
 هذا العالم .

اما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار
 من نارها المحرقة المنيرة فهذه ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا افترقها . فالطفل يولد في
 الالم والعذاب والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب . الأم تتألم ساعة الولادة
 وكذلك الامة . يموت الانسان والعذاب ملازمه ويولد الطفل والالم حليفه . وكذلك
 الحكومات بانواعها والامم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام .
 ولا بأس في احتام من قصة صغيرة اوردها فقد ذكرتني بها مطالعة هذا الكتاب
 الذي اود ان يطالعه كل من يحسن اللغة الانكليزية من قرائي . ورب قائل : ولم
 تدعونا الى مطالعته بعد ان تحققت فسادة وبان ذاك الضرر الذي ينجم عن اقتباس

الافكار التي جاءت فيه ؟ اريد ان يقرأه كل من كلف نفسه قراءة هذا البحث
ليستطيع ان يقابل بين الاثنين . لا اريد ان يرتأي احد رأني دون ان يشغل قليلا
فكره . لنعد الآن الى القصة .

اراد احد الملوك الاقدمين المولعين بالعلم ان يطالع على تاريخ الامم فطلب احد
وزرائه وامره بتأليف او جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ثم عاد الى الملك
ومعه عدد من الجمل محملة كتباً ، فوقف امام ملكه وقال : « ها هو التاريخ الذي
تطلبه . » ولكن الملك وقد هالته احوال الجمل امر الوزير ان يختصر التاريخ فغاب
هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التاريخ المختصر . اما الملك
فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فأمر الوزير ان يختصر ايضاً فغاب الوزير للمرة
الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال : « آه ثم اواه !
ساموت قبل ان اطلع على تاريخ الامم . » فأجابه الوزير معزياً : « لا تقل ذلك يا مولاي
فقد احضرت لك مجموعة صغيرة تبتك عن كل اعالمهم باختصار غريب وها هي . » ثم
اخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هالك يا ملك الزمان تاريخ
شعوب الارض مختصراً : فانهم تنفسوا فتنافسوا ففرقوا فماتوا . »

وتاريخ كارليل المقسوم الى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم الى فصول لم يفدنا
عن الثورة الفرنسية اكثر مما افاد الوزير مليكه عن تاريخ شعوب الارض ، فالكلمات
الاربع التي تولى تاريخ الوزير تكفي لتأليف مثل هذا التاريخ دون ان يفوتنا منه
شيء كثير . ولو شاء كارليل ان يختصر لقال مع الوزير عن الافرنسيين : قد تنفسوا
فتنافسوا ففرقوا فماتوا . ولكن في الامة الافرنسية ما لا يموت ، في الامة الافرنسية
من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقى الامم والناس . —
(مغالة في انتقاد تاريخ الثورة الفرنسية تأليف توماس كارليل ، « الرمانيات » جزء ١) .

تاريخ الامم : تأليف كارليل ، الجزء الاول ، دار النشر : دار النشر ، القاهرة ، ١٩٠٠ .
تاريخ الامم : تأليف كارليل ، الجزء الثاني ، دار النشر : دار النشر ، القاهرة ، ١٩٠٠ .
تاريخ الامم : تأليف كارليل ، الجزء الثالث ، دار النشر : دار النشر ، القاهرة ، ١٩٠٠ .

الشيخ رشيد رضا

١٨٦٥ - ١٩٣٥

جمع بين القديم والجديد في الفكر والعمل السياسي : ان التطورات الاجتماعية كانت تقضي بوقوع ما وقع من التصرف في شكل الحكومة الاسلامية ، ولم يكن يمكن في تلك الازمنة ان يوضع لها نظام يكفل ان تجري على سنة الراشدين ، ولا طريقة اوائل الامويين والعباسيين ، في الجمع بين عظمة الدنيا ومصالح الدين . ولما صار هذا ممكناً كان امر الدين قد ضعف ، وتلاه في جميع الشعوب الاسلامية ضعف حكوماتها ، وضعف حضارتها ، فلم تهتد الى مثل ما اهتدى اليه الافرنج من القضاء على استبداد ملوكهم شعباً بعد شعب ، فمنهم من قضى على الحكومة الملكية قضاء مبرماً ، ومنهم من قيد سلطة الملوك فلم يدع لهم من الملك الا بعض المظاهر الفخمة التي يستفاد منها في بعض الاحوال ، دون ان يكون لهم من الامر والنهي في الحكومة ادنى استبداد .

ذلك بان كل من يعطى تصرفاً في امر يجب ان يكون مسؤولاً عن سيرته فيه ، والتقاليد المتبعة في الملك ان الملك فوق الرعية فلا يتناولون الى مقامه الاعلى ليسألوه عما فعل ، وهذا شيء ابطله الاسلام بجعله امام المسلمين كواحد منهم في جميع احكام الشريعة ، ونص على انه مسؤول عما يفعل بقوله (ص) : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في اهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته « الخ (متفق عليه من حديث ابن عمر) . وكان المسلمون يراجعون الخلفاء الراشدين ويردون عليهم اقوالهم وآراءهم فيرجعون الى الصواب اذا ظهر لهم انهم كانوا مخطئين ، حتى ان عمر بن الخطاب (رض) خطأته امرأة في مسألة فقال على المنبر : امرأة اصاب وأخطأ عمر - او - ورجل أخطأ .

غفل المسلمون عن هذا فتركوا الخلافة لاهل العصبية يتصرفون فيها تصرف الملوك

الوارثين الذين كانوا يزعمون ان الله فضاهم على سائر البشر لذواتهم وليوتهم واوجب طاعتهم والخضوع لهم في كل شي . ، فلم يوجد في اهل الحل والعقد من الرؤساء من اهتدى الى وضع نظام شرعي للخلافة بالمعنى الذي يسمى في هذا العصر بالقانون الاساسي يقيدون به سلطة الخليفة بنصوص الشرع ، ومشاورتهم في الامر ، كما وضعوا الكتب الطوال الاحكام التي يجب العمل بها في السياسة والادارة والجبسية والقضاء والحرب ، ولو وضعوا كتابا في ذلك معززا بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الراشدين ، ومنعوا فيه ولاية العهد للوارثين ، وقيدوا اختيار الخليفة بالشورى ، وبينوا ان السلطة للامة يقوم بها اهل الحل والعقد منها ، وجعلوا ذلك اصولا متبعة ، لما وقعنا فيما وقعنا فيه . فاما الراشدون رضي الله عنهم فقد كانوا واثقين بتحريمهم للحق والعدل ويصرحون بسلطة الامة عليهم وهم واقفون في موقف الرسول (ص) من منبره كما قال ابو بكر : وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استعمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني . وكما قال عمر : من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه . وكما قال عثمان : امرى لامركم تبع . وأفوال علي وأعماله بالشورى معروفة على اضطراب الامر وظهور الفتن في زمنه ، وموت كثير من كهراء اهل العلم وتفرق بعضهم ، ثم انهم لم يكونوا قد دخلوا في عهد التصنيف ووضع النظم والقوانين ، ولا شعروا بشدة الحاجة الى ذلك لكثرة الصلاح وخضوع الامة لوازع الدين .

وما جاء عصر التأليف والتدوين الا وكانت الخلافة قد انقلبت الى طبيعة الملك بالبدعتين الكبيرتين اللتين ابتدعهما معاوية ، وهما جعل الامر تابعاً لقوة العصبية ، وجعل الخلافة تراثاً ينتقل من المالك الى ولده او غيره من عصبته ، وشغل الناس عن سواه هاتين البدعتين سكون الفتنة التي اثارها السبثيون والمجوس وافترصها الامويون ، وما تلاه من اجتماع الكلمة وحقن الدماء في الداخل ، والعود الى الفتوح ونشر هداية الاسلام وسيادته في الخارج ، وذلك ان تأثير الفساد الذي يطرأ على الصلاح العظيم ، لا يظهر الا بتدرج بطي .

هذا ، وان ما فات المسلمين في القرون الوسطى لا ينبغي ان يفوتهم في هذا

العصر الذي عرف البشر فيه من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ومن فوائد النظام واحكامه ما لم يكونوا يعرفون .

وكان اجدر المسلمين بالسبق الى هذا رجال الدولة العثمانية ، ولا سيما الذين يقيمون في الاستانة والرومي من بلاد اوربة ، يشاهدون تطور شعوبها وترقيهم في العلوم والفنون والنظام ، ولكن دولتهم لم تكن دولة علوم وفنون ، لانه لم يكن لهم لغة علمية مدونة قابلة لذلك الا في اثناء القرن الماضي . ولم يكن يتعلم علوم الاسلام منهم الا قليل من المقلدين ، ولهذا جعلوا سلطة سلاطينهم شخصية مطلقة ، حتى بعد تحليتهم بقلب الخلافة ، فلما صاروا يدرسون تاريخ اوربة وقوانينها ، وثوراتها على حكوماتها لازالة استبدادها ، ظنوا ان لا سبيل لتقييد استبدادهم ومنع ظلمهم الا بتقليد اوربة في شكل حكوماتها ، الملكية المقيدة ، ثم رجحوا في هذا الزمن الجمهورية لانهم رأوا ان جعل الساطان مقدسا غير مسؤول كما قرروه في قانونهم الاساسي لم يف بافرض . ولو درسوا الشريعة دراسة استقلالية كما يدرسون القوانين لوجدوا فيها مخرجا اوسع وافضل من القانون الاساسي السابق ، ومن الخلافة الروحية وحكومة الجمعية الوطنية الحاضرة . . . - (من كتاب الخلافة او الامامة العظمى) .

مُصطفى لطفى المنفلوطي

١٨٧٦ - ١٩٢٤

هنا أم عزرا : فارق مصر على اثر اعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين ، بعدما عمروا هذه البلاد بنضائهم ومآثرهم وصيروها جنسة زاخرة بالعلوم والآداب ، ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعدها كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية ، يأخذون من كمال

الأولى ليتمسوا ما نقص من الأخرى ، وبعدما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجهد في سبيل العيش ، وكيف يشب ويتجدد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فني . اليهم ، ويعطفون علينا فسميهم ترة دخلا . وأخرى ثقلا ، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شذاذ الآفاق أو نفايات الأمم ، جاؤوا إلينا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم ، وعرفنا ان أكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، ولما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع احرار النفوس وأباة الضيم ، فاحرجت صدرهم ، وضيق عليهم مذهبهم ، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما أحسنا ضيافتهم وشكرنا لهم نعمتهم .

وبعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، واصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم باضيهم ، فلا نعلم أنشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم ، وردهم الى أوطانهم ، أم ننقم منه انه كان سبباً في حرماننا منهم بعد أنسنا بهم ، واغتيالنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هنا . أم في عزاء ؟

فيا ايها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحنا

واذكرونا صبا اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدح

والله اعلم بالصواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

والذين هم خير خلق الله

والذين هم خير خلق الله

والذين هم خير خلق الله

والذين هم خير خلق الله

جبران خليل جبران

١٨٨٣ - ١٩٣١

طالع البعث الجديد: كتبت الفيكونتس « سيسيليا اف لوتنبيرغ » رسالة الى جبران خليل جبران ، سنة ١٩١٠ ، وهي من النساء الشهيرات في عالم الادب الاوروي ومن المستشرقين الذين يحبون سوريا والسوريين ، ولها كتابات جميلة عن الاراضي المقدسة وبلاد فارس ومصر وشبه جزيرة العرب ، فأجبتها جبران بالرسالة التالية :

سيدتي الفيكونتس ،

جا في كتابك الذي تكرمتم بارساله الي :

« انا احب سوريا لانها جميلة ولجمالها خاصة معنوية تنبه في نفسي عواطف غريبة سحرية وتذكريات بعيدة لطيفة . واحب السوريين لانهم اذكياء . وتعلم . لكنني اكره هذه الطبقة لانها تركت محاسن التمدن الشرقي القديم ومالت الى المكروه من المدنية الغربية الحديثة . فهي الآن بغير لون تتميز به عن طبقات البشر . »

هذه حقيقة جارحة يا سيدتي يسمعها المحافظون من الشرقيين فيحنون رقابهم متأسفين ويعيبها المصريون بينهم فيبتسمون . وبين اوجاع ذلك الاسف وسخرية هذا الابتسام تقف سوريا الان موقف حائر ضائع في ملتقى السبل . اما انا فلا اتأسف جزعاً عندما ارى رقعة جديدة قدرة في ثوب سوريا القديم . ولا ابتسم فرحاً عندما اجد جسداً جديداً لروح عتيقة . انا انظر الى سوريا نظرة الابن الشفوق الى امه المريضة بعائتين هائلتين ، علة التقليد وعلة التقاليد . التقاليد يا سيدتي تجعل المرء كالاعمى السائر في نور النهار . والتقليد يجعله كالبصير السائر في ظلمة الليل . وما الفرق بين الرجلين سوى ان نفس الاول « تحيط » بالظلام ونفس الثاني « محاطة » بالظلام .

ان المحافظين في سوريا هم رؤساء الاديان ووجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة . فرؤساء الاديان يحافظون على التقاليد لا حباً بجمالها وبساطتها بل لانهم يجدون بالحفاظ عليها بقاء سلطتهم . اما وجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة فهم كرصائفهم في كل بلاد

يميلون بالطبع الى تأييد نفوذهم بمصارعهم كل روح جديدة نجي . سوريا من المغرب .
ولا لوم عليهم لان الارواح الجديدة التي يرونها مرفرفة في فضاء بلادهم تستبيح حرمة
الآداب الشرقية بغالبتها اخراقات وتمزق نقاب « المجد » عن وجه سوريا بتخزيقها اثواب
العبادة عن جسدها .

اما المصريون الذين تخرجوا في مدارس الافرنج او الذين هاجروا الى العالم الجديد
فاكثرهم كالثار في حديقة العالم الادنى ذات منظر بهيج لكنها ملوثة بالدخان غير انهم
اقل ضرراً من المحافظين لان تأثرهم اوهى ، وظلمهم اقصر ، ومطامعهم اقل . لكن سيدتي
تعلم ان في سوريا طبقة ثالثة اوسع فكراً من المحافظين واكثر حكمة من المصريين
المقلدين . وهؤلاء هم الذين نبذوا سلطة رؤساء الاديان حياً بحال الدين نفسه . ونفروا
من الانقياد الى ابناء الشرف الموروثة احتراماً لشرف النفس . وابتعدوا عن تقليد
عوائد الافرنج القبيحة توصلوا الى معارفهم وآدابهم المستحبة . ولا ادعو هذه الطبقة
بالمعتدلة لانها لا تريد ان توفق بين فضائل عبيد التقاليد ومحاسن ابناء التقليد لعلها بان
الورد لا يجنى من القطرب والحمر لا يعصر من الاشواك . ولا ادعوها بالمساهلة لانها
لا ترفق بالمستسلمين الى خرافات الشرق ، ولا تشفق على المنغمسين برذائل الغرب
لادراكها جهالة هؤلاء . وانحطاط اولئك . بل هي طبقة مستقلة باخلاقيها ومداركها
ومزاياها شرقية بامياها واهوائها . تتكلم العربية في مجتمعاتها لانها تحسن اللغة العربية .
وتتعمق في درس اللغتين الافرنسية والانكليزية لا حياً بالروايات السافلة والقصص القذرة
التي تنذفها جوانب باريس ولندن ، بل شغفاً بآداب فرنسا العالية وعلوم انكلترا
النبيلة . فهي لا تعرف شيئاً عن مؤاني نوادر العشاق وحكايات المتهتكين في اوروبا .
لكنها تعرف كل شيء عن شكسبير وغوت ودانتي وبلزاك . وهي لا تلتفت الى ما
تذيعه الصحف عن غرائب التمدن الحديث التي اوجدتها داروين وكنت ونييتشه ورنان .
هذه هي الطبقة التي تمتاز بها سوريا عن البلاد الشرقية وهؤلاء الرجال الذين احدثوا
النهضة الادبية في مصر والشام . هؤلاء هم الذين اوجدوا في نفوس الشرقيين استعداداً
لقبول الحكم النيابي .

ان الامم كالشجر تنبت وتنمو وتتعالى ثم تبلغ مبلغها فتعطي ثماراً جيدة ووردينة .

ثم تمر عليها السنون فتشيع وتجنف جذوعها وفروعها . ثم تمر بها العواصف فتنيخها الى الحضيض وتكفنها باوراق الخريف وثلوج الشتاء . وسوريا كرمة ، قد نمت قدماً امام وجه الشمس واعطت عنبا لذيذاً تمجدت بطعمه الآلهة ، وخرأ سحرها شربت منه الانسانية فسكرت ولم تصح بعد من نشوتها . واليوم بعد ان داست اقدام ابن السبيل جذوع تلك الكرمة واتلف اللصوص سياجها يمر عبر الطريق فيجدها قد اورقت ثانياً واهتزت قضبانها مرتعشة برور نسيمات الفجر . . . تلك معجزة لم يأت التاريخ بمثالها ، ولا يستعظمها سوى من عرف مآتي الاجيال التي مرت بين ايام نبوخذ نصر وعهد عبد الحميد !

وجوب الثورة : من يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء .

كتاب محكم منجت باشا

الحرية مفتاح كل شيء : وقد يتعجب بعض الناس من احتياج رعايا الدولة العثمانية الى جلب كل شيء من الخارج ، مع وجود الاراضي المنتبة الواسعة في حوزة الدولة في قطعتي آسيا واوروبا . وطالما تذاكر العقلا اكثر من مرة في هذه المسألة وقرروا ان السبب في ذلك هو سوء ادارة الحكومة ، فان الامن مسلوب في طول البلاد وعرضها والاراضي خالية من السكان . وقد اتى الظلم جرائه في كل بقعة من البلاد واذا اراد احد الزراع استثمار قطعة من الارض اثقلت الحكومة ظميره بالضرائب . وقد يقول بعض الناس ان خراب المزارع ناتج عن جهل الامة فنحيبه بان ابنا البلاد يهجرونها طلباً للحرية ، ويقصدون الاقطار النائية ويعملون اعمالاً تدل على اجتهادهم ونشاطهم . وسيقول بعضهم : ان السلطان قد امر باعمار البلاد فهو

بري. من كل ما يعزوه اليه اعداؤه وان الذنب كل الذنب على الوزراء . وهناك قسم ثالث يقول : ان الحكومة يجب عليها نشر الصنائع وتأسيس المعامل لافادة الشعب ، فنجيب هذا القسم بان الحكومات في اوروبا لا تنشئ المعامل ولكن الشعب يؤسس الشركات وينشئ المصانع اذا تمتع بانواع الحرية ووضع مجلس نوابه قوانين تحوله استعمال حقوقه الطبيعية واستخراج ثروة بلاده ، وهذا لا يتم الا اذا تأسست في البلاد حكومة عادلة يكون معها الانسان آمناً على ماله وتجارته وعمله . ولم لا يشتغل سكان البلاد العثمانية بتأسيس المعامل وتأسيس الشركات مع وجود ارباب رؤوس الاموال من رعايا الحكومة المحلية ؟ ولاي سبب يتأخر رعايا الدولة العلية عن صناعة الاقشة مع وجود القطن بكثرة في بلادنا وانخفاض اجرة العمل في البلاد عن اجرة مثلهم في اوروبا ؟ ولم لا يشتغلون باعمال المصنوعات الجلدية والكاغد^١ مع وجود ما يلزم لاحضارهما في بلادنا ؟ انهم لا يتأخرون عن صنع ذلك وحده فهم لا يعملون ايضاً اللين والآجر والكبريت في هذه البلاد ولا يصنعون الطرايش التي فوق رؤوسنا فلم نحتاج الى اوروبا في جلب هذه البضائع ؟ لا يشكّن احد ان كل هذه الاسباب ناتجة عن عدم وجود الحرية والقوانين في بلادنا .

ان عندنا قوانين ومحاكم ومجالس وليست عندنا قوة لاجبار المجالس والمحاكم على اتباع القوانين الموضوعة . فالمحاكم تظلم الناس نهائياً جواراً وقد ثبت ان الشركات التي تتشكل في بلادنا لا يحميها احد فتذهب ارباحها ورؤوس اموالها ، والسبب الثاني هو ان البلاد محرومة من المعارف وليس الاهالي باحرار ليتعلموا ما تضطروهم اليه مرافق الحياة .

والسبب الثالث هو ان الدراهم لا توجد في بلادنا الا بفوائد فاحشة فليست عندنا بنوك تسهل للانسان الاقدام على اعمال نافعة فيستفيد ويفيد . وليست في البلاد قوانين تجبر البنوك والصارف على الاعتدال في معاملاتهم ، فمع كل هذه الموانع لا يتسنى لاي فرد تشويق الاهالي وحشهم على الاعمال النافعة ومن اقدم على ذلك كان كمن

يحاول تسيير سفينة بلا دبح ولا بخار .
وقول بعضهم ان الحكومة لا تعمل الاعمال التي تعود على الاهالي بالفوائد
مردود ، لان الحكومات تنشى الطرق الحديدية والمرافىء وتجمع الاموال من الاهالي
وتنشى المعامل وتديرها على حساب الشعب ، وهي اعمال غير نافعة للامم كما اثبتت
ذلك التجارب . وعليه فتكليف الحكومة باحداث المعامل وتسليمها للاهالي مردود
من كل الوجوه ولا سبيل الى عزو ذلك الى تقصير الوزراء واممال الحكومة .
والذي يجب على الحكومات ازاء الشعوب هو منحها الحرية التامة . - (عن كتاب
» محاكمة مدحت باشا » تعريب يوسف كمال حثانه) .

مَحَرَّدُ عَلِيٍّ

نَجْمَةُ بَارِبُرْ : سلام عليك مرزعة الحكمة ، وريضة الرخاء ، والنعمة ، وروح
الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحبيية المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية ،
ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين ، والضرب على ايدي الرؤساء والنبلاء
والمالكين ، انت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون بالالطف والذوق وفائدة العلم
والعمل ، انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بدل تأليهه ،
فقضيت بالتقدم له على كل شي . في الوجود وبالت في اكرام رجال العقول من
ابنائك ...

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان ، وملقحة الاذهان بالتناغي بحب الاوطان ،
والداعية الى تل عروش الجياديين والمخربين ، أنت لم ترهبك تقاليد ابطال القرون
الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها ، ولم تعلقي مسائلك على القضاء
والقدر ، بل اخذت بالاسباب والمسببات ، فقتلت من اراد قتلك ، ووضعت من لم
يهمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال ...

سلام عليك يا ملقنة اخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات ، بين المختلفين في الموالد والديانات ، وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجعة ...

السلام على هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيا مضى فعلته حتى استمد منها النور ، فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب اننا نأخذ عن المدنية الغربية فلما نعني المدنية الفرنسية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الارض ...

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمقارم ، ومنبعث الشهوات والاهواء ، ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ، ايام كان يقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة الف امرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بها يجمع قصره له ، او يدفعه لمحبوته صبرة واحدة ، فلما اضناك الظلم والغت قت تجعلين من تلك القصور الناشئة متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعلم ونور ...

سلام عليك يا بلد كونت وروسو وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك ، فلم تنس عوارفهم عليك بعد مماتهم ...

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الديني ، ومذبحة القديس برتلاوس ... وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احقاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور بما ينسب الماضي الا اقله ، ان الحسنات يذهبن السيئات ! - (عن كتاب « غرائب الغرب ») .

يوسف جرجس زخمه

كل سبي بنوقف على الشعب : الاصلاح جاء . ويحي . وسيجي . من طريقين ، اما من طريق الحكومة واما من طريق الشعب . ومثال الاول حكومة اليابان ومثال الثاني الجمهورية الفرنسية والجمهورية الاميركية . والانقلاب العثماني لم يأت من طريق الحكومة ولا من طريق الشعب من حيث مجموعه بل من طريق الجيش . اما والحكومة العثمانية منصرفة قواها جملة الى حل مسائلها ومشاكلها وقد بدا حتى الان انها لا تكثرث او لا تريد ان تكثرث بالعربية حيث ام مانت فقد نحتتم على ابنائها ان يعملوا منارها ويحموا ذمارها ويحملوا لواها وهذا لا يكون فقط بالاحتفاظ ببقايا تلك الكتب العتيقة الباشئة في مذاهب سيبويه ونفطويه واضرابها مثلا بل يكون في نشر الصحافة الحرة بكثرة في المدائن وفي القصباء وفي المديرية وفي الضواحي والنواحي . فالصحافة الحرة الصادقة بلا مدافع اكبر كلية للدولة واكبر مدرسة الامة واكبر جامعة للشورات الادبية المحطمة قيود الجبل والظلم وللنهضات الجالبة رفعة القدر ووفرة الفخر . ويقاس رقي الامم برقي صحافتها ، فكل امة لها صحافة راقية لها منزلة راقية في السياسة والاجتماع والآداب والعمران والعرفان .

لم تكن الصحافة موجودة بعرفي في دور نيعون القرن العشرين . فتلك التي كان العبيد المستعبدون يدعونها صحافة لم يكن اكثرها الا وريقات او نشرات لنشر آيات التقديس والتدليس والتدنيس بل لاذاعة المين كل المين والتمويه كل التمويه والتجهيل كل التجهيل والتضليل كل التضليل وكان الاستذلال والاستعباد يقضيان بدفن الحقائق واستحياء المخارق . اما وقد عادت الى الشعب بعض حقوقه المعطاة له من الله فمن الغضاضة على الصحافة ان تستر العيوب والعورات وكل صحافة لا تدل الدولة والامة على حسناتها وسيئاتها بكل ما في كلمة الحرية من معنى الحرية لا تدعى صحافة ولا يرجى لامتها وحكومتها صلاح واصلاح .

نعم ان مضار الانتقاد اوسع في اميركا منه في الدولة العلية بداعي تقييد الصحافة

العثمانية واطلاق حرية أميركا ، غير ان الذنب على الشعب . فشعب أميركا مطالب
وناهض وقائم والشعب العثماني قاعد وجمامد ونائم . النواب هم الذين قيدوا حرية
الصحافة وهم ضيقوا الحناق عليها والشعب هو الذي انتخب اولئك النواب وارسلهم الى
عاصمته وهو الذي يدفع مرتباتهم ونفقاتهم ، فالشعب هو سيد النواب والنواب خدامه
ولم اسمع ولم يسمع غيري ان ٢٥٠ خائما يستطيعون ان يستبدوا بثلاثين مليون
« سيد » . فيا ايها الشعب مر نوابك بتعديل قانون صحافتك واحملهم على تلبية امرك
فان لبوء كان ما تريد والا فاقبل لهم ظهر الحن في الانتخاب المقبل وانتخب الاصلاح
فلاصلاح حتى تبلغ ضالتك وتعمل عمل البلاد الشعبية . فهل من سامع او مجيب لهذا
الصوت الضعيف ؟ - (عن مجلة « المقتبس » ، سنيتها الخامسة) .

الدكتور أيوب تابت

الثورة : اسبابها ، اسنارها ، الشعب شرط لنجاحها : اذا كان الملك مطلقاً لا
قيد بقيد ولا نظام فوق ارادته فالغالب انه يستأثر في الرأي وهو اكثر ما يكون
فاسداً ويستبد بالقوة وهي فلما تصرف في سبيل الحق والعدل . ويحوم حواله جماعة
من المتلقين والمتلقين فيزوقون له انه ظل الله على الارض وان الناس واعراضهم
واموالهم ملك له يتصرف بهم كيف شاء . فيزداد بذلك عتواً واستبداداً . ولما كانت
الرعية تحشى بطشه وتحاف بأسه لا تجرؤ على انتقاد اعماله وتقويم اعوجاجه فقد ساءت
احكامه وزادت مظالمه . واذا هي قلملت من ثقل الوطأة اتهمها بالتمرد وشق عصا
الطاعة وامسى قلق الافكار مضطرب البال اذا هب نسيم السحر خاله عاصفة او مال
خيال ظنه يداً قاتلة . ويقويه على هذه الهواجس والشكوك المقربون اليه لما يبيحه لهم
استحكام التباغض والتنافر بينه وبين الرعية من استنزاف الاموال واستدراغ المغام
فيشدد في الضغط على الامة ويزيد في التشكيل باحارها . فطالما هي هائمة في ظلمات

الجل فهو في أمن من نهوضها وفكك قيودها . انما لا تعدم الا ريثما تستنير ويشعلها العلم فتشعر بشغل الوطأة وسوء الحالة فتبب مستهلكة الى المطالبة بحقوقها المهضومة . فاذا كان الملك حكيماً يرى ضعف جانبه بازاء الشعب الثائر فيستقرئ الى ارادته وينيله مبتغاه . غير ان ذلك نادر قليل الحدوث ، فان التنازل عن السلطة المطلقة بل عن اية سلطة مهما كان نوعها ليس هو بالامر السهل . والغالب ان الملك يابى الاستسلام لمطالب الامة ويأنف من تقييد سلطته المطلقة او ربما اظهر الرضى واكن الغدر^(١) حتى اذا ما امكنته الفرص من دعاة الاصلاح اوقع بهم وبدد ثملهم واعاد ملكه الى ما كان عليه من سوء الحال بل ربما شدد في الضغط على الامة وزادها عسفا وظلماً بغية استبقائها في ظلمات الجهل وديجور الفقر وهماً بان ذلك يمنعها من النهوض والعود الى المطالبة بحقوقها . وانما الويل لمثل هذا الملك فايامه مظلمة واحلامه مزعجة وبلاده تنابها القلاقل والفتن . وما كان ضغطه على الامة الا ليزيدها ميلاً الى فك القيود وشوقاً الى الانتقام . وهناك البكاء وهرق الدماء . يوم يتفجر بركان الثورة اخامد ويندفع الشعب الناقم فلا وعود تحيله ولا وعيد يهوله ولك في شارل الاول ملك انكلترا ولويس السادس عشر ملك فرنسا عبرة وذكرى .

وما عليك الا ان تعود الى تواريخ الامم فتري ان ما اشرفنا اليه من دواعي الثورة هو ما ادى اليها في عهد هذين الملكين وغيرهما . من الملوك السالفين . بل هذه ثورتنا وثورتا جارتينا ايران وروسيا فاذا بحثت في اسبابها تبينت انها هي على ما قدمناه .

ومما يجمل ذكره وان خرج عن مدار بحثنا هذا هو ان اكثر الثورات يتبع بعضها بعضاً وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم . ومثال ذلك حدوث الثورة الافرنسية على اثر الثورة الاميركية والامتان يومئذ في منزلة واحدة من الرقي ثم حدوث ثورات سائر الشعوب الاوروبية المتقاربة في العرفان من مثل

(١) هنا ، في الاصل ، تعاقب لكاتب المقالة يذكر فيه شواهد تاريخية على رضى الملوك بتراجعهم ، وقتياً ، امام شعوبهم ريثما يثبون وثبة يحاولون فيها تجريد تلك الشعوب من انتصاراتها .

بروسيا والنمسا وبلجيكا على اثر الثورة الافرنسية الثانية ثم ثورات الروس والفرس والعثمانيين وهم على درجات متشابهة في العرفان وقد جاءت كل واحدة تلو الاخرى .
ولقد ادرك المملوك المطلعون ذلك فكانوا يتأهبون على اخماد جذوة الثورة اين شبت خوف تطاير شرارها الى ممالكهم من تألب انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا على اخماد الثورة الافرنسية الاولى ام الثورات ونور احرية . ولا اخالنا نحن العثمانيين قد نسينا نظر الروسية الينا شذراً يوم قلنا الدستور للمرة الاولى ولم يكن قد تشكل فيها بعد مجلس الدوما .

قد لا يدرك الشعب الذي طال عليه عهد الاستعباد ان الانسان يولد حراً وان استعباده لانا هو امر اغتصابي حتى لقد يتوهم ان حالة العبودية هي حالة طبيعية له لا يستغريها ولا يستنكف منها بل لو قام من طالب له بحقوقه المغتصبة رأيناه واقفا الى جانب السلطة حائلاً بينها وبين حقوقه . ولا يلبث من يشك بصحة هذا القول الا ريثما يرجع الى تاريخ ثورات الامم فتبين له مكانة هذه الدعوى من الحقيقة . حتى انه لا وجوب لمراجعة التاريخ فهذه الثورة الروسية وعندها غير بعيد بل لا يزال شرارها متطيراً هي شاهد ناطق بذلك . ولا عبرة بالقول ان الجيش وليس الشعب هو الحائل بين الامة والحكم الدستوري ، فلما الجيش من الشعب فلو كان الشعب متنوراً عالمًا بحقوقه لكان الجيش المستمد منه قد عرفها ايضاً .

ومما يدل على مكانة وقوف الشعب على حقوقه الطبيعية من الخطورة في الثورات السياسية ان فلاسفة الافرنسيس واكابر كتابهم من مثل فولتر وجان جاك روسو ومنسكيو توخوا تعليم الامة ذلك قبل اعلان الثورة الافرنسية بمدة بعيدة فما ثارت الا وهي عالمة بما تطالب به السلطة وملمة بالطرق الموصلة اليه . وكان من بادى اعمال دعاة الثورة لاول التمام الجمعية الوطنية انهم ثشروا على رؤوس الاشهاد منشوراً عنوانه « اعلان حقوق الانسان » .

وانك اترى في رجوعك الى تاريخ الثورة الاميركية انه قد كان اعلانها على اثر منشور هو بنفس العنوان المذكور وبما يقارب مضمونه معنى . بل لو بحث باحث بحثاً دقيقاً في نظمات الحكومات الشوروية وقوانينها الاساسية لاتضح له انها مبنية على

حقوق الانسان الطبيعية .

ولم يعتمد رجال الثورة من كلتا الامتين في اعلان حقوق الانسان مجرد تحريض الشعب ودفعه الى الهياج والفتنة بل رموا الى امر مهم هو تعليم الفرد من الناس ما له من الحقوق على الامة ^(١) وما للامة من الحقوق على السلطة ومترلة السلطة من الامة حتى اذا ما عرف ذلك نهض مع دعاة الثورة وكاتفهم في كبح جماح السلطة واكراهها على ردها اليه حقوقه المغتصبة وحصرها ضمن دائرة لا تتعداها .

اذا ظل السواد الاعظم من الشعب جاهلا لحقوقه الطبيعية ومترلة السلطة من الامة وانحصر العلم في ذلك بفترة معدودة فقامت تطالب الملك المطلق بحقوق الشعب فالارجح انه لا يتيسر لها ذلك وكان مصيرها الوبيل والفشل . حتى انها لو تمكنت من بغيتها وقيدت الملك بالشورى فليس ثمة ما يضمن للامة بقاء الحالة الناشئة بل الاقرب ان الملك يستعيد الحالة الماضية اما باغراء زعماء الثورة وهم قليلون واما باستمالة الشعب الجاهل لحقوقه والذي يحيل له كما اسلفنا ان العبودية حالة طبيعية وان السلطة هابطة على الملك من قوة وراء الطبيعة لا يسوغ للبشر مساسها .

والك في تواريخ الامة الحاضرة ما ينطبق على مثل ما نحن في صده . بل لا اسألك العود الى التاريخ لتري ذلك فان لك في جارتنا الامة الفارسية بل الامة العثمانية نفسها لاول عهد جلاله السلطان الخالي مثلاً قريباً . فكل من الملكين ، قياماً بطلب فئة معدودة من الشعب ، اتال امته الدستور انما ما عثم ان تمكن من ملكه فاسترد ما اتاله واتاد الحكم الاستبدادي المطلق . فكان من وراء ذلك ان الامة العثمانية بقيت نحواً من ثلاث وثلاثين سنة في حالة من العبودية لم يسطر التاريخ الحديث لها مثيلاً . - (عن كراس « عبرة وذكرى » وفيه مجموعة مقالات للدكتور ثابت كشيأ بمناسبة اعلان الدستور العثماني ١٩٠٩) .

(٢) لافيت في مذكراته - تعليق لكاتب المقالة .

عبد الرحمن عزام

النبي محمد اول وصوله الى المدينة بضع أسس دولة وموقراتها : شرع في الحال في بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ وفيه كانت الأساس التي وضعها اصلاح الدين والدنيا ، واصبح معبداً و « برلماناً » ومقرراً لسلطة التنفيذية ، ومركزاً للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوة الى الله ، والشرائع خلقه ، وجميع الخطط والتدابير الادارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويلقن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه واساسه ، وعلى قسوة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد واصحابه ، وانصرافهم للجوهري من الامر . ويذكر الناس في كل حين بهذه الحقيقة ، وهي ان الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التي تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان في الأوضاع والاسراف في المظاهر .

ومن هذا المسجد نمت تدريجياً الادارة الاسلامية الى ان شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفي هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، واحوال طارئة ، ولكنها بنا انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الادراك ، كانت بذوراً لاوسع الادارات الامبراطورية ، وقواعد لاكبر اصلاح بشري . من هذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها ، لا مسكناً لاقوام متنازعين فيها ، وطناً آمناً للمسلمين والمشركيين واليهود ، وللتنازحين اليها من أية قبيلة كانوا ، ولاي عنصر انتسبوا ، عرباً أو عجماً .

فظهر لأول مرة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطي حقوقاً ويلزم تكاليف ، من غير نظر الى الاحساب والانساب والعصبية والعقائد .

اظهروا اليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد في صحيفة بين أهل الاديان والاجناس ، فجعلهم جميعاً وطنيين مكلفين الدفاع عن الوطن أي امام اعتداء.

(١) من كتاب مصر المعاصرين .

الفكر العربي الحديث

عليه ، متكافلين في الحرب والسلم ، لا ينصرون غيرهم ، ولا يثأرونه على اهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، وتكفل حرية العقيدة لاهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدى الصحيفة بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم نقرر ان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وان يهود بني عرف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، والمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم ، ثم نقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بني عوف . ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، الى ان تقول : وإن يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها ، وان ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساد ، فان مردّه الى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انتقدت الى النبي سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت اليهود ان تنص على حكمهم في حالة الخلاف ، ولم يكن الا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الاساسي لدولة الاسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والاباحة للقوة ، وجعل لأول مرة في البلاد العربية حق الامة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع إقامة الحدود الى الله أي الى شريعته ، وإلى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت الى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبري . وبذلك غرس لاجىء الى يثرب بذرة الحضارة في اشد الاقوام نزوعاً الى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الابطورية التي ازهرت قروناً طويلة ، ولا تزال فخر المشرق ، وحديث المغرب ... (عن مجلة « الراوي الجديد » ، آب ١٩٤٣) .

محمد جميل بيهم

الثورة الفرنسية والمرأة : بينما كان الفريق الأكبر من نساء اشراف فرنسا مسترسلا بالملذات في اواخر القرن الثامن عشر ، كان فريق آخر من نسوة الشعب يتداول بما صارت اليه حالة المرأة ، ويتجدد على المطالبة بمساواة الجنسين . بيد ان الروح العامة كانت غير ملائمة لهذا الطلب ، لان معظم الامة وفي مقدمتها العلماء الذين يسمون بالجماعين « Encyclopédistes » كانت تنكر عليهن المساواة . ولا جرم فقد كانت افكار جان جاك روسو « ١٧١٢ - ١٧٧٨ » هي السائدة على الرأي العام . ومعلوم كم كانت تعتبر المرأة قاصرة ومخلوقة لاجل لذة الرجل وانشراح قلبه .

وكانت الآمال في تحرير المرأة معقودة على الثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » ولا سيما لما بذله الجنس اللطيف على مذبحها من التضحيات ، من مثل مدام رولاند ولويسيل سمون . ولكن حكومة تلك الثورة انكرت الجميل وايدت استعباد النساء . غير انها مع ذلك افادت القضية النسائية بطريق العرض بما الفتت اليها الانظار حينما اعلنت المساواة العامة ، فانتصر للنساء بعضهم مثل سياس ^(١) وكندرست ^(٢) وكتب كثيرون - رجالا ونساء - مؤيدين حقوق المرأة واشتهرت من بينهم في اثناء ذلك الآئسة اولامب دي كوج « ١٧٤٨ - ١٧٩٣ » وهي تعتبر في فرنسا بثابة ماري ولستينكرت في بريطانيا العظمى ، اول حامله لواء القضية النسائية .

اما حكومة الثورة فهي في الواقع لم ترد ان تقف محايدة ازاء القضية النسائية ، وانما انكرت على اربابها اجتماعاتهم وضجتهم ، واستكبرت تطرف بعض النساء ، فاصدرت امراً في سنة ١٧٩٥ تحظر فيه على النساء الاشتغال بالسياسة والاشتراك بالاجتماعات ، وشرعت تطاردهن حتى لم يعد يسمع لقضيتهن همس . ولما تبوأ العرش نابليون الاول قضى على كل امل نسائي وبنفوذه على مشرعي فرنسا جعل الامرة في

(١) الزامب Sieyès .

(٢) Condorcet .

القانون بثبة الذقة العسكرية ، قائدها الاب ، وعلى المرأة والاولاد الطاعة العمياء ، طاعة الاجناد .

ولما استعاد آل البوربون العرش « ١٨١٤ - ١٨٣٠ » شرع بعض المنكرين بحركون من جديد بكتاباتهم اسلاك القضية النسائية ، فتبهر معها افئدة جمهور من النساء على وجه خاص . وقد انشأ بمضين صحيفتين لهذه الغاية ، وهما جريدة « المرأة الحرة » و « الشرارة » . ولكنها لم تكونا من ذوات الاعمار الطويلة لان الرأي العام كان لا يزال غير مستعد لقبول فكرتها .

وقد عقد النسائيون الآمال على الجمهورية الثانية التي اعلنت سنة ١٨٤٨ ، واستبشروا حينما استقبلت ممثلاتهم في قصر الحكومة ، ووعدتهن خيراً ، ولكن اجل هذه الجمهورية كان قصيراً ، فعادت الملكية سنة ١٨٥٢ ، وعادت معها الصرامة ضد المرأة ، واصدرت امراً بنفي مديرات الحركة النسائية .

وفي اثناء ذلك صار لبعض نساء فرنسا ضلع بالعلوم والمعارف ، فشرعن يطالبن بحقوق المرأة بالحجة العلمية والبرهان ، فالف فريق منهن الكتب : مثل مدام آدم ^(٤) وجيني داريكورت . وكتب فريق آخر منهن بالصحف مثل : مدام اندره له يو ، وغيرها . وانشأت حنة درون جريدة سميتها رأي النساء ، وفضلاً عن ذلك استعان كثير من الرجال واشهرهم ليون ريشر فنهضوا بقوة للانتصار لهن .

واستمر انصار المرأة ، ولا سيما في اثناء شدة وطأة الملكية عليهم ، يذكرون مواعيد الجمهورية فيحنون الى عهدها . فعقدت بينهم وبين الحزب الجمهوري رابطة المصلحة ، وشرعوا بظاهرة هذا الحزب . ولما اعلنت الجمهورية الثالثة ١٨٧٠ الحاكمة الآن اعترفت لهم بخدماتهم ، وهي وان لم تحقق لهم امانيتهم الا انها اطلقت لهم حرية العمل ، فدخلت القضية النسائية منذ ذلك في دور جديد . - (عن كتاب « المرأة في النمدن الحديث ») .

(٣) جوليت آدم اشتهرت في البلاد العربية ل صداقتها مع مصطفى كامل (زعيم الوطني المصري) .

الشيخ مصطفى الغلاييني^(١)

الحربة الصحيحة هي التي بناها الشعب بقوته : نالت الامة العثمانية حريتها واكثر البلاد غير مستعد لذلك ، فان لم نبذل الجهد لترقية الاقوام الذين لم يفهموا - الى الآن - معنى الحرية والاستقلال الشخصي ، فلا تلبث الحكومة ان تتسفل وتندنى الى اخلاق هذه الاقوام ثم لا يمضي زمن حتى ترجع الحالة الى شر مما كانت عليه . ذلك لان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجية عنه ، كالجيش مثلاً او كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر . اما الحرية التي تنال بواسطة الجيش فانها تنتزع بواسطة كما كاد يحصل في ثورة استانة الاخيرة الشهيرة بفتنة ٣١ من مارس و ١٣ من نيسان ، او تنتزع متى سكنت نائرة ذلك الجيش وذهب رجاله الى اهلهم .

وكذا الحرية التي تمنحها الحكومة دون ثورة من الشعب ، فانها تنتزع متى مات او سقط السلطان المانع الحرية كما حصل في الحرية التي منحتها سلطان العجم لشعبه ، فان خلفه انتزعها قسراً واهرق دماء كثيرة في سبيل ذلك ، فلو كانت الامة هي التي طالبت بحقوقها واصرت على نيل حريتها فلا يمكن ان تنتزع منها حريتها ما دام فيها رمق من الحياة .

فالثورة الحقيقية ليست ثورة الجيش لطالب الحرية ولا ثورة خارجة لطالب حرية امة ، وانما هي ثورة الامة ، وفضل معاني الثورة هي الثورة الادبية او الاخلاقية ، لانها هي كل شيء . وكل معنى من معاني الثورة هو تابع لها على الدوام ...

الفواين يجب ان نوافي اليه والحالة الاجتماعية^(٢) ، هي اللغة : وان من

(١) معاصر من وجوه رجال الدين والادب في بيروت . كل هذه النصوص المختارة له كتبت في مجلته التبراس ، لمناسبة الانقلاب العثماني .

(٢) موافق رأي مونتسكيو .

أخطأ البين ان تقاس الامة العثمانية الحديثة العهد بالحرية والدستور بامسة الفرنسيين او السكسون فتحكم بقانون احدهما ، لان الفرق الشاسع بيننا وبينهم يوجب علينا ان نسن لانفسنا قوانين توافق بينتنا وحالتنا الاجتماعية .

يجب ان يكون القانون الذي تحكم به استانة وسلانيك وبيروت ودمشق وغيرها غير القانون الذي تحكم به اليمن والافاضول وقسم عظيم من بلاد الارناؤوط ، فان البلاد الاولى واما هي على شاكلتها تحتاج الى حكم ارقى من الحكم الذي تحتاج اليه البلاد الاخرى ، وهذا مشاهد حتى يكاد يلمس باليد ، وقد وضع وضع الشمس بعد اعلان القانون الاساسي ، فقد كان يون شاسع بين هاتين البلادين من حيث تأثير روح الحرية والدستور في نفوس اهليهما وعدم تأثيرها ...

... واما ما يختص بالمعارف فالنظر فيه لا يقل عن النظر فيما سبق ، فان المعارف روح البلاد وهي السبب الوحيد لابقاظها وانهاضها ، فيجب الاهتمام بنظامها اهتماماً عظيماً بحيث يكون عاماً شاملاً لاجابات كل قطر من الاقطار العثمانية على اختلاف لغاتها ومذاهبها ، فان كانت الانظمة المتعلقة بالحقوق والجزاء والمعاملات تصلح مثلاً لبعض البلاد العربية والتركية معاً فان النظام المتعلق بالمعارف لا يصلح منه ما يصلح العمل به في استانه وسلانيك لبيروت وحلب وبغداد وغيرها من الولايات العربية لاختلاف اللغة وهذا من جملة شكاوى ابناء العرب التي ملأت اخافقين ، فان اللغة التركية كانت تنحو اثر اللغة العربية ، فانها - فضلاً عن كونها لسان الدولة الرسمي - لسان العلم في مدارس الحكومة عامة في البلاد التركية والعربية على السواء ، وكان الاولى بالحكومة ان تجعل لسان التدريس في كل بلاد بلغة اهليها ... فانها ان فعلت ذلك تكون قد سعت لترقية البلاد ترقية محسوسة ، لان التلاميذ لا يدرسون معنى العلم ان درسوه بغير لغتهم إلا بعد اثنان اللغة التي يدرسونه بها ، ولا يتأتى لهم اتقانها إلا بعد مدة ليست بالقصيرة ، وفي اثناء تلقى العلم يكون التلميذ مشغولاً بتفهم العلم وتفهم الالفاظ التي تحوي ذلك العلم . فيكون علمه بسبب ذلك ناقصاً مقتضباً ، فلو درس التلميذ العلم بلغة ابيه وامه فلا يشغل الا بشي واحد وهو تفهم معنى العلم الذي يتلقاه ، وهذا سر عظيم يجب ان تنبه اليه نظارة المعارف ، وان كان يسي اكثر

الشبان الاتراك المعرورين الذين يسعون جهدهم لتتريك عناصر الدولة ...

الثورة وهواطر في الانقلابات: الثورة نهوض يقصد منه تغيير في السياسة او الاجتماع او الاخلاق من قبيل الى حسن او حسن الى قبيل ، وقد يعبر عن الغاية الاولى بالانقلاب وعن الثانية بالهيجان^(١) . وقد يُخص القيام لطلب الحق بالانقلاب ، والنهوض لمناصرة الباطل بالثورة ، والثورة للحق من مطالب الامم الراقية . غير ان النهوض لتغيير نظام السياسة لا يفلح انصاره ولا تثبت دعائم مطالبهم ان لم يسعوا قبل ذلك لتغيير نظام الاجتماع والاخلاق حتى يكون للامة استعداد لتلقي ما يراد بحجده . وحتى لا تثور ضد ما يخالف الانظمة القديمة والعادات السائرة فينتج حب التغيير عكس المقصود . ولو فرضنا انها لم تثر ولم تعارض في جديد النظام وحديث التغيير ، فانها لا يمكن ان تستفيد من الاصلاح شيئاً ، بل ربما يكون الاصلاح شراً عليها من عاداتها القديمة ولو كانت ضارة ، وهذا قول ربما لا يسلم به كثير من الناس .

وانه بقدر استعداد الامة للحكم الدستوري والاصلاح تنتفع من ذلك . فان ثالت الدستور وابتسح لها الاصلاح غير انها لم تستتج شيئاً فاعلم انها أمة غير صالحة لهذه النعمة ، لانها لم تقدرها قدرها ولم تهي . لها الاسباب اللازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفوائدها . وليس الذنب على القوانين ولا على القائمين بتنفيذها . وانما الذنب على الامة التي 'تحكم بتلك القوانين ، لانها تدع منفذها يفسرون موادها حسب مشتبهاتهم دون معارضة وما مصادمة .

... ان الامة التي هي على هذه الشاكلة ان ثار في متنورها وعظاء رجالها نائرة الاصلاح السياسي قبل ان يتقدمه الاصلاح الاخلاقي وثورة الفلاسفة واهل التربية يكون وبلاً عليها كما اسلفنا ، فان تم نوال الاصلاح السياسي قبل الاخلاقي وانتشرت في الامة القوانين الراقية وحمل الحكماء على القضاء بها ، فترى تلك الامة آسفة كل الاسف على ماضيها وعلى الحالة التي كانت فيها ، وتتمنى لو ترجع في حافرتها ، مع

انه لا يشك عاقل في ان حالتها الحاضرة هي خير من حالتها الماضية ، واني ذي لب يشك في ان العدل والمساواة خير من الجور والحكم يقتضي الهوى ورغبات النفوس الظالمة الفاسدة . . .

. . . لا جدال في ان شكوى هؤلاء النماهي من الحكم لا من القوانين والانقلاب الدستوري .

- من هؤلاء الحكماء ؟ اليسوا من الامة ؟ فلو كانوا راقية افكارهم صحيحة اخلاقهم فهل كانوا كما هم اليوم ؟ لا ريب انهم لو تربوا تربية صحيحة وعُودوا للحكم بالحق دون مراعاة ولا ميل لمنفعة لرأينا منهم في هذا الدور السعيد رجالا ينهضون بالامة ويقومون من اعرجاج اعمالها . فلنخط اذن على الحكماء لا على الدستور والحريه !

فان قيل ان الدور الماضي والدور الحاضر سواء . لان اكثر الحكماء اليوم هم الحكماء بالامس ، نقول : ذلك حق ، ولكنهم بعد ان كانوا مطلقين صاروا مقيدون باداة الامة ، غير انه لما لم يكن للامة ارادة بل سلمت ارادتها اليهم اخذوا يرجعون الى ما اعتادوه من ذي قبل شيئاً فشيئاً ، فهل الامة ان تقف في وجوههم وتجهزهم على عدم الخروج عن مواد القوانين الدستورية ؟ فان فعلت ذلك نجحت وجنت فوائده الانظمة الجديدة ، وان بقيت كما هي اليوم خاملة مستكينه فالعاقبة غير حميدة ! - (عن مجموعة « اريج الزهر » ، بيروت ١٩١١) .

ملاحى مہري

۵۶۸۱ - ۷۸۲۰

ملحق مہري

رقم ۱

۸۳۸۱ - ۲۶۲۱

۸۳۸۱ - ۲۶۲۱

الياس صالح

١٨٧٠ - ١٨٩٥

الحربة

لا تلغني يا عاذلي بهواها فأننا قيس هذه العامرية
وعلام الملام ، والقلب قلبي ومعني فيه حجة شرعية ؟
فاذا كنت تدعيه فقدّم عرض حال للاعين^(١) التركية
... وخبطنا المشوا. لو كنت تدري في ليالي تلك الشعور الدجيه
وانخذنا سلال الشعر قيئداً ونسينا المسكينة الحريه !
انت حرّ ، يا ايها المرء ، فاعلم ولك العلم فيه والانسقيه
انت حرّ ، فاعلم بهذا ، وعلم انت حرّ وهذه أوليه !
يتمنى الانسان لو كان عبداً ويقم الادلة العليّة
ولكم قد رأيت من حيوان يتضم الجبل بغية الحرية !
يا بني امنا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربية
لست عبداً انا ولا انت مولى أيها اللابس الحلى الذهبية !

احمد شوقي

١٨٦٨ - ١٩٣٢

مبيل بالجابر لا بربره

لو كان من سقر ايابك^(٢) امس او فتح مبين

(١) الاعين : الجوايس .

(٢) الخطاب موجه الى توت عنخ آمون .

او كان بعثك من ديب الروح او نبض الوتين
 وطلعت من وادي الملوك عليك غار الفاتحين
 اخيل حولك في الجلال العسجدية ينشئين
 وعلى نجادك هالتان من القنا والدارعين
 والجند يدفع في ركابك بالملوك مصفدين
 لرأيت جيلا غير جيلك بالجبار لا يدين
 ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاكمين
 روح الزمان ونظمه وسيله في الآخرين
 ان الزمان واهله فرغا من الفرد اللعين
 فاذا رأيت مشائخا او فتية لك ساجدين
 لاق الزمان تجدهم عن ركبته متخلفين
 هم في الاواخر مولدا وعقولهم في الاولين !

النفوس لها ثورة

ان ملكت القلوب قابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضام
 يسكن الوحش للوثوب من الامر ، فكيف الخلائق العقلاء ؟

خليل مطران

من قصيدة « نبروه »

ذاك الشعب الذي آتاه نصراً هو بالسبة من نبرون أحمر
 أي شيء كان نبرون الذي عبده ؟ كان فظ الطبع غراً !
 قزوة هم نصبوه عالياً ، وجثوا بين يديه فاشمخراً !
 ضخموه وأطالوا فيشه فترامى يملاً الآفاق فجرا

منجوه من قوهم ما به صار طاغوتا عليهم ، او اضرا
انما يبطل ذو الامر اذا لم ينف بطش الأولى ولوه أمرا

لست محزوناً على القوم ، وهل كبد تلقى على الانذال حرتى
ما علينا من غريم غارم ان أزدى الخلق شعب مات مبراً
ليس بالكف. لعيش طيب كل من شق عليه العيش حراً !
ان روما جمعت نيرونها وهو شر القوم مما كان شراً
بلغته الملك عفواً ، فبغى ، كل ملك جاء عفواً راح هدرأ
ليس في تشايحه من بدعة ان للظالم عند الذكر ثأراً !
لا ولا في ظلمه من عجب ان للظالم عند العدل وتراً !

من يلم نبيرون ، اني لاثم امة لو كبرته ارتد كبرا^(١)
امة لو ناهضته ساعة لانتهى عنها وشيكاً واثبجراً^(٢)
فاز بالأولى عليها ، وله دونه معذرة التاريخ اخرى
كل قوم خالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى !

جميل صدقي الزهاوي

١٩٣٦ - ؟

ملك عن فعله بس يسأل

لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم يحمله من جوره ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا امر أنفسهم الى ملك عن فعله ليس يسأل !

(١) جبهته جيهاً .

(٢) اعتدل .

ارادة شخص واحد

نحن في غفلة نيام وعدا نائبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تداركها الله نبيح الحظر للحكام
وعدها بالاصلاح جه ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص واحد ان نعيش كالانعام

معروف الرصافي

باملك الانام هلا اعتبرتم

انما نحن امة تدرأ الضيم ولا تستكين قط لوال
امة سادت الانام وطابت عنصراً من اواخر واوال
فاذا ما علا الفشوم نهضنا فقذفناه سافلا من عال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لذوي الجور لا من الصلصال
يا مملك الانام هلا اعتبرتم بملك تجوز في الافعال
فاتركوا الناس مطلقين والا عشم موثقين بلا وصال

بشاره الخوري

(الاخطل الصغير)

بين لويس وعبد الحميد

عاهل القول لفقة شم رجب بطريد من المملك شريد
قل له ، يا لويس ، ماذا جنى المملك وماذا جناه خمر العبود
قل له كيف ثل عرشك ، والعرش عليه يرف مجد الجبود
قل له كيف قادك الجند بين الشعب للقتل راسفاً بالقيود

الدرسات والنورات

ان الدساتير لا تعطي اعنتها الا الاعاصير من جن ومن بشر
من هابط كقضاء الله مكتسح او صاعد كفهم البركان منفجر

وما الشباب في سبيل الحرية

يا دماء الشباب ما انت الا ذائب الطيب ، يا دماء الشباب
ادفني رحمة ونوراً ، وكوفي جدول السفع او هزار الغاب
لا تضني على الحراب وان آذتك ، بل عطري رؤوس الحراب
املأها شذاً ، كما يملأ الورد يد الجارحيه ، بالاطياب
قطرة منك بسمه في فم الرفق ، وسوط على يد القرضاب
كم سياج من الحديد تعفى وسياج باق من الاداب !
ما خلا الغيل من دمشق الى الشهباء من حافر ومن وثاب
بسلاح من الحقوق المدماة نسيج القلوب والالباب
شهرت مثله فرنسا على الظلم فردته من دم بخضاب !

يا فرنسا

لغني الطغيان درسا	ليس ينسى
وصلي باليوم اما	يا فرنسا ...
يظلم المجد فلا يشرب	الا من يديك
ويضام الحق حتى	يرفع الصوت اليك
كل فجر من جمال	بسمه في شفقتك

يا فرنسا

يعرف النصر على بعد لواءك وينفي السيف في الهيجا علاك

يا فرنسا

لا يسيل العطر الا من دمائك

يا فرنسا

انثري الاضواء في الافق البعيد وابعثي فينا صداقات « الرشيد »

انت والارض شعار للخلود

يا فرنسا

سيفك الماويل في الشرق سيرف الدهر دونه

باركته القدس الشكلى وحيته « المدينه »

صافح اليمن يمينه قبل الشرق جبينه

يا فرنسا

لقني الطغيان درسا ليس ينسى

وصلي باليوم امسا يا فرنسا ...



الياس ابو شبكة

من قصيدة الشاعر الحر مخاطب السلطان الظالم

فأغمد الحر في عينيه ^(١) فوهة من ناظريه ، كبركان بركان

وفال : ملكك ليس الشعب يملكه فلت تملك الا بعض عيمان

كن من تشاء ، كن الدنيا بكاملها فلت تعدل صديقا بيزاني

جمال قلبي عربان على شفتي ونور نفسي معقود باجفاني

وكيف اكذب ، والدنيا تصارحني حتى قشوري ، حتى جسمي الغاني

انظر الى النهر في صفو وفي كدر فهل تحفى على الصفاف والبان ؟

للنور في كل مجرى منه مصقلة ، وكل منعطف للحب ثديان

وانظر الى حرمون الشيخ كيف بدا فهل لهيته السماء وجهان ؟

فذلك الجبل الجبار اطعمني قوت النور وهذا النهر رواني

خفف عتوك واغسل قلبك الجاني لاظلم يوم والمظلوم يومان

عرش العتي على بركان منكزه شتية رخت في قلب سكران

ما كان سلطان هذا الشعب سيده ، ان السيادة ما احتاجت لتيجان

(١) الضير راجع الى السلطان الظالم .

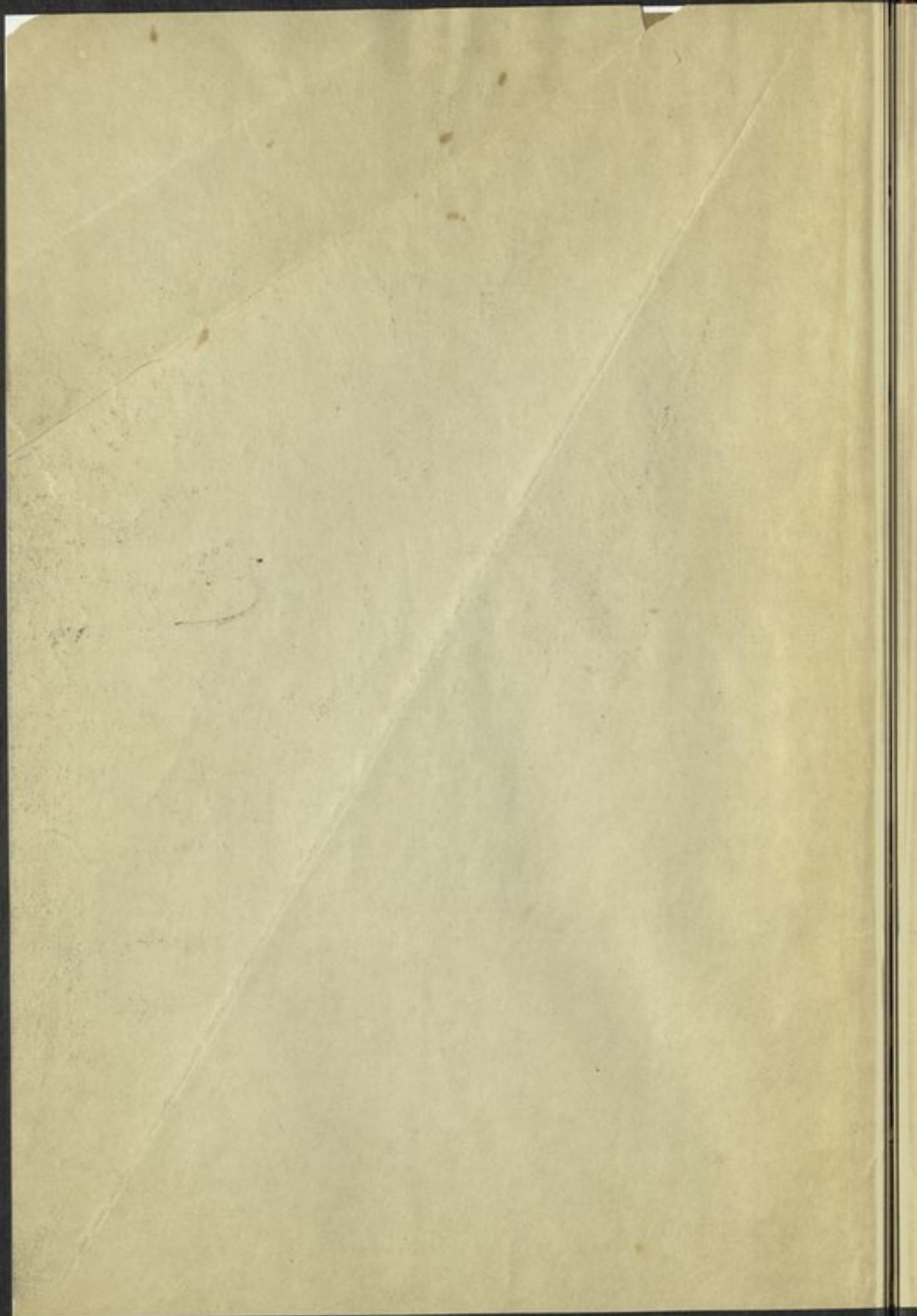
خاتمة

... وهنا ، ايها القارى ، نشرف على هنية الوداع بعد صعبة طويلة . وما
أحبك ان تطوي الكتاب الا وقد حملت معك هذه الخلاصة ذات السطور القليلة .
لقد شهدت موكباً حافلاً من ادياء ومصاحبين وقادة ثائرين وحوادث جسام ، في
بلاد من العالم . وشهدت موكباً حافلاً من ادبائنا ومصاحبتنا . شهدت الافغانى
والكواسي والمراش والنديم واسحق والشميل والريخاني وجبران وغيرهم وغيرهم ...
فعرفت ، اولاً ، ان تاريخنا الفكري في مطلع نهضتنا الحديثة ، يباهي بصفحات خيرة
نيرة ، من رجال جريئين متعمقين . وعرفت ، ثانياً ، ان هؤلاء الافذاذ من ادبائنا
ومفكرينا لم يبتروا ما بينهم وبين ماضينا ، ثم لم يقطعوا ما بينهم وبين الدنيا ، ثم
لم يقفلوا على انفسهم في « صوامع وبرايج » ، ولكنهم شخصوا الى قديتنا وتعلموا ،
وأطلوا على العالم وتفقهوا ، ونظروا في احوالنا وشؤوننا ، وطلمعوا من ذلك كله بلاوا
نقشوا عليه مطامحتنا ورسموا امانينا . اما هذا اللواء فهو الوطنية ، واما هذه المطامح
والاماني فهي الحرية والرقى والهناء الامة بخالصتها وعامتها .
لقد عرفت ، ايها القارى ، ان وطنيتنا الحديثة ولدت في حضان الشورى
والديموقراطية ، واتجهت الى الشعب ، واستندت الى قوته وكفاءته ومصالحته . طالبت
وطنيتنا ، اول شيء ، بدستور ديموقراطي تصان حرمة . طالبت بمجلس نواب تنتخبه
الامة انتخاباً حراً ، ليعبر عن ارادتها . طالبت باطلاق الحريات للقول والاجتماع
والكتابة والتنظيم . طالبت بالغاء الامتياز واعلان المساواة امام القانون . طالبت بنشر
الثقافة ، وادخال مجانية التعليم والزامية التعليم . طالبت بانهاض مستوى المرأة ، لان
« الامة نسيج الامهات » . طالبت بتربية قومية جامعة تشعر الفرد بالمسؤولية امام
المجموع ، وتواخي بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف المذاهب والمذاهب ، لان « الدين
الله والوطن للجميع » . طالبت بتشجيع المشاريع العمرانية لتحسين الزراعة وحالة

الزراع . وطالبت بتنشيط ارباب الصناعة الوطنية وترقية حالة الصناع . . .
 لقد عرفت ، ايها القارى . ، كل هذا . وانه لثراث مجيد ، اثره العقل النيروجاد
 به الشعور الحثيّر ، هذا التراث الذي خلفه لنا ادياؤنا ومفكرونا . وان مسألة حفظه
 وحمايته وتكميله ، في الدور الجديد الذي نقبل عليه ويقبل العالم خارجاً من اشد
 المعامع هولاً ، هي مسألة تتعلق بشرفنا ومصيرنا ، نحن ورثة اولئك الميامين ، السابقين
 في محاربة الاستبداد من اجل الشورى ، ومكافحة الاستعباد من اجل الحرية !

رأيت في هذا التراث
 ما يشبه
 ما كنا نحتاجه

اتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع الكشاف
في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٣



000000 0000000000

0000129

00008967
M-1

M-1

2000000.00

1877-78

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

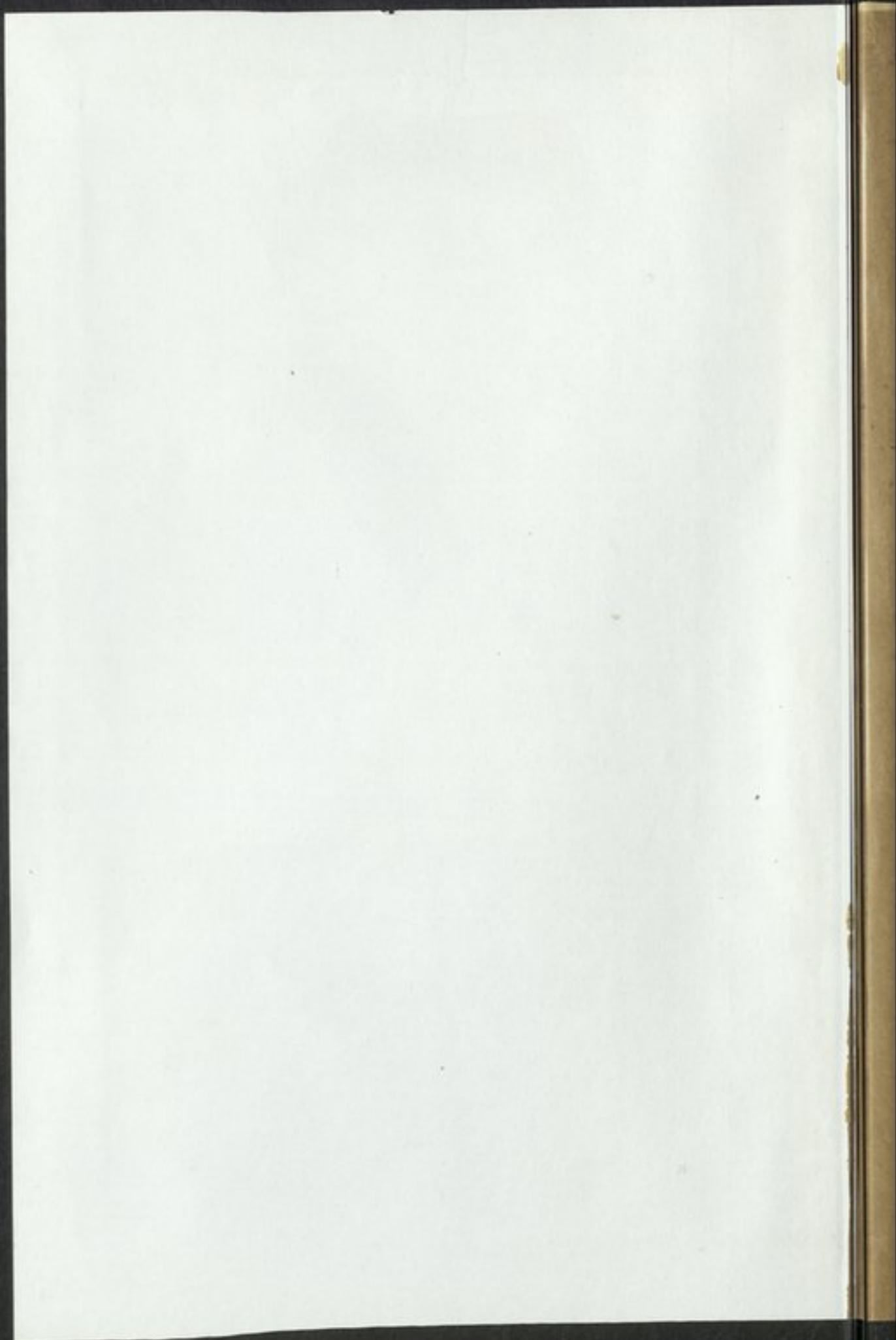
١٥

١٦

منشورات دار الميثاق

ميخائيل نعيمة	كان ما كان
عمر فاخوري	الباب المرصود
عمر فاخوري	الفصول الاربعة
الياس ابو شبكة	افاعي الفردوس
كامل مروه	نحن في افريقية
احمد مكي	النداء البعيد
توفيق عواد	الرجيف
قسطنطين زريق	الوعي القومي
رثيف خوري	معالم الوعي القومي
رشدي معلوف	البرلمان الامثل
صلاح لبكي	مواعيد
خليل تقي الدين	خواطر ساذج
" " "	الاعدام
محمود تيسور	نداء المجهول
	نعت الطبع :

صلاح الدين المنجد	في قصور الخلفاء
صلاح الدين المنجد	ساعات مع ادباء الغرب
بطرس البستاني	معارك العرب في الشرق والغرب
بطرس البستاني	الشعراء الفرسان
الياس ابو شبكة	نداء القلب (شعر)
قدرى قلعجي	الرحالة العرب في القرون الوسطى
خليل تقي الدين	ينبوع الفن (مسرحية)



A. U. B. LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AUB LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00484352

